الباب الثانى

حياتى..
مذكرات سيد محمد باشا

obeikan

obeikan

(١)

يتضمن هذا الكتاب كثيراً من الأسرار الخطيرة، ووجهات النظر المتفردة، والانفرادات التى لم ترد فى غيره من المذكرات، وهو من أهم وأخطر كتب المذكرات التى نشرت فى مصر. ومن العجيب أن هذه الطبعة الكاملة التى بين أيدينا صدرت فى كتاب عام ٢٠٠٣ بعد وفاة صاحبها بسنوات تفوق العشرين، وبعد مضى أكثر من ثمانين عامًا على أهم الأحداث التى تناولتها هذه المذكرات، وبهذا يبدو الكتاب نموذجًا مثاليًا للمذكرات التى لا تخرج إلى النور إلا بعد وفاة كل مَنْ مستهم بالتعليق، أو النقد، أو حتى الثناء.

وسوف نتناول فى كتابنا هذا معظم ما ورد فى هذا الكتاب من أحداث وذكريات، واعدين القارئ أن نتناول الجزء الآخر من الكتاب فى إطار الحديث عن مذكرات المدرسين ورجال التربية والتعليم حتى تكتمل الفائدة مما احتوته هذه المذكرات الدسمة من تفصيلات عميقة فيما يتعلق بنظمنا التربوية، وبتاريخنا التربوى كذلك، وبتاريخ أجهزة ومسئولى التربية والتعليم فى مصر على مدى حقبة طويلة، وهكذا فإننا لن نتناول فى هذا الباب كل ما فى كتاب المذكرات هذا الذى بين أيدينا، وسنؤجل الحديث عن كثير من الذكريات التربوية إلى موضع آخر، وإن كانت طبيعة مدارستنا ستجعلنا نلجأ إلى مدارسة بعض الأحاديث والأحداث التربوية فى الكتاب ضمن مدارسة موضوعات أخرى أعمق منها وأعرض، ولا تستقيم مدارستها بدون التعرض إلى ما يرويه صاحب المذكرات هنا أو هناك.

(٢)

توفى سيد محمد باشا يوم ٢٧ أبريل ١٩٨٢، أى عقب عودة سيناء فى ٢٥ يناير

١٩٨٢ ، وكانت وفاته فى ذلك التاريخ تعبيراً عن الإكرام الذى شاء الله أن يكرّم به حياته حين استمرت هذه الحياة وطالت حتى رأى وطنه يتحرر ترابه تمامًا ، وهو الذى وهب حياته مرة بعد أخرى من أجل تحرير هذا التراب الوطنى ، وقد كتبت ابنته الثالثة «فضيلة» مقدمة قصيرة لمذكراته مشيرة إلى هذا المعنى ، ومشيرة إلى أن أباها قد أوصاها بنشر هذا الكتاب ، وأنها عملت من أجل الوفاء بهذه الوصية ، وإن لم تستطع نشر المذكرات إلا بعد أكثر من عشرين عامًا على وفاته .

وقد كتب سيد محمد باشا الجزء الأكبر من هذه المذكرات ، كما هو ثابت فى تقديمه لها ، قبل وفاته باثنى عشر عامًا ، وقد حدد تاريخ كتابته للمقدمة فى أول سطر منها ، وفى ذلك التاريخ ١٩٧٠ كان كثيرون ممن ورد ذكرهم فى المذكرات لايزالون على قيد الحياة ، ومن الواضح أن سيد محمد باشا قد عاد وألحق بمذكراته جزءاً أو أجزاء عبّر فيها عن بعض الأحداث التى وقعت بعد كتابته للمذكرات (فى ١٩٧٠) ، وهكذا تضمنت المذكرات بعض التعبير عن مشاعره تجاه انتصار أكتوبر ، وتجاه حكمة السادات التى مكنته من هذا الانتصار .

كان سيد باشا من أوائل المصريين الذين حصلوا على شهاداتهم العليا من إيطاليا ، وكان نظام التعليم الإيطالى فى ذلك الوقت يسمى الدرجة الجامعية الأولى بالدكتوراه ، ويجعل من ضمن مسوغاتها بحثًا شبيهًا برسالة الدكتوراه ، وهكذا يتصور بعض الناس ، ومنهم سيد باشا نفسه ، أنه أتم درجة الدكتوراه مباشرة دون أن يمر بمرحلة البكالوريوس ! !

(٣)

وينبهنا سيد محمد باشا إلى وعيه التام لما قد تجلبه المذكرات عليه من غضب ، وهو يعتذر سلفًا إذا جاء رأيه مخالفًا لرأى آخر أو عقيدة ، ولا يقطع بالصواب فيما يرويه وإنما يعترف باحتمال الخطأ . . . و هكذا يعبر سيد باشا بحب شديد عن كثير من هذه المعانى فيقول فى «تقديم» وضعه قبل المقدمة :

«إن ما أكتبه هنا أكتبه للحقيقة والتاريخ ، ولا أقصد مما أكتبه ولا أبغى من ورائه شيئًا ، وأشهد الله أنى أكتب هذا متوخيًا الصدق بكل معانيه ، وملتزمًا الأمانة

والصراحة الكاملتين، وقد يغضب بعض الناس مما كتبت ويسر آخرون، فمعذرة لمن غضب لاسيما إذا كان غضبه يرجع إلى مخالفة فى الرأى أو العقيدة، فقد أكون أنا مخطئًا فى بعض تقديراتى، وحسبى أنى حسن النية فى تقديرى واعتقادى».

«وقد يتطلب الأمر فى بعض الأحيان إبراز بعض المستندات أو الإشارة إلى مكان وجودها للتدليل على صدق ما أقول، وقد كانت لدى كل المستندات التى تؤيد كل كلمة كتبتها، ولكن لتعدد مرات تفتيش مسكنى وأخذ ما كان يوجد عندى من أوراق ومستندات واحتفاظ السلطات بها، وتمسكها بعدم رد أى شىء منها حتى بعد انتهاء التحقيق، هذا جعلنى أفقد ما كان لدى من مستندات، ولكنى كما ذكرت آنفًا أكتب للتاريخ معتمدًا على ذاكرتى، ومتوخيًا الصدق والأمانة والصراحة، والله على ما أقول شهيد».

«وأعتذر مقدمًا عما قد يحدث من خطأ فى التواريخ إذا لم تسعفنى ذاكرتى على أن أذكرها صحيحة، ولكنى مطمئن كل الاطمئنان لصحة الوقائع».

(٤)

ويتحدث سيد باشا عن قيمة امتداد العمر فى حماية صاحبه من الخوف من قول الحقيقة، كما يتحدث عن الدافع النبيل الذى سيطر على حياته كلها، وهو الجهاد من أجل الحق والفدائية فى سبيل هذا الحق، وهى فدائية العمل الجاد والتفانى فيه حتى لو أدى هذا إلى فقدان حياته هو، وهو يظهر ألمه من التزوير والادعاءات الكاذبة التى تطرقت إلى تاريخ ثورة ١٩١٩ فيقول:

«. . . وببلوغ (هذه) السن ليس للإنسان أن يؤمل فى إطالة عمره، بل من الطبيعى أن يفكر فى نهايته طبقًا لسنّة الطبيعة، ولا يدرى إلا الله الوقت الذى ستنتهى عنده حياتى، فقد يكون ذلك بعد ساعة من الآن، وقد يكون بعد يوم، أو بعد أسبوع، أو شهر، أو سنة، أو أكثر، فعلم ذلك كما قدمت عند الله وحده، وإلى أن يتم ما فى علم الله بشأن نهاية حياتى، فإنى سأبدأ من اليوم فى كتابة تاريخ حياتى، أسرد فيه نشأتى وتعليمى وأعمالى واتجاهاتى وميولى وعقائدى وكل ما مرّ بى من أحداث ووقائع

وأخبار ومعلومات، ومن شدة ورخاء، وتوفيق وإخفاق، ورضاء وغضب، ونحو ذلك مما يمر ويرى فى حياة كل إنسان، وأترك كل هذا للتاريخ وأولادى لعلهم يجدون فيه من حوادث وعبر قد تفيدهم فى حياتهم، والله خير مرشد ومعين».

«والواقع أنه لم يكن لدى أية نية لكتابة تاريخ حياتى أو أى شىء عنها، لأنى لست من الأبطال، ولا من العظماء حتى يكون لى تاريخ حياة، ولكن إلحاح الكثيرين من الأصدقاء والأحباب والمعارف علىّ لكتابة مذكرات عما شاهدته أو اشتركت فيه من حوادث ثورة ١٩١٩ وما بعدها خدمة للتاريخ وللحقيقة، ولاسيما بعد أن تبين أنه أدخل على تاريخ مصر فى ثورة سنة ١٩١٩ كثير من التزوير والادعاءات الكاذبة، كل ذلك قد شجعنى على الكتابة، وكان الأحرى أن أقول إنها بقلم مجاهد لأن الواقع أن أعمالى وأفكارى وميولى واتجاهاتى كانت كلها جهاداً فى سبيل إنصاف المعلمين، وفى سبيل بناء المواطن المصرى الصالح، وإبراز شخصيته، والمحافظة على كرامته، والدفاع عن أى حق سلب من صاحبه أو ضُن به عليه، وإن فدائيتى لم تكن فدائية الرغبة فى القتل وإزهاق الأرواح، ولكنها فدائية العمل الجاد، والتفانى فيه للوصول إلى الهدف ولو أدى ذلك إلى التضحية بكل ما أملك من قوة ومال، وحتى بالحياة نفسها، ولما كان عملى الفدائى فى ثورة سنة ١٩١٩ ينبئ عن هذه المعانى كلها، فقد آثرت أن يكون العنوان بقلم فدائى من فدائى سنة ١٩١٩، والله الموفق للصواب».

(٥)

يجاهر سيد باشا برأيه فى أن الفدائية وحدها هى سبب نجاح ثورة ١٩١٩، ويقدم أسانيده القوية على ما يقول:

«لا أريد بالحديث عن فدائية ثورة سنة ١٩١٩ وذكر ما أذكره عن تأسيسها وأعمالها فى قصة حياتى مع وطنى، أن أظهر لنفسى أو لأحد غيرى من زملائى فضلاً نمتن به على وطننا، أو أنسب لنفسى أو لأحد من زملائى بطولات نباهى بها أجيال المصريين، ولكنى أتحدث عن فدائية سنة ١٩١٩ لأمد تاريخ مصر بحكايات ومغامرات جرت فى مصرنا وهى تجاهد وتناضل من أجل حريتها وتمسكها بمبدأ (مصر للمصريين)، ولا أقصد بذلك شخصى فحسب، بل أقصد به أيضًا هؤلاء الزملاء الذين جاوروا ربهم

قبل أن يتيح لهم أن يحكوا قصصهم، وهى قصص لأفراد جماعة تكونت تكوينًا منظمًا غاية فى البساطة، تكونت فى هدوء وبدون دعاية أو إعلام، وقام كل فرد من أفرادها بما فرض عليه لا لغاية إلا لصالح وطنه، ولهذه البساطة وهذا الإخلاص كانت نتائج أعمالها مثمرة وقوية غاية فى القوة، وفى هذه البساطة وهذا الإخلاص كان السر الذى حيّر رجال الأمن الإنجليز والمصريين «المتأنجليزيين» وعماهم عن الوصول إلى أحد من أفراد هذه الجماعة زهاء خمس سنوات، حتى كان الغدر وكانت الكارثة».

«ويجب التنويه بأن التكوين الفدائى فى سنة ١٩١٩ لم يكن امتدادًا للتكوينات الفدائية التى سبق تكوينها فى مصر سنتى ١٩٠٩ و١٩١٩، وإنما التكوين الفدائى لثورة ١٩١٩ كون نفسه بنفسه، من: يوسف السيد العبد، وأحمد عبد الحى كيرة، وسيد محمد باشا، ومَنْ ضموهم إليهم وهم: محمد عثمان الطوبجى، وأحمد جاد الله، وإبراهيم موسى، ومحمد فهمى على، وعلى محمد، وراغب حسن، ثم مَنْ كانوا ينضمون إليهم فى كل عملية».

«وليس صحيحًا على الإطلاق ما كتبه الأستاذ مصطفى أمين عندما ورطنى بلباقته الصحفية واستكتبنى ما يفيد بأن والده المرحوم الأستاذ أمين يوسف هو الذى أدخلنى الجهاز السرى، فلم أكن، وأنا أحد مؤسسى هذه الجماعة، بحاجة إلى مَنْ يدخلنى فى جهاز سرى، فضلاً عن أنه لم يكن للأستاذ أمين يوسف أية صلة بالجهاز السرى الفدائى، وربما قصد الأستاذ مصطفى أمين الجهاز السرى الذى كان يتولاه عبد الرحمن بك فهمى للمنشورات والمخابرات، وعبد الرحمن بك فهمى لم يكن له أية صلة أو معرفة بجماعة فدائيى ثورة ١٩١٩».

(٦)

ويصل سيد باشا إلى الشكوى من أن تصور بعض الشخصيات التاريخية دورا لها فى الحركة الوطنية بينما لم يقدر لها فى الواقع أن تلعب هذا الدور:

«. . . كما أنه يجب التنويه أيضًا بأن فدائى ١٩١٩ لم يتصلوا فى مجال التعارف، وليس فى مجال العمل بفدائيى الفترات السابقة، إلا بعد أن تولى الوفد الحكم فى سنة

١٩٢٤ ، ومن المؤسف أن تكون المرة الوحيدة التى اشترك فيها بعض أفراد من فدائيى ١٩١٩ مكرهين مع بعض أفراد من فدائيى الفترات السابقة فى عمل كان اشتراكًا مبنيًا على غش وخداع لخدمة مصالح ومآرب شخصية ، فكانت نتيجة ذلك العمل وبالاً على مصر وعلى فدائيى سنة ١٩١٩ » .

« وإنى أقولها عالية وبعقيدة راسخة : إن العمل الفدائى فى ثورة ١٩١٩ الذى كانوا يسمونه بالاغتيالات السياسية ، هو الذى أجبر الإنجليز لإعلان رفع حمايتهم عن مصر ، ومن ثم استقلال مصر ، وإن كان استقلالاً مشوبًا ببعض التحفظات التى تحفظت بها إنجلترا ، تلك التحفظات التى تضاءلت بالتدريج شيئًا فشيئًا إلى أن أصبحت لا شىء ، وانجلت القوات الإنجليزية عن أرض مصر فى الوقت الذى كانت حددته معاهدة سنة ١٩٣٦ أو قبله ببضعة أشهر » .

. . . . . .

« إنه العمل الخفى . . إنه النار التى تحت الرماد . . إنه فقد عشرات ، بل مئات الجنود وصغار الضباط الإنجليز الذين يخرجون من معسكراتهم للنزهة والسهر ولا يعودون إلى معسكراتهم ، ثم يعثر على جثثهم فى أحضان جبل المقطم قريبًا من حى الدراسة ، أو فى المنخفض المجاور الذى كان يسمى بمستشفى الحوض المرصود بجهة بركة الفيل بحى السيدة زينب . إنه قتل كبار الضباط والشخصيات الإنجليزية الذين يصرعون فى وضح النهار بشوارع القاهرة وضواحيها ، ولا يُعرف مَنْ هم القاتلون . إنه التنظيم المحكم ، والتعاون المثمر بين طلبة مصر وعمالها . إن كل هذا هو الذى أقلق راحة السلطات الإنجليزية والجالية الإنجليزية فى مصر ، واضطرت إنجلترا لأن تعلن من جانبها رفع حمايتها عن مصر حتى تخف وطأة النار المتقدة تحت الرماد . إنها نار محصورة فى رقعة ضعيفة ولكنها نار قوية فى غاية القوة ، تستمد قوتها من إيمان مَنْ يوقدونها بقداسة عملهم لخلاص وطنهم من المستعمر الغاصب » .

(٧)

ويقدم سيد باشا وصفا دقيقا لفلسفة الفدائيين فى عملهم السرى ، وهو وصف ينطق بالوعى الذى كان صاحب المذكرات يتميز به ، سواء أكان هذا الوعى سابقا على

الأعمال الفدائية، أم كان لاحقا لها، لكننا نحس من عبارات الرجل وألفاظه أن هذه كانت فلسفة حاكمة لمجموعتهم:

«وقد تعمد الفدائيون أن تكون رقعة نارهم ضيقة حتى لا تتعرض لرؤية أعين كثيرة، ومن كثرة الأعين التى تراها يكثر احتمال إصابتها بإحدى هذه الأعين، ولذا تكونت جماعة الفدائيين من أربع حلقات، حلقة رئيسة تتفرع منها حلقتان، ومن إحدى الحلقتين الفرعيتين يتفرع حلقة فرعية أخرى، وبهذا التكوين المتواضع ظلت مجموعة الفدائيين تمارس عملها من أوائل شهر مايو سنة ١٩١٩ حتى يوم ١٩ نوفمبر سنة ١٩٢٤ حيث كانت الكارثة التى نسفتها وهى حادثة مقتل السردار سير لى ستاك».

ولست أدرى سببًا عميقًا لحرص سيد باشا على نفى علاقة مجموعته بالجهاز السرى لثورة ١٩١٩ بقيادة عبد الرحمن فهمى، لكننى ألاحظ حرصه على أن يكرر هذا النفى فى أكثر من موضع، وإن لم ينف وجود علاقات سريعة أو سطحية، لكن هذه العلاقات كانت بلاشك سندا لأى قطاع بوليسى فى إثبات انتماء سيد باشا أو غيره للجهاز السرى:

«ولم تتشرف جماعة فدائيى سنة ١٩١٩ بأن تكون ضمن ما سُمى بالجهاز السرى الذى أسندت رياسته إلى المرحوم عبد الرحمن بك فهمى، ولم يكن عبد الرحمن بك فهمى يعرف عنى أكثر من أننى المشرف على طبع المنشورات فحسب، ولم تخرج مهمة عبد الرحمن بك فهمى عن صرف المبالغ اللازمة لطبع المنشورات وتنظيم المظاهرات ثم جمع المعلومات عمن يعملون ضد الثورة، فكان يعتبر رئيس قلم مخابرات الوفد المصرى ويشغل وظيفة سكرتير لجنة الوفد المركزية».

. . . . . .

(٨)

يحرص سيد باشا على أن ينفى خضوع جماعته لقيادة وفدية من التى صورت مسئولة عن النشاط السرى فى ثورة ١٩١٩، وإن لم ينف أيضًا وجود بعض العلاقات السريعة:

«كما أن جماعة فدائى سنة ١٩١٩ لم تتشرف بأن يكون لها مجلس أعلى يوجهها ويصدر لها القرارات، بل إنها كانت تعمل بوحى من شعورها، وبرؤيتها لمجرى الحوادث والظروف المحيطة بالحركة الوطنية، ولم يتصل أحد من جماعة الفدائيين بالمرحومين محمود فهمى النقراشى، أو أحمد ماهر، أو عبد اللطيف الصوفانى، أو لجأ إلى أحد منهم إلا عندما كانت الجماعة تحتاج فى بعض الأحيان إلى نقود لشراء أسلحة أو ذخيرة، وكان هذا اللجوء قليلاً جداً، والمبالغ التى كنا نحتاج إليها كانت لا تزيد على عشرين أو ثلاثين جنيهًا فى كل مرة، وقد لا يزيد مجموع ما أخذته الجماعة (على) مائة جنيه، حيث كنا ندفع ثمن كثير من احتياجاتنا من جيوبنا الخاصة، كما أنه فى المدة التى قضيتها فى إيطاليا كنت أدفع ثمن المسدسات والذخيرة التى أرسلها ليوسف العبد من مالى الخاص».

(٩)

وبعد كل هذا النفى المستغرق فإنه يحرص على الإثبات المستوعب مقرراً مسئوليته التامة عن كل القنابل التى ألقيت منذ مايو ١٩١٩ وحتى ١٩٢٣، وهو يدلل على صدق منطقه بتوقف حركة إلقاء القنابل بعد سفر أحمد عبد الحى كيرة:

«وإنى أقر للحقيقة والتاريخ، وإنصافًا لنفسى، أن القنابل التى صنعت وألقيت على الوزراء المصريين والمنشآت والمجمعات العسكرية الإنجليزية فى الفترة من مايو ١٩١٩ لغاية سنة ١٩٢٣ كانت كلها من تصميمى وصنع جماعتنا، وألقاها أفراد من جماعتنا، ومن المتصلين بنا، ومات أحدهم (أحمد توفيق) لأنه لم يحسن حمل القنبلة وهو ينقلها، وحكم على آخر (إبراهيم مسعود) بالإعدام وأعدم لأن توفيق نسيم الذى ألقيت عليه القنبلة لم يطلب فى شهادته الرأفة له للدوافع التى دفعته إلى إلقاء القنبلة».

«والذى قام بإدارة هذه العمليات، إلقاء القنابل على المصريين، وتوجيهها كلها هو الفدائى أحمد عبد الحى كيرة، مستعينا بالطلبة والشبان المصريين، والدليل القاطع على صدق ما أقول هو أن حركة إلقاء القنابل على الوزراء المصريين المتعاونين مع الإنجليز قد توقفت بعدما اختفى أحمد عبد الحى عضو الجماعة الذى كان مكلفًا بمتابعة نشاط

هذه الحركة، وقد اختفى أحمد عبد الحى لسفره إلى إيطاليا عندما تحقق من أنه سيقبض عليه لاتهامه بالاشتراك فى محاولة لإلقاء قنبلة على عبد الخالق ثروت باشا فى يناير سنة ١٩٢٢».

كذلك يقرر سيد باشا أن ثلاثتهم هم الذين قادوا كل هذه العمليات الفدائية، ومع ما فى هذا التقرير من نفى لدور جماعة التضامن الأخوى ودور الأخوين عنايت وغيرهما، وإننا لا نستطيع أن نثبت تجنى سيد باشا فى حكمه على الأدوار بمثل هذا الحكم إذا كان كل شىء قد خرج من تحت يديه:

«وما يجب أن أقرره أيضًا للحقيقة والتاريخ هو أن الذين أطلقوا الرصاص على كبار الضباط والشخصيات الإنجليزية كانوا كلهم من العمال الفدائيين المتصلين بالفدائى سيد محمد باشا وزميله من بعده يوسف السيد العبد. كان الثلاثة أحمد، ويوسف، وسيد (باشا) هم نواة الحركة الفدائية فى ثورة سنة ١٩١٩، ومديروها، ومحور نشاطها، وقد أسسوا العمل الفدائى من تلقاء أنفسهم، وبدافع من شعورهم بأن الخطب والمنشورات وغيرها من الدعايات السياسية لا تحقق لشعب مصر مطلبه، وهو رفع الحماية الإنجليزية عن مصر، وإنما الإرهاب بالقنابل والقتل بالرصاص، هما أفعل الوسائل لحمل الإنجليز على الجلاء عن مصر».

. . . . . .

ربما كان من المفيد هنا أن نكرر نقل عبارات سيد باشا التى يقول فيها:

«إنه العمل الخفى.. إنه النار التى تحت الرماد.. إنه فقد عشرات، بل مئات الجنود وصغار الضباط الإنجليز الذين يخرجون من معسكراتهم للنزهة والسهر ولا يعودون إلى معسكراتهم، ثم يعثر على جثثهم فى أحضان جبل المقطم قريبًا من حى الدراسة.

(١٠)

ويكون سيد باشا رأيه ذا القيمة فى أهمية العمل الفدائى فى ثورة ١٩١٩، وأنه سبب نجاح الثورة مقدمًا فهمًا تاريخيًا عميقًا يعز وجوده حتى بين كثير من المؤرخين الذين تضغط الأيديولوجية على أحكامهم:

«وأقولها صريحة وصادقة، إننا قد نجحنا فى مهمتنا، وإن مَنْ يقولون إن ثورة سنة ١٩١٩ قد فشلت، هم متجنون على الثورة، فثورة ليس وراءها سند من قوة عسكرية، وتقاوم جاه إمبراطورية لها فى مصر جيش مسلح قوامه ٨٠ ألف جندى، وتصل إلى ما وصلت إليه الثورة الشعبية التى اندلعت فى ٩ مارس ١٩١٩ ووصلت فى ١٩٣٦ إلى انحسار الجيش الإنجليزى المحتل فى منطقة قنال السويس وتوطئة لجلائه نهائيًا عن مصر فى ١٩٥٦، فثورة، هذا هو عملها ونتائجه، لا يمكن أن يقال عنها إنها ثورة فاشلة. إننا لا نقول هذا زهوًا أو غرورًا، أو انتظارًا لجزاء على ما قمنا به من أعمال، أو خضناه من مغامرات، أو قدمناه من تضحيات، أو تحملناه من أذى، أو تعرضنا له من محاربات فى أعمالنا وأرزاقنا، وإنما نقوله للحقيقة والتاريخ، وللرد على المغالطين المتجنين على الحقائق، وعلى التاريخ».

«نقوله تمسكًا بمبدأ الفدائية، وهو الصدق فى القول، والإخلاص فى العمل، وإنكار الذات، والبعد عن مواقع تسلط الأضواء».

(١١)

يتحدث سيد محمد باشا حديثًا صريحًا عن بدايات اهتماماته بالسياسة فيشير إلى الدور البارز الذى لعبه نادى المدارس العليا فى تنمية وعى الشباب المصرى بقضايا الوطن أيًا ما كانت دوافعهم الأمنية إلى الاشتباك مع هذه القضايا والتفاعل معها، وعلى سبيل المثال فإنه فى الوقت الذى بدأ وعى سيد باشا بأحاديث السياسة فى ذلك النادى كانت القضية تتمثل فى الصراع بين الجيشين التركى والبريطانى عند حدود سيناء.

وهو يتحدث عن إحساسه المتنامى بمساوئ الإنجليز ضاربًا مثلاً بأسلوبهم فى اختيار المدرسين فى مدرسة المعلمين العليا وحرصهم على «نجلزة» التعليم:

«... اشتركت فى نادى المدارس العليا وأخذت أتردد عليه فى الفترات التى يسمح لى وقتى، وكانت أحاديث الشبان تدور حول أمل المصريين فى أن يتغلب الجيش التركى عند حدود سيناء على الجيوش الإنجليزية التى كانت تضم إنجلترا وهنود

وأستراليين، وعند ذلك تقوم الثورة فى مصر ليقضى على الجيش الإنجليزى المحتل، وتطرد الإنجليز من مصر، وكنت أشعر بشىء من الراحة واطمئنان النفس عندما أتخيل خروج آخر جندى إنجليزى من مصر».

«. . . وبهذه المناسبة أقول إنى لم أكن أدرك تمامًا ضخامة مساوئ أعمال الإنجليز فى مصر، أو بالأحرى مساوئ الاستعمار قبل أن أشترك فى نادى المدارس العليا، وكل ما كنت أشعر به نحو الإنجليز هو بغضى لوجودهم فى مصر بسبب ما لمسته بنفسى: وهو أخذ العمال المصريين بالقوة للخدمة فى الجيش الإنجليزى بوصفهم متطوعين، وكذلك الاستيلاء على المحاصيل الزراعية وغذاء المواشى ثم المواشى نفسها لاستغلالها لصالح الجيوش الإنجليزية التى تحارب الجيش التركى على حدود مصر الشرقية، وذلك لأنه لم يسبق لى أن سمعت أحدًا من المدرسة أو فى القرية يتحدث عن مساوئ الاستعمار».

«ولما التحقت بمدرسة المعلمين ووجدت أن مواد الدراسة تدرس لنا كلها باللغة الإنجليزية، ويقوم بتدريسها مدرسون إنجليز، حتى مادة الرياضيات التى كانت تدرس لنا باللغة العربية كان يدرسها لنا مدرسون إنجليز، فقلت فى نفسى: «يا للهول ألهذا الحد يضيّق الإنجليز على المصريين ويقفون فى طريقهم، ألا يوجد من المصريين مَنْ يمكنه أن يدرس لنا الرياضيات؟ واتسعت أمام عينىّ الرؤيا لأضرار الاستعمار، ومظالم المستعمر».

(١٢)

ويشير سيد باشا إلى بداية علاقته بأقطاب الحزب الوطنى (القديم) دون أن يشير إلى اسم الحزب الوطنى نفسه، وكأنه يريد [أو يتعمد] أن يصور علاقته بهؤلاء فى إطار زعامتهم لمنتدياتهم لا فى إطار انتمائهم للحزب الوطنى:

«. . . عرفت أن هناك منتديات سياسية أخرى كمنزل المرحوم عبد اللطيف الصوفانى بالحلمية الجديدة، وعيادة الدكتور إسماعيل صدقى بميدان الأوبرا، ودور بعض الصحف اليومية والمجلات الأسبوعية كجريدتى «اللواء» و«المؤيد»، وأيضًا جريدة «الجريدة»، ومجلة «السفور» ونحوها، فأخذت أتردد على هذه المنتديات فى

أوقات فراغى، وأشترك فيما يجرى فيها من أحاديث ومناقشات فزاد إدراكى وفهمى لحقيقة الاستعمار ومراميه، وارتفعت درجة حماسى لضرورة التخلص من الاستعمار، والرغبة فى أن تحصل مصرنا العزيزة على استقلالها وحريتها، وعاهدت نفسى على أن أعمل فى هذا الاتجاه بكل ما أمتلك مهما كلفنى ذلك من تضحيات من أى نوع كانت، وكان من نتيجة ترددى على المنتديات السياسة أن تعرفت بالمرحوم عبد اللطيف الصوفانى أحد أعضاء الحزب الوطنى فى ذلك الوقت، وأعجبتنى ميوله وروحه الوطنية الصادقة المخلصة، فتصادقنا وداومت على التردد عليه فى منزله، كما داومت على حضور الندوات والجلسات التى كانت تعقد عنده».

(١٣)

يتحدث سيد محمد باشا حديثًا دقيقًا عن طبيعة المعارضة التى لقيها الوفد المصرى عند بداية تكوينه، وكيف أنها كانت محدودة جدًا وهو يحقق مسألة مهمة، وهى أن المعارضة التى نسبت إلى الحزب الوطنى لم تكن صادرة عن أعضاء الحزب البارزين، وإنما عن بعض أعضاء لجنته التنفيذية فقط، بينما أن المكباتى والنحاس وحافظ عفيفى وعلى ماهر كانوا مؤيدين (وهو يستثنى أستاذه عبد اللطيف الصوفانى الذى لم يبد رأيه صراحة على حد تعبير سيد باشا).

ويشير سيد باشا إلى دوره هو نفسه ضمن مجموعة الشباب فى إيقاف حركة الحزب الذى كان يتزعمه الشريعى، وإن كان يعتقد أن اسم الحزب «حزب الأمة»، بينما هو الحزب «المستقل الحر» فى رواية إبراهيم عبد الهادى:

«اتسع نشاط الوفد السياسى حتى عم جميع أنحاء القطر، وشذ عن إجماع الشعب هيئتان هما اللجنة التنفيذية للحزب الوطنى برئاسة أحمد بك لطفى، ثم جماعة كانوا يطلقون على أنفسهم اسم «حزب الأمة» بزعامة محمد الشريعى باشا، وأصدرت اللجنة التنفيذية للحزب الوطنى بيانًا هاجمت فيه سعد باشا وتوكيل الأمة للوفد، وقالت اللجنة فى بيانها: إن التوكيل لا يفوض للوفد مفاوضة الإنجليز إلا بعد جلائهم عن مصر وملحقاتها، والواقع أن هذا الرأى كان شيئًا غير عملى، ولم يوافق عليه

أغلب رجال الحزب الوطنى وشبابه، وكنت من شباب الحزب الوطنى (الذين) لم يوافقوا على هذا الرأى».

«ولم يوافق عليه من رجال الحزب الوطنى الأعضاء البارزون كعبد اللطيف المكباتى بك، ومصطفى النحاس بك، وحافظ عفيفى بك، وعلى ماهر وغيرهم، بل لم يوافق عليه عبد اللطيف الصوفانى بك، ولو أنه أحد أعضاء اللجنة التنفيذية للحزب الوطنى، ولكنه لم يعلن رأيه إعلانًا صريحًا».

«ومن أجل ذلك فإنى أقول إن الذين (شذوا) عن إجماع الشعب هم أعضاء اللجنة التنفيذية للحزب الوطنى، وليس الحزب نفسه، وقد ذهبت أنا وبعض زملائى إلى عيادة الدكتور إسماعيل صدقى لمناقشة أعضاء اللجنة التنفيذية فى موقفهم هذا، ولم نقتنع بما أبدوه من مبررات لموقفهم، بل لاحظنا أنها مسألة تنافس على زعامة الحركة الوطنية».

«أما جماعة حزب الأمة [لعله يقصد: المستقل الحر] فكنا نعلم أنهم مجرد صنائع لتأييد وجهة النظر الإنجليزية، فذهبنا إليهم وهددناهم بالاعتداء عليهم بكل الوسائل إذا هم لم يتواروا ولا يعترضوا أى طريق للحركة الوطنية، فلم يظهر لهم بعد ذلك أى نشاط».

(١٤)

يقدم سيد محمد باشا رواية متميزة ومختصرة لأحداث الثورة فى ١٩١٩ ودور الطلبة فيها، ومع أن هذه الرواية قد تختلف فى بعض جزئياتها مع روايات كثيرة أخرى نقلناها عن إبراهيم عبد الهادى وعريان يوسف سعد وغيرهما، فإنها تمثل اختلافات من زوايا الرؤية التى قدر لأصحابها أن يروا الأحداث من خلالها، ومن الطريف أن سيد باشا ينسب تأليف نشيد «إحنا التلامذة» الشهير إلى الدكتور محمود الحفنى:

«... وفى صباح يوم الأحد ٩ مارس ١٩١٩ أذيع خبر القبض على سعد باشا وزملائه ونفيهم إلى جزيرة مالطة، وما كاد النبأ يذاع حتى أضرب طلبة المدارس العليا عن تلقى الدروس، وخرجوا مبتدئين من مدرسة الحقوق فى مظاهرة تطوف بالشوارع وتهتف بحياة مصر وحياة الوفد المصرى وحياة سعد باشا وسقوط الإنجليز والحماية

الإنجليزية، وكنت فى مقدمة طلبة مدرسة المعلمين العليا، وتصدى رجال البوليس بقيادة الضابط الإنجليزى آرثر بصفته وكيلاً لحكمدار بوليس القاهرة للمتظاهرين فى محاولة لإيقاف المظاهرات، ولكن لم يفلح رجال البوليس فى إيقاف المظاهرات بالرغم من أنهم قبضوا على أكثر من ٣٠٠ طالب وساقوهم إلى سجن المحافظة بباب الخلق، وفى أثناء الليل نقلوا إلى معتقلات بالقلعة، وكان الطلبة يرددون النشيد الذى ألفه الطالب محمود الحفنى والذى مطلعه:

يا عـــم حمـــــزة إحنـــا التـلامـــذة ما يهمناش فى القلعة نبات ولا المحافظة

واخدين على العيش الحاف والنوم من غير لحاف متبعيــن نـــاس وطنيين إحـنا التلامـذة

«وفى اليوم التالى ١٠ مارس، استؤنفت المظاهرات واشترك فيها طلبة المدارس العليا والأزهر وطلبة المدارس الثانوية، وانضم إلى المظاهرات بعض الأهالى، وسار الجميع بقوة وحماس يطوفون شوارع القاهرة هاتفين بحياة مصر وحريتها وحياة الوفد المصرى ممثل الأمة، وحياة سعد باشا رئيس الوفد المصرى ممثل الأمة، ومرت المظاهرات بدور السفارات الأجنبية معلنة غضبها على تصرف الإنجليز، ومحتجة على اعتقال سعد باشا وصحبه، وتصدى البوليس للمتظاهرين بقوات كبيرة، كما نزلت دوريات من الجيش الإنجليزى لحراسة دور الحكومة، واشتدت مقاومة المتظاهرين للبوليس فقذفوا رجاله بالحجارة، وضربوهم بفروع الأشجار التى كان ينتزعها المتظاهرون من أشجار الشوارع».

. . . .

وينفرد سيد باشا بالإشارة إلى محاولات المتظاهرين شق بطن خيول السلطة بأمواس الحلاقة، كما يواجه سيد باشا الواقع بصراحة ويعترف بأن أعمال شغب قد اقتحمت المظاهرات على يد بعض المندسين الذين حطموا عربات الترام:

«وفى بعض الأحيان كان المتظاهرون يقتحمون محال الحلاقين ويأتون بأمواس الحلاقة ليشقوا بها بطون الخيول التى يركبها فرسان البوليس وهم يقتحمون جموع المتظاهرين ويطلقون الرصاص عليهم، وأصابوا بعضهم، واستشهد أحد المتظاهرين فى ذلك اليوم، إلا أنه مع الأسف الشديد قد صدر من بعض الأهالى الذين انضموا إلى

مظاهرات الطلبة تصرفات لم يوافق عليها الطلبة، حيث انقض بعض هؤلاء المندسين فى المظاهرات على عربات الترام فحطموا بعضها، وتعطلت بعض خطوط الترام، كما حطم هؤلاء المندسون المأجورون واجهات بعض المحال التى يملكها الأجانب وكسروا زجاجها، وتيقنا أن حركة المندسين هذه كانت بإيعاز من البوليس تنفيذاً لتعليمات السلطات الإنجليزية».

(١٥)

ويشير سيد باشا إلى أن اليوم الثالث للمظاهرات شهد إضراب المحامين وتعطل المواصلات تمامًا، مما دعا الإنجليز إلى إصدار أوامرهم بمنع المظاهرات، بل بدءوا إطلاق النار بكثرة على المتظاهرين ، وهو يشير إلى أسماء زعماء المظاهرات، وإلى الاتفاق على اجتماع يومى فى بيت الأمة أو الأزهر:

«وفى اليوم الثالث اتسعت دائرة الاضطراب بإيعاز وتحريض وتنظيم الطلبة، فأضرب عمال الترام جميعًا، كما أضرب سواقو التاكسى والأتوبيسات، وتعطلت طرق المواصلات تمامًا، وأغلقت المحال التجارية احتجاجًا على تصرف السلطات الإنجليزية، وأضرب المحامون بناء على قرار من نقابتهم، فكان يومًا مشهوداً، ومن ثم أصدرت السلطات الإنجليزية منشوراً بمنع المظاهرات، وأنذرت كل مَنْ يخالف ذلك بالعقاب الشديد ومحاكمته أمام محكمة عسكرية، ونزلت دوريات من الجنود الإنجليزية مسلحة تجوب الشوارع، مزودة بالرشاشات والعربات المصفحة، وكثر إطلاق الرصاص على المتظاهرين فاستشهد فى ذلك اليوم نحو عشرة من المواطنين، ولم يأبه المتظاهرون بالإنذارات ولا بإطلاق الرصاص».

«وفى ذلك اليوم أعلن بين زعماء الطوائف أن يكون إجماع زعماء الطوائف مساء كل يوم فى بيت الأمة، أو فى الأزهر الشريف، وذلك للتشاور فيما يجب عمله لاستمرار المظاهرات وتنظيمها ثم اتخاذ القرارات الخاصة بذلك، على أن تعلن هذه القرارات، وكيفية تنفيذها فى اجتماعات الأزهر، وكان الخطباء الدائمون فى اجتماعات الأزهر هم الشيخان مصطفى القبانى (يقصد: القاياتى، لكن خطأ مطبعيا

قـد وقع فى ذكـر اسم الرجل العظيم)، ومـحـمـود أبو العـيـون، والقس مـرقص سرجيوس، والطالبان إبراهيم عبد الهادى، ومحمد شكرى كرشة».

(١٦)

ويشير سيد باشا إلى أن تطور الثورة فى اليوم الرابع امتد بها إلى الأقاليم، وعندئذ بدأ قطع خطوط السكك الحديدية، وأسلاك التليفونات والتلغرافات، أما فى القاهرة فقد بدأت الجماهير تتحدى الجنود الإنجليز بعد أن تكاثرت أعداد عمال المصانع المضربين، وهو يشير إلى محاولات ذكية قام بها المتظاهرون لتعطيل حركة الجنود الإنجليز، وإلى قسوة الإنجليز فى إصدار الأحكام بالجلد والسجن وكلاهما معًا، فضلاً عن إطلاق الرصاص على حاملى الرايات:

«كانت المظاهرات حتى اليوم الثالث قاصرة على القاهرة، وفى اليوم الرابع امتدت إلى الأرياف، وبامتدادها إلى الأرياف بدأ قطع السكك الحديدية حتى لا يسافر الجنود الإنجليز إلى الأرياف، كما قطعت سلوك التليفونات والتلغراف فى الوجه البحرى حتى تتعطل الاتصالات الرسمية. كما شملت الإضرابات فى القاهرة عمال المصانع، صغيرها وكبيرها، حيث هجر عمال المصانع، وكانت كلها خاصة، مصانعهم وانضموا إلى المظاهرات واختاروا من بينهم زعماء لهم، وبدت جميع شوارع القاهرة فى ذلك اليوم غاصة بالمتظاهرين الذين كانوا يتحدون الجنود الإنجليز بحفر الخنادق وإقامة المتاريس فى الشوارع ليعطلوا مرورهم ومرور سياراتهم، وتضاعف عدد مَنْ استشهد لكثرة إطلاق الرصاص على المتظاهرين، وصدرت بعض أحكام عسكرية على مَنْ قبض عليهم بالسجن أو بالجلد أو بالعقوبتين معًا، باعتبار أن هؤلاء المقبوض عليهم محرضون على المظاهرات وعلى الإضراب عن العمل، حيث قبض عليهم وهم يسيرون فى المظاهرات حاملين الأعلام واللافتات».

«وقد كان الرصاص يصوب أول ما يصوب إلى حاملى الأعلام واللافتات، فإذا ما سقط حامل علم أو لافتة بادر جاره إلى حمل ما كان يحمل، فكانت الصورة الرائعة، والروح الوطنية فى أوج العلا».

«استمرت المظاهرات واتسع نطاقها يومى ١٣ و١٤ مارس فى القاهرة وغيرها من المدن والأرياف، كما اتسع نطاق قطع خطوط السكك الحديدية ووقفت تمامًا طرق النقل والمواصلات فى جميع المدن والقرى، وبين بعضها البعض، وأصبح استعمال عربات (الكارو) للتنقلات فى شوارع القاهرة شيئًا عاديًا، كما استخدمت المراكب الشراعية للتنقلات بين البلاد وبعضها».

(١٧)

ينفرد سيد محمد باشا بالحديث عن الدور المبكر لمحمد عثمان الطوبجى فى تحريك جموع العمال، وفى الاتصال بعمال العنابر والترسانة من أجل ضمهم لتيار الحركة الوطنية، وكيف ظهر مجهوده هذا فى ١٥مارس، أى قبل مضى أسبوع على بدء الثورة:

«وأثناء وجودنا مساء ذلك اليوم فى بيت الأمة لاحظت من بين زعماء العمال ومن أصحاب المحال التجارية أيضًا الرجل الذى أصنع عنده أحذيتى وهو المرحوم محمد عثمان الطوبجى، فناديته وخرجنا معًا من بيت الأمة متجهين إلى محله بشارع حسن الأكبر، وأخذنا نتحدث عن الحركة الوطنية واتساعها وانضمام كثير من الهيئات والطوائف إليها، وأشدت بموقف العمال الذين هم فى الواقع فى حاجة إلى أجورهم اليومية التى يضحون بها، وقلت يا حبذا لو أن عمال الحكومة وهم عمال العنابر والترسانة حذوا حذو عمال المصانع الخاصة، فقال محمد الطوبجى: إن شاء الله سنضمهم للحركة لأنى أعرف بعض رؤسائهم».

«وفى يوم ١٥ مارس ظهر مجهود محمد عثمان الطوبجى لدى عمال العنابر والترسانة فأضربوا وانضموا إلى المظاهرات، وانضمت إلى الدوريات الإنجليزية وحدات من الجيش المصرى، حيث كانت مقاومة المتظاهرين فى غاية العنف والجرأة، وكثر عدد القتلى والمصابين، ولم يؤثر ذلك فى حماس المتظاهرين».

(١٨)

يتحدث سيد محمد باشا فى مذكراته عن مظاهرة السيدات المصريات فى مسارها حديثًا دقيقًا يدل على ما تميزت به هذه المظاهرات من روح التنظيم، والحرص على النجاح، والواقع أن هذه المظاهرة كانت تعبيراً ذكيًا عن روح شعب قادر على الثورة، وعلى تنظيم أموره فى الوقت نفسه بعيداً عن الصورة التى كان الإنجليز يصورونه فيها:

«. . . وفى ذلك اليوم (١٥ مارس) أعلنت بعض المنظمات النسائية عن عزم السيدات بالقيام بمظاهرة احتجاجًا على قتل الشهداء، ووحشية الجنود الإنجليز».

«وفى المساء عندما اجتمع الطلبة فى بيت الأمة، قررنا اختيار عدد من الطلبة ينضمون إلينا ونشكل مجموعة خاصة للقيام بالمحافظة على سير مظاهرة السيدات وحمايتها من (أى) تدخل غريب عليها».

«سارت مظاهرات السيدات مبتدئة من ميدان الأوبرا فى وقار واحتشام، يحيط بها عدد من الطلبة، وكنت من بينهم، فطافت بشوارع القاهرة الرئيسية فحياها كل مَنْ مرت به من المواطنين، ومرت أثناء سيرها بدور السفارات الأجنبية (يقصد دور المفوضيات أو القنصليات، فقد كانت مصر فى ذلك الوقت تحت الحماية)، وقدمن لكل سفارة (يقصد مفوضية. . .) صورة من احتجاج كتبنه باللغة الفرنسية عبّرن فيه عن سخطهن على تصرفات السلطات الإنجليزية، وعلى وحشية الجنود الإنجليز وإمعانهم فى إطلاق الرصاص على المتظاهرين بدون رؤية، مما تسبب عنه قتل كثير من المواطنين العزل الأبرياء».

«وعندما اقتربت مظاهرة السيدات من بيت الأمة حاصرها الجنود الإنجليز ولم يسمحوا لها بالسير، وصوبوا أسلحتهم إلى كل مَنْ يحاول الحركة، ووقفن ونحن الطلبة نحيط بهن على هذا الحال نحو ساعة تحت حرارة الشمس، ولما نفد صبرهن تقدمت إحداهن إلى الضابط الذى صوب مسدسه إلى صدرها ففتحت (له) صدرها وقالت له: «اضرب وأرنى شجاعتك، إنا لا نهاب الموت، فرّغ رصاص مسدسك فى صدرى لتجعلوا فى مصر مس كافل ثانية»، فخجل الضابط وتنحى وأمر جنوده بالتنحى وسارت المظاهرة حتى دخلت بيت الأمة، وهناك كتبت السيدات

احتجاجًا آخر وصفن فيه هذه المعاملة الغاشمة، وقدمن صورًا منه إلى السفارات الأجنبية».

(١٩)

يقدم سيد باشا وصفًا دقيقًا لكبرى المظاهرات الوطنية، وهى مظاهرة الطوائف المختلفة التى استمرت ست ساعات كاملة، ويرينا الوصف الذى يقدمه سيد باشا مدى القدرة على التنظيم التى وصل إليها الطلاب فى خلال أسبوع واحد من بدء ثورة ١٩١٩، وهى قدرات عالية كانت أهم ما ساعد على نجاح ثورة ١٩١٩ على نحو ما نجحت، ومن الجدير بالذكر أن الوصف الذى يقدمه عريان يوسف سعد لهذا اليوم فى مذكراته لا يكاد يختلف فى تفصيلاته، وإن كان يتمتع بنفس أطول:

«وفى مساء ذلك اليوم ١٦ مارس اجتمع زعماء الطلبة وكنت منهم، وقرروا تنظيم مظاهرة مكونة من مجموعة وحدات كل وحدة منها تمثل طائفة وتشمل أكبر عدد ممكن من مواطنى الطائفة، ويتقدم كل طائفة فرد منها يحمل علمًا مكتوبًا عليه اسم الطائفة والعبارات: «لتحى مصر حركة، وليحيا الاستقلال التام، وليحيا الوفد»، ولضمان سير المظاهرة أخطرنا حكمدارية القاهرة بموعد قيامها، ومن أين ستبدأ، وكان موعد قيامها هو اليوم التالى، أى يوم ١٧ مارس ونبدأ من الأزهر، ووزعنا منشورات بهذا القرار وهذا النظام فلم تر الحكمدارية بدًا من التصريح بالمظاهرة حقنًا للدماء، وقرر رسل باشا حكمدار العاصمة، وهو إنجليزى، السير أمام المظاهرة راكبًا سيارته ليمنع الجنود من التعرض للمظاهرة».

«وبدأت المظاهرة الكبرى فى الساعة الثامنة والنصف من يوم الاثنين ١٧ مارس، وكانت مؤلفة من مواكب متلاحقة يتقدمها حكمدار العاصمة، وكل موكب منها يمثل طائفة مبتدئة بعلماء الأزهر والقساوسة ثم القضاة ثم الأطباء ثم المعلمين ثم المهندسين ثم المحامون ثم التجار ثم أرباب الأعمال ثم الصناع ثم العمال ثم طلبة الأزهر ثم طلبة المدارس العليا، كل مدرسة على حدة، ثم طلبة المدارس الثانوية كل مدرسة على حدة».

«وسارت المظاهرة من الأزهر فالتبليطية، فالغورية، فبوابة المتولى، فالمغربلين، فشارع محمد على، فالحلمية الجديدة، فميدان عابدين، فشارع البستان، فميدان الأزهار، فميدان قصر النيل (ميدان التحرير)، فقصر الدوبارة، فشارع القصر العالى (كورنيش النيل)، إلى شارع قصر العينى، فميدان قصرالنيل، فشارع سليمان باشا، فشارع البستان، فشارع مظلوم، فشارع المدابغ (شريف)، فشارع قصر النيل، فميدان الأوبرا، فشارع إبراهيم باشا (الجمهورية)، فميدان باب الحديد، حتى انتهت برجاء من رسل باشا واستغرق مسيرها نحو ست ساعات».

«وكان نظام المظاهرة موضع إعجاب كل مَنْ شاهدها من مصريين وأجانب، وأثنى الأجانب على قدرة المصريين على التنظيم والمحافظة على النظام وضبط النفس، وقد حدث ما عكر صفو النظام بعض الوقت، إذ تجرأ بعض الجنود الإنجليز أو بعض الأجانب وأطلقوا الرصاص على المتظاهرين من نوافذ بعض المنازل فسقط بعض القتلى وحدث رد فعل، فحاول بعض المتظاهرين الاعتداء على مَنْ رأوهم من الأجانب يطلقون الرصاص، ولكن سرعان ما تدخل منظمو المظاهرة وأعادوا إليها الهدوء والنظام حتى انتهت».

«وبعد انتهاء المظاهرة كتبنا احتجاجًا على ما حدث من اعتداء من الأجانب على المتظاهرين، وعهدنا إلى مَنْ ترجمه إلى اللغة الفرنسية فى بيت الأمة، ثم طبعناه ووزعناه على السفارات الأجنبية».

«ولضخامة المظاهرة وقوتها أصدرت السلطات العسكرية الإنجليزية فى اليوم التالى ١٨ مارس بلاغًا أكدت فيه مرة أخرى منع المظاهرات وإنذار كل مَنْ يتظاهر بالعقاب الشديد، ولكن الشعب لم يلق بالاً لبلاغ السلطات العسكرية الإنجليزية».

(٢٠)

وينفرد سيد باشا بالحديث عن البطولة الخارقة لإحدى المظاهرات حين تمكن المتظاهرون من الانقضاض على المدافع الكبيرة من أجل خطفها، مما ألقى الرعب فى قلوب الجنود الإنجليز:

«. . . وفى يوم ١٩ مارس بدأت مظاهرة من ميدان قصر النيل (التحرير)، واجتازت شارع كوبرى قصر النيل (التحرير)، فميدان الأزهار (الفلكى)، فشارع الساحة، وعندما وصل أولها أمام محل عمر أفندى، واجهها أربعة لوريات محملة بالجنود الإنجليز والمدافع الرشاشة، وأنزل الجنود المدافع استعدادًا لإطلاق النار على المتظاهرين، لكن المتظاهرين لم يبتعدوا بل اتجهوا نحو الجنود بسرعة خاطفة محاولين خطف المدافع، فادخل هذا المنظر الرعب فى قلوب الجنود الذين أسرعوا بمدافعهم إلى اللوريات وهربوا بها من مواجهة المتظاهرين الذين أثبتوا صدق وطنيتهم وشجاعتهم، وأنه لعل كل مصرى لا يسعه إلا أن يرفع رأسه افتخارًا بما حدث، وبما شاهد».

(٢١)

وينفرد سيد باشا كذلك بالإشارة إلى دور الجامع الأزهر كمعقل من معاقل المقاومة، فضلاً عن دوره فى التوجيه والمشاركة، وهو يتحدث عن بطولة نادرة لأحد طلاب الأزهر فى إحدى المظاهرات، كما يروى موقفًا مشرفًا لشيخ الأزهر فى عدم الاستجابة لإغلاق الأزهر، ويشير إلى أن الأزهر ظل بمثابة نقطة تجمع رغم حصاره، وقد كان الطلاب يدخلونه فرادى:

«وفى يوم ٢١ مارس كنا نصلى الجمعة بالجامع الأزهر، وخرجنا بعد الصلاة فى مظاهرة، فوجدنا عددًا كبيرًا من الجنود الإنجليز يحاصرون الأزهر ليمنعوا المظاهرة، فقاومناهم وكانوا مسلحين بالبنادق والمدافع الرشاشة، وأخذوا يطلقون الرصاص علينا، وفجأة شاهدت طالبًا أزهريًا ينقض بسرعة البرق على جندى إنجليزى ويخطف منه مدفعه ثم أدار المدفع نحو الجنود الإنجليز وأطلق الرصاص عليهم فسقط بعضهم، ولكنهم انهالوا على الطالب بمدافعهم فمزقوه إربًا، وإنى لأحنى رأسى لأحيى روح هذا الطالب، وأحيى الروح العالية النبيلة التى كانت تسود مجتمع الشباب فى سنة ١٩١٩».

«وعلى أثر ذلك طلبت السلطات العسكرية الإنجليزية من شيخ الأزهر إغلاقه، ورد شيخ الأزهر بأن الأزهر بيت من بيوت الله لإقامة الصلاة ولا يمكن لأحد أن يغلق بيتًا

تؤدى فيه شعائر الدين، فزادت السلطات الإنجليزية عدد الجنود المحاصرين للأزهر، وزودتهم بالمدافع والمصفحات لمنع دخول مجموعات إليه أو خروجها منه، لكنا ندخله ونخرج منه فرادى».

(٢٢)

ثم يتحدث سيد باشا عن الدور الذى قدر له ولزملائه أن يقوموا به من أجل بدء إضراب الموظفين، ومع أن هذا الدور لم يكن منظمًا على نحو سابق، فإنه كان من الذكاء بحيث استبق الأحداث وجعل من الضمائر هاديا للتصرفات المرجوة من دون سعى إلى اتفاق أو ترتيب كتابى، وهنا تظهر مهارة عقلية عالية تمتع بها سيد باشا وزملاؤه، أو مَنْ قام منهم بهذا العمل على وجه التحديد.

ومن الجدير بالذكر أن هذا الترتيب الذى أفلح فى بدء إضراب الموظفين لم ينجح من المرة الأولى، وإنما اقتضى محاولات دائبة من أجل البحث عن الأسلوب الأمثل للتأثير والنجاح، ومن الطريف أن سيد باشا نفسه يعترف أن الجزء الأكبر من النجاح الذى تحقق فى إضراب الموظفين يرجع إلى خطبة ألقاها رئيس مجلس اللوردات البريطانى واستثار فيها، دون أن يدرى، روح الوطنية عند الموظفين الذين لم يكن يليق بهم بعد هذه الخطبة المشبوهة إلا أن يضربوا احتجاجا:

«وحتى يوم ٢١ مارس كان موظفو الحكومة والمصالح الأميرية هم الفئة الوحيدة التى لم يشترك أفرادها فى المظاهرات والإضرابات، برغم أن كثيرًا من الموظفين وزعمائهم كانوا يحضرون الاجتماعات المسائية فى الأزهر، وفى بيت الأمة، ويتحمسون لما يلقى فى تلك الاجتماعات من خطب وبيانات، وبرغم أننا نحن الطلبة كنا وزعنا أنفسنا على دور الوزارات والمصالح الحكومية بحيث يدخل كل ثلاثة أو أربعة من الطلبة مقر الوزارة أو المصلحة ويمرون بمكاتب الموظفين محرضين إياهم على الإضراب، لشل حركة أعمال الحكومة، ولكننا لم ننجح فى حملهم على الإضراب، وكان عدم إضراب الموظفين يرجع إلى خوفهم من الفصل الذى كانت السلطات الإنجليزية تهدد به مَنْ يضرب عن العمل من الموظفين».

«عندئذ اضطررنا إلى إذاعة منشور يوم ٢١ مارس ادعينا فيه أن اللجنة العليا للموظفين قررت أن يضرب الموظفون عن العمل يومى ٢٢ و٢٣ مارس احتجاجًا على أعمال السلطات العسكرية الإنجليزية فى مصر، ولكن قلة من الموظفين هم الذين لم يذهبوا إلى مكاتبهم يوم ٢٢، أما يوم ٢٣ فلم يتخلف منهم أحد ولم يأت المنشور بنتيجة، وأصدرت السلطات الإنجليزية منشوراً ينذر كل مَنْ يضبط حاملاً منشوراً بالعقاب الشديد، وكلفت جنود الدوريات الإنجليزية بتفتيش المواطنين الجالسين فى المقاهى، أو المارين فى الشوارع بحثًا عن المنشورات الثورية، والواقع أن الجنود كانوا يفتشون المواطنين بحثًا عن الأسلحة اعتقاداً من السلطات بأنه ربما يلجأ الطلبة إلى تهديد الموظفين وحملهم على الإضراب بإطلاق الرصاص عليهم».

(٢٣)

ويقدم سيد باشا تفسيراً معقولاً لما يسميه التحول الذى أصاب إضراب الموظفين:

«ثم كان يوم ٢٤ مارس هو مؤشر التحول فى موقف الموظفين، وحدث هذا التحول بجهد اللورد كيرزون زعيم مجلس اللوردات الإنجليز فى ذلك الوقت، وليس الطلبة، ذلك لأن اللورد كيرزون ألقى خطابًا فى مجلس اللوردات فى ذلك اليوم وصف فيه الثورة المصرية بأنها حركة سلب ونهب وليست حركة سياسية، وأن سعد باشا وأعوانه هم الذين دبروا هذه الحركة بصفتهم (أناسا) غير مسئولين، وأشاد بموقف الحكومة المصرية وموظفيها، وبموقف رجال الجيش والبوليس المصرى، وقال: إن هؤلاء وعقلاء الأمة لم يشاركوا فى الثورة، فلما رأى الموظفون أن الإنجليز يشوهون الحركة الوطنية ويصفونها بأنها حركة سلب ونهب ويقولون إن الموظفين المصريين منحازون إلى الإنجليز وراضون عن الحماية، عندئذ قاموا ليبعدوا عن أنفسهم هذه التهم وكتبوا عرائض احتجاج على خطاب كيرزون، وعلى الاعتداء على المظاهرات، وقعها الموظفون فى جميع الوزارات والمصالح ورفعوها إلى السلطان فؤاد، وقدموا صوراً منها مترجمة إلى الفرنسية إلى سفراء (يقصد ممثلى) الدول الأجنبية، وفى نفس الوقت أعلنوا عزمهم على الإضراب ثلاثة أيام إظهاراً لمشاركة الشعب مطالبه، ولكنهم لم يحددوا أيام الإضراب».

«ولم نمهلهم نحن الطلبة حتى يحددوا أيام الإضراب فأصدرنا منشوراً على أنه صادر من هيئة تنظيم إضراب الموظفين، وقلنا فيه إن إضراب الموظفين يبدأ يوم ٢ أبريل وينتهى يوم ٥ أبريل، وبدأ إضراب الموظفين فعلاً يوم ٢ أبريل، لكنه لم يكن شاملاً فى ذلك اليوم، أما يوم ٣ أبريل فكان شاملاً، وخلت جميع الوزارات والمصالح من الموظفين، واجتمع فى مسجد ابن طولون (لصعوبة الاجتماع فى الأزهر) جمهور كبير من الموظفين انتخبوا من بينهم هيئة مثلت فيها الوزارات والمصالح لتنظيم حركة الموظفين وصلتهم بالحركة الوطنية، وقررت الهيئة المنتخبة استمرار إضراب الموظفين حتى يتم الإفراج عن سعد باشا وزملائه، ثم توالى اجتماع الموظفين فى مسجد ابن طولون».

(٢٤)

ويستعيد سيد باشا من ذاكرته أحاسيسه القوية فى يوم إضراب الموظفين، أى يوم ٣ أبريل ١٩١٩، وهو يشير إلى أن هذا اليوم كان يومًا مميزًا فى تاريخ مصر، لأنه شهد إضراب الموظفين الذى لم يحدث فى تاريخ مصر إلا فى ذلك اليوم، ويتذكر مع هذا ما هو بمثابة ذكرى خاصة به وحده، حيث استطاع فى ذلك اليوم أن يقتل إنجليزيًا، وأن يتم هذه العملية فى حذر وهدوء ونجاح، محققًا رغبته فى الانتقام لإخوانه فى الوطن الذين قتلتهم السلطات البريطانية بعسفها وجورها.

«كان يوم ٣ أبريل سنة ١٩١٩ يومًا عظيمًا بالنسبة لمصر ولحركة الاستقلال، لأن إضراب موظفى الحكومة الذى لم يحدث قبل ذلك فى تاريخ مصر، قد ألهب حماس الشعب، وأقنع الأجانب بأن المصريين جادون فى طلب استقلالهم، وبدت القاهرة فى ذلك اليوم وكأن البيوت والمتاجر والمصانع ودور الحكومة ومصالحها خالية من الناس، وكلهم فى الشوارع يتظاهرون ويحتجون ويهتفون، فكان مظهر حركة المطالبة بالاستقلال رائعًا قويًا عنيفًا أشد العنف».

«أما بالنسبة لى فكان يوم ٣ أبريل سنة ١٩١٩ يومًا مريحًا لنفسى التى كان يؤرقها القلق، والتى كانت تتألم من ثورة فى داخلها من يوم ١٠ مارس سنة ١٩١٩ حتى يوم ٣ أبريل سنة ١٩١٩، وكان مبعث تلك الثورة التى تؤلم نفسى هو رغبتى فى الانتقام

لمئات الشهداء المصريين الذين كان يقتلهم الإنجليز فى شوارع القاهرة ابتداء من يوم ١٠ مارس لا لشىء إلا لأنهم يطالبون بحرية بلادهم. كان يحز فى نفسى أن هؤلاء الذين يطالبون بحرية بلادهم يُقتلون بوحشية غاشمة، ولا يحاكم القاتل حتى، ولا يحاسب على ما فعله، ثم لا يثأر للمقتول، ولا يفدى ولو بكلمة مواساة ممَنْ حكموا بقتله. إن فى ذلك ذلاً للإنسانية، وإهدارًا فاضحًا لحقوق الإنسان، وهذا الحال بعث فى نفسى الرغبة فى الانتقام لمواطنىّ، ولو انتقامًا رمزيًا، ولو بقتل عدد يسير من الإنجليز مقابل مَنْ يقتلون بالمئات من المصريين».

«فى يوم ٢ أبريل وصل إلى القاهرة أخى محمد قادمًا من بلدتنا كفر الشناوى على ظهر مركب شراعى، وقد جاء ليأخذنا أنا وأخى عبد المحسن وابن اختنا محمد رشاد على ظهر المركب الشراعى ويعود بنا إلى البلد، بناء على أمر والدنا عندما علم بإضراب طلبة المدارس وقطع السكك الحديدية، وتضايقت لهذه المفاجأة التى ستحرمنى من الاشتراك فى الثورة مع إخوانى لأنى لا أستطيع مخالفة أمر والدى، وعلى كره منى قلت لأخى محمد إننا سنعود معه إن شاء الله بعد ثلاثة أيام ريثما يستريح من عناء سفر أربعة أيام بالمركب الشراعى، وفى المساء عندما شرع أخى فى خلع ملابسه استعدادًا للنوم، لاحظت أنه يحمل معه طبنجة (مسدس كبير الحجم) وأخبرنى أن والدنا نصحه بأن يحملها معه فى السفر للطوارئ، حيث كان السفر بالمركب الشراعى يستدعى المبيت ثلاث أو أربع ليالى على ظهر المركب فى العراء، وفى جهات لا يعرفها».

«ورقص قلبى فرحًا برؤية الطبنجة، وعولت على أخذها معى أثناء مظاهرات الغد ٣ أبريل، وكنت كما سبق أن ذكرت قد تمرنت على إجادة الرماية بها، وفى الصباح استأذنت أخى لأخذ الطبنجة معى وكانت فى جراب جلد مثبت فى حزام جلد، وشددت الحزام على وسطى تحت الجاكتة وخرجت لأشترك فى المظاهرات وفى عزمى أن أقتل ضابطًا إنجليزيًا من الضباط الذين يطاردون المظاهرات، ولو كلفنى ذلك حياتى».

(٢٥)

هكذا يروى سيد باشا الصدفة التى جاءت إليه بالطبنجة مع أخيه محمد، وكيف أنه

فكر فى استغلالها، وانضم إلى إحدى المظاهرات حتى وصلت إلى ميدان عابدين، وهناك قابل ديكسون رئيس مفتشى السكة الحديد وهو يتذمر من المظاهرات فما كان منه إلا أن قتله، وقد نجح المتظاهرون فى أن يغطوا على تصرفه، حيث رفعوه وكأنه هو الذى يهتف بالمظاهرة، ثم تحركوا به إلى حيث يمكنه الهرب.

وهو يروى أنه استحلف زميله فى اللجنة العليا ألا يبوح بسره على الإطلاق:

«وخرجت من بيتى ببركة الفيل متجهًا إلى ميدان لاظوغلى حيث كنت أعلم أن إحدى المظاهرات فى ذلك اليوم ستبدأ من أمام وزارة المالية، وسارت المظاهرة من ميدان لاظوغلى مخترقة شارع الدواوين، فشارع الشيخ ريحان، فميدان عابدين حيث كانت الساعة حوالى العاشرة، وهناك وجدنا الميدان غاصًا بالمتظاهرين وأطلقت نظرى باحثًا عن مكان وجود الجنود الإنجليز وضباطهم، وأثناء ذلك وقع نظرى على رجل أجنبى وسمعت عددًا من المتظاهرين حولى يشيرون إليه ويقولون إن هذا الرجل الإنجليزى هو ديكسون رئيس المفتشين بالسكة الحديد، وفهمت من حديثهم أنهم من عمال السكة الحديد، وكان ديكسون هذا متبرمًا ومستاء من المتظاهرين، فقلت فى نفسى إن هذا الرجل مثل الضابط، فاقتربت من مكانه وبسرعة خاطفة أخرجت الطبنجة وأطلقت عليه رصاصة أصابته فى رأسه فخر صريعًا».

«وبنفس السرعة أعدت الطبنجة إلى مكانها، وعندئذ علا هتاف مَنْ كانوا حولى من المتظاهرين بحياة مصر، وحملونى على أكتافهم على اعتبار أنى أنا الذى أقود هتافاتهم وذلك ليبعدوا عنى الأنظار ويبعدونى عن مكان الحادث، وساروا بى بضع خطوات ثم أنزلونى وأفسحوا لى الطريق لأهرب، فتسللت إلى الميدان الواقع أمام جامع عابدين، ومنه دلفت إلى حارة ضيقة تؤدى إلى حارة السقايين، وعندما وصلت إلى حارة السقايين ولم أجد أحدًا يتبعنى اطمأننت وسرت هادئًا حتى وصلت بيتى، ولم يكن أحد من المتظاهرين حولى يعرفنى سوى زميل لى فى مدرسة المعلمين هو أحمد محمد النجار، وكنت قد أشرت إليه خلسة بأن يبتعد عنى ولا يتبعنى».

«وفى المساء ذهبت إلى بيت الأمة كالمعتاد، ووجدت هناك أحمد النجار فاختليت به برهة واستحلفته على المصحف الشريف (أحمل فى جيبى دائمًا مصحفًا) ألا يبوح باسمى لأحد إذا ما ذكرت تلك الحادثة، أى حادثة قتل ديكسون».

(٢٦)

ويروى سيد باشا أنه كان واحدًا من الوفد الذى شكله الوطنيون لإتمام الصلح مع الأرمن بعدما صادفوا هجومًا بالرصاص من بيت واحد من الأرمن على المظاهرات، مما اضطر الوطنيين إلى قتل الأرمنى الذى وجدوه فى المنزل الذى انطلق الرصاص منه:

«. . . بعد وقوع ذلك الحادث واجتياز المظاهرات ميدان عابدين ودخولها شارع عبد العزيز، وقع حادث آخر، إذ أطلق أحد الأجانب الرصاص على المتظاهرين من نافذة منزله فأصاب بعض المواطنين فهاج المتظاهرون ضده، وهذا طبيعى بخلاف ما حدث عند إطلاق الرصاص على الإنجليزى، واقتحم المتظاهرون المنزل الذى أطلق منه الرصاص، ثم الشقة التى أطلق الرصاص من نافذتها، فوجدوا فيها رجلاً أرمينيًا فألقوا به من النافذة التى أطلق منها الرصاص فمات على الفور، وخشينا أن يستغل الإنجليز تلك الحادثة وأمثالها ليعلنوا للعالم أن حركتنا حركة تعصب ضد الأجانب، وليست حركة وطنية ضد السلطات الإنجليزية».

«فاجتمع زعماء الطوائف وقرروا تكوين وفد تمثل فيه جميع الطوائف ليقابل بطريرك الأرمن ويعبر له عن أسف المصريين لقتل الرجل الأرمنى ويعتذرون عن حادث قتله».

«وتكون الوفد من:

«١ ـ محمود أفندى فهمى النقراشى عن الموظفين.

«٢ ـ الشيخ مصطفى القاياتى عن العلماء.

«٣ ـ القس مرقص سرجيوس عن القبط.

«٤ ـ الشيخ عبد اللطيف الصوفانى عن الأعيان.

«٥ ـ محمد كامل حسين أفندى عن المحامين.

«٦ ـ عبد المجيد الرمالى أفندى عن التجار.

«٧ ـ محمد عثمان الطوبجى عن العمال.

«٨ ـ سيد محمد باشا أفندى عن الطلبة».

«وفى اليوم التالى تقابل أعضاء الوفد المذكورون آنفًا على قهوة النيوبار بميدان الأوبرا، ثم سرنا راجلين إلى مقر البطريركية الأرمنية الذى كان يقع فى شارع بولاق أمام جمعية الإسعاف، وأدينا المهمة التى قد كلفنا بها».

«وهذه المناسبة كانت بداية معرفتى بمحمود فهمى النقراشى أفندى، ثم تكررت مقابلاتى معه وصرنا أصدقاء».

(٢٧)

ويشير سيد باشا إلى تفصيلات هروبه إلى موطنه الأصلى بعيدًا عن القاهرة:

«وفى الساعة الثانية من بعد ظهر يوم الأحد الموافق ٦ أبريل سنة ١٩١٩ كنت فى شدة الألم النفسى لمغادرتى القاهرة وحرمانى من الاشتراك فى معقل الثورة ومكان تنظيم حركتها، حيث أقلعت بنا المركب الشراعية من ساحل روض الفرج متجهة إلى كفر الشناوى».

كما يشير إلى أنه كان يتمنى على الله جل وعلا أن يغير رأى والدى ويجعله يسمح له بالعودة إلى القاهرة.

ويذكر أنه لم يضيع وقت إقامته فى بلده من دون مشاركة فى الثورة، وإنما استغل صلاة الجمعة وخطب فى المجتمعين مبينًا لهم مساوئ الاستعمار، ومظالم الإنجليز المستعمرين».

وقد مكث فى البلد نحو عشرة أيام قام خلالها بجولة فى القرى المجاورة لقريتنا، وكان يدعو أهل القرية التى حل بها إلى الاجتماع فى مسجدها ثم يخطب فيهم مبينًا لهم الأعمال الضارة التى يرتكبها الإنجليز فى حق المصريين.

وهو يشير إلى أن نشاطه هذا لفت أنظار السلطات إليه، مما جعل والده يفضل له العودة إلى القاهرة بعيدًا عن الأنظار المركزة عليه وحده!!:

«ووصلت أخبار هذه الاجتماعات إلى القيادة الإنجليزية المرابطة فى بندر المركز (فارسكور)، وجاءت الأخبار لوالدى من رجال الإدارة بالمركز، أن القيادة الإنجليزية

تعتزم القبض علىّ لنشاطى السياسى، ووصلتنى أيضًا هذه الأخبار فلم أنزعج لها، بل سررت عند سماعها لأنى توقعت أنها ستجعل والدى يغير رأيه من حيث وجودى بالبلد، وبالفعل عندما التقيت به بعد سماع هذا الخبر قال لى والدى إنه يرى أن أعود إلى القاهرة مادمت مصممًا على الاشتغال بالسياسة، لأن نشاطى فى القاهرة سيكون مختلطًا بعمل زملائى فلا أظهر، أما هنا فإن نشاطى ظاهر والعيون مسلطة علىّ، فقلت له: كما ترى، سأعد نفسى للسفر بعد باكر على الأكثر.

«وفى الحال قررت بيع كل ما أمتلك من مواشى، وعاهدت نفسى على أن أتبرع بكل المبلغ الذى أحصل عليه للحركة الوطنية، ووفيت بعهدى ولم أخبر والدى أو والدتى ببيعى لكل المواشى التى تخصنى، ولم يعلما بشىء من هذا الحدث إلا بعد سفرى للخارج بنحو عام».

«وفى ١٨ أبريل وفى الصباح الباكر من ذلك اليوم، استقليت ومعى رأس مالى كله بالإضافة إلى ما أعطانى والدى لمصروفى عربة (كارو) نقلتنى من البلد إلى المنصورة (٤٥ كيلومتر) لأن بعض السكك الحديدية كانت مازالت معطلة، ومنها الخط الذى بين البلد والمنصورة، ثم قطعت المسافة بين المنصورة والقاهرة بعضها بالسكة الحديد، وبعضها بعربات الكارو فوصلت القاهرة بعد قيامى من البلد بنحو ١٢ ساعة».

(٢٨)

وتتضمن المذكرات تفصيلات دقيقة عن تكوين لجنة طلبة المدارس العليا ومندوبى المدارس فى هذه اللجنة، وهى معلومات تتفق فى مجملها مع ما رواه الدكتور مهدى علام فى ذكرياته التى نشرها أبو بكر عبد الرازق:

«وفى صباح اليوم التالى (١٩ أبريل) استأنفت اتصالاتى بتجمعات الطلبة وبيت الأمة، وبعد بضعة أيام من الاتصالات والمحادثات قرر طلبة المدارس العليا أن يكون دورهم فى الثورة هو توعية الجماهير وقيادتهم وتنظيم حركات المقاومة الشعبية، واتفقوا على تكوين لجنة من طلبة المدارس العليا تقوم بعمل كل الترتيبات اللازمة لتنفيذ ذلك، يطلق عليها اسم «لجنة طلبة المدارس العليا»، وتتكون من مندوبين اثنين عن كل

مدرسة، على أن ينتخب طلبة كل مدرسة ممثليها من طلبتها، وانتخبت أنا وزميلى محمود عوضين طه عن مدرسة المعلمين العليا لنمثلها فى تلك اللجنة».

«وكانت اللجنة مكونة من: محمود عوضين طه وسيد محمد باشا عن مدرسة المعلمين العليا، وعبد العزيز عز العرب وهربرت أخنوخ فانوس عن مدرسة المهندسخانة، وعبد الهادى خليل ومحمد حلمى الجيار عن مدرسة الطب، وحسين إدريس وحسين النادى عاشور عن مدرسة الحقوق، وحسن الخطيم ومحمود سكر عن مدرسة التجارة العليا، ويوسف العبد وعبد السلام الهلالى من الجامعة المصرية الأهلية، ومحمد على ثابت ومحمد الغمراوى عن مدرسة الزراعة العليا، وعبد الوهاب عزام ومحمد عبد الرحمن الجديلى عن مدرسة القضاء الشرعى، ومهدى علام وآخر لا أذكره عن دار العلوم، وعبد الباقى سرور نعيم وآخر لا أذكره عن الأزهر الشريف، وكانت مهمة هذه اللجنة تتركز أساسًا على العمل على تنفيذ القرارات التى تصدرها اللجنة نفسها أو غيرها من الهيئات التى تعمل للثورة».

(٢٩)

وهو يشير إلى أن هذه اللجنة تولت تنظيم حركة الإضرابات وقيادتها حيث يقوم مندوبو المدارس ومَنْ يختارونهم لمعاونتهم بالدعاية للإضراب الذى يقرر، ثم منع كل مَنْ تسول له نفسه بالذهاب إلى عمله فى أيام الإضراب، ويروى فى هذا الصدد قصة الدور الذى قدر له أن يلعبه فى مدرسة فؤاد الأول الثانوية بالعباسية:

«وأذكر أنى أنا وزملائى طلبة السنة النهائية بمدرسة المعلمين العليا كان علينا أن نتمرن تمرين آخر العام بالتدريس فى مدرسة فؤاد الأول (حاليا الحسينية) الثانوية بالعباسية، وتقرر ونحن بالتمرين القيام بإضراب عام، وتوقفت المواصلات فأصبحت مبكرًا وذهبت من بركة الفيل إلى مدرسة فؤاد الأول راجلاً وأخبرت مَنْ حضر من زملائى بقرار الإضراب، لأنه قد صدر فى مساء اليوم السابق متأخرًا، فامتنعوا عن العمل إلا واحدًا منهم (محمد حسين الموصلى) دخل أحد الفصول ليدرس، وكان بالفصل عند قليل من التلاميذ، فدخلت خلف الزميل ثم حملته بين يدى وقذفت به من

شباك الفصل حيث كان الفصل بالدور الأرضى، فهلل التلاميذ وخرجوا من الفصل ثم من المدرسة ولم يجرؤ الزميل أن يستأنف العمل بعد ذلك».

(٣٠)

كذلك يشير الدكتور سيد باشا إلى دور هذه اللجنة فى طبع المنشورات التى تكتبها اللجنة وغيرها من الهيئات المشتغلة بالثورة، وهو يذكر أسماء المطابع الأهلية التى ساعدت هؤلاء الطلاب الثوار على أداء مهمتهم:

«... ونأخذ المال اللازم لذلك من سكرتير لجنة الوفد المركزية بالقاهرة عبد الرحمن بك فهمى عن طريق المرحومين محمود فهمى النقراشى وأحمد ماهر، وكُلفت أنا والزميل يوسف العبد بالإشراف على طبع المنشورات ثم توزيعها فى الأقاليم، أما توزيعها بالقاهرة فكان يقوم به مندوبو المدارس بعد أن يتسلموها منا مطبوعة، واتفقنا أنا ويوسف مع مطبعة محمود الخضرى، وكان مقرها بأحد الشوارع المتفرعة من شارع حسن الأكبر خلف سراى عابدين، على أن تطبع لنا المطبعة سرًا ما نقدمه لها من أصول منشورات أو نداءات أو بيانات، ويكون المؤتمن على السر فى المطبعة هو الأسطى أمين الخضرى شقيق صاحب المطبعة، كما اتفقنا أيضًا مع المطبعة الرحمانية بشارع الخرنفش بباب الشعرية، وكان المؤتمن على السر فى المطبعة الحاج أحمد إبراهيم رئيس قسم الجمع بالمطبعة، وهكذا كان يتم طبع أى منشور أو قرار أو بيان فى بحر ٢٤ ساعة على الأكثر من صدوره».

(٣١)

ويشير سيد باشا إلى التطور الطبيعى لفكرة شراء مطبعة خاصة بالثورة، بما يوفر على أعضاء اللجنة من إجراءات الأمن والتأمين، ويمكنهم من أداء مهمتهم على نحو أسرع، وهو يذكر تفصيلات فى غاية الدقة عن المكان الذى اختير لتوضع المطبعة فيه:

«اقترحنا على اللجنة شراء مطبعة من المطابع التى تدار باليد، وكانت أغلب المطابع فى ذلك الوقت تدار باليد لنطبع نحن الجريدة بأنفسنا ضمانًا لاستمرار صدورها،

وحرصًا على صدورها فى الأوقات المناسبة، وذلك لأن الرقابة على المطابع أصبحت شديدة ومتحمسة بالإغراء بالمكافآت التى كانت تمنح لمن يرشد عن مكان طبع أى منشور، ووافقت اللجنة على اقتراحنا، وفى جولة قصيرة قمنا بها أنا ويوسف أخذنا فكرة عن أثمان المطابع وأخبرنا اللجنة بنتيجة جولتنا وتم شراء المطبعة بعد أن كملنا أنا ويوسف من مالنا الخاص ثمن شرائها، حيث إن المبلغ الذى كان قد خصص لشرائها لم يكن كافيًا».

«جاء بعد ذلك دور البحث عن مكان للمطبعة ونقلها إليها، فأخذت أبحث عن مكان يكون بعيدًا عن أعين الرقباء، ودلنى زميل لى فى مدرسة المعلمين (على حسين) على منزل لجدته يقع فى حارة مسدودة متفرعة من شارع متفرع من شارع العقادين بين بوابة المتولى والغورية، وكان المنزل مكونًا من ثلاثة أدوار، وبالدور الأرضى منه حجرتان كبيرتان بالداخل خاليتان، فقدرت أنه مكان مناسب لعزلته التامة، فاستأجرته باسم مستعار وبحذر شديد شرعت فى نقل المطبعة إليه».

(٣٢)

ويشير الدكتور سيد باشا إلى عناصر مشوقة فى مغامرة نقل ماكينة الطباعة إلى المكان الذى اختير لوضع المطبعة فيه، وما حدث من مفاجآت كادت تفسد كل التخطيط، وتقود إلى وقوع زعماء الطلاب فى التهلكة:

«وقبيل غروب شمس اليوم الذى قررنا فيه نقل المطبعة، غيرنا أنا ويوسف ملابسنا كما كان يحدث فى كثير من الأحيان، فلبست أنا جلابية بلدى وعباءة، ولبس يوسف بدلة عامل زرقاء وذهبنا إلى مكان بائع المطبعة بشبرا وحملناها مفككة ومثبتة بحبال على ثلاث عربات كارو، واتفقنا مع أصحاب العربات على أن يأخذ كل منهم ثلاثين قرشًا أجرة توصيل حمل عربته إلى مكان قريب من بوابة المتولى، كما اتفقنا على أنى سأنتظرهم على مقهى معروف لهم فى ميدان باب الخلق (الآن ميدان أحمد ماهر) لأدلهم على المكان الذى سننزل فيه الأحمال، وتركنا العربات لننتظرها فى ميدان باب الخلق، وسرت أنا ويوسف لنأخذ الترام الذى يوصلنا إلى باب الخلق، فلاحظنا أن أحد

المخبرين السياسيين يتبعنا، وكان يوسف قد استطاع أن يحصل عن طريق أحد ضباط البوليس بقسم الموسكى على الصور الفوتوغرافية لمعظم المخبرين السياسيين فى ذلك الوقت، وكان مقرهم قسم الموسكى، وعندما مر بنا أول ترام ولم يكن يوصلنا إلى باب الخلق أسرعنا بدون اتفاق لركوبه، وبدون اتفاق أيضًا جلست أنا فى المكان المخصص لركاب الدرجة الأولى، وركب يوسف فى المكان المخصص لركاب الدرجة الثانية، وجلس المخبر بجوار يوسف، وعندما طلب الكمسارى ثمن التذاكر من يوسف قال له: «خذ من البيه فى الدرجة الأولى»، وعندما جاءنى الكمسارى أعطيته ثمن تذكرتى وثمن تذكرة التابع لى فى الدرجة الثانية، وذلك قبل أن يطالبنى بثمن تذكرة يوسف لأن الكمسارى لم يكن قد عرف بعد مَنْ هو راكب الدرجة الأولى الذى يتبعه يوسف، وكل ذلك حدث تلقائيًا بدون إشارة أو اتفاق، أما المخبر فإنه عندما طلب منه الكمسارى ثمن التذكرة قال: «بوليس»، ونزل فى المحطة الثانية للمحطة التى ركبنا منها لأنه يبدو أنه فهم أننا لسنا من الطلبة».

«وصلت العربات الثلاث ميدان باب الخلق وكان يوسف قد انصرف لقضاء بعض المهام الخاصة به، وأشرت إلى العربات أن تتبعنى وسرنا حتى وصلنا إلى المنزل الذى استأجرت فيه مكانًا للمطبعة، وما كادت العربات تقف أمام المنزل، وتبين لسيدة كانت تطل من أحد نوافذ المنزل أن العربات تحمل حديدًا، حتى صاحت تلك السيدة قائلة: «يا حوستى، دول جايبين حديد الإنجليز يخبوه هنا»، وعلى صيحتها أطل غيرها من النوافذ، وصاح بعضهم: «هاتو البوليس»، ونظرت حولى فإذا الحارة مسدودة ونحن فى نهايتها، بحيث لا يمكن إدارة العربات فيها، فانتابنى ذهول».

(٣٣)

ويتحدث الدكتور سيد باشا بفخر عن قدرته الفذة على معالجة الموقف علاجًا سريعًا وحاسمًا، وكيف رزق من قوة البدن ما مكنه من أن يؤدى عملاً شاقًا فى سرعة خاطفة وقوة، وهو يشير إلى النظريات القائلة بإمكان قيام الإنسان بعمل خارق عند تعرضه للخطر الشديد:

«واندفعت بسرعة البرق نحو العربة القريبة منى وفككت حصانها منها ورفعتها من يديها حتى صارت رأسية وأدرتها ١٨٠ درجة لتأخذ الاتجاه المضاد لاتجاه مجيئها، ثم أعدت إليها حصانها، وصاح أصحاب العربات مذهولين قائلين: «يا قوة النبى، الله يحميك لشبابك»، وبدون أن ألتفت لصياح سكان المنزل فعلت بمعاونة أصحاب العربات بالعربتين الأخريين ما فعلته بالعربة الأولى، وبعد أقل من عشر دقائق من وصول العربات أمام ذلك المنزل المشئوم كانت تلك العربات تسير عائدة نحو بوابة المتولى، حيث أمرت أصحاب العربات أن يفعلوا ذلك مسرعين، وليأخذوا طريقهم بعد وصولهم إلى بوابة المتولى شارع المغربلين وينتظرونى عند تقاطع شارع المغربلين بشارع محمد على حتى ألحق بهم، وبقيت أنا واقفًا عند مفترق ثلاثة شوارع تؤدى إلى الحارة التى بها المنزل المشئوم لأحاول تضليل رجال البوليس إذا ما وصل عن متابعة العربات».

«ولما تيقنت أن العربات قد وصلت شارع المغربلين وخرجت من المنطقة التى سيحاول البوليس البحث فيها عن العربات، تحركت بسرعة لألحق بالعربات، ولحقت بها فى منتصف شارع المغربلين تقريبًا، فاستقبلنى أصحاب العربات الثلاث بفرحة وابتهاج صادقين وموجهين إلىّ الأسئلة: «أنت يا فندى من التلاميذ؟ أنت بتشيل حديد؟ وبتشيل ٥٠٠ كيلو، دى كل عربية من دول عليها أكثر من ٥٠٠ كيلو، هى دى المطبعة اللى بتطبع المنشورات واللى بيدوروا عليها الإنجليز؟ ياسلام دا إحنا نفديك ياشيخ بأرواحنا». واستطردوا فى الأسئلة وعبارات المجاملة فتأثرت من شعورهم وشكرتهم على مجاملاتهم وأقوالهم».

«وقد أدهشنى من أقوالهم وزن أثقال العربات التى رفعتها، وعندها آمنت مرة أخرى بالقول: «إن الإنسان يمكن أن تولد فيه قوة خارقة عند تعرضه لخطر شديد، وأى خطر كان سيحل بى إذا وضعت السلطات الإنجليزية يدها على المطبعة، ثم استطرد أصحاب العربات يقولون: «إحنا نفديك بأرواحنا وحنروح معاك مطرح ما تأمر لأنك من التلاميذ الجدعان»، فقلت لهم: الحقيقة أنى لا أعرف الآن أية جهة أذهب إليها، وكنا بعد العشاء بنحو ساعتين، فقالوا: كل واحد يأخذ عربته إلى بيته ويحافظ على حمولتها حتى نجد مكانًا لها ونتقابل كل ليلة بعد العشاء على القهوة اللى تقابلنا عليها فى أول ليلة لنعرف إذا كنت وجدت مكانًا، فقلت: وكيف تتعطلون عن

أعمالكم حتى أجد مكانًا؟ فأجابوا بصوت واحد: «تغور أعمالنا فى حب الوطن»، فأكبرت شهامتهم وشكرتهم وتركتهم وذهبت إلى بيتى وجلست أفكر فى أى جهة أختار مكانًا للمطبعة».

(٣٤)

ويتحدث سيد باشا عن التحول الذى طرأ على تفكيره فيما يتعلق بتحديد مكان المطبعة، وكيف أنه انتبه إلى أفضلية وجودها فى مكان مطروق حيث لا ينمو الشك فى نفوس أجهزة البوليس:

«. . . فى تلك اللحظة تغيرت وجهة نظرى فى المكان الذى يحسن أن توجد فيه المطبعة، لماذا لا يكون مكان المطبعة جهة لا يظن احتمال وجودها فيه؟ لماذا لا يكون مكانها قريبًا من القلعة حيث يوجد الجيش الإنجليزى والسلطة العسكرية الإنجليزية، ويمر الداخلون والخارجون من القلعة على مكان المطبعة أو قريبًا منه ولا يتصورون أن تبلغ بنا الجرأة إلى أن نضع المطبعة التى يبحثون عنها تحت أنوفهم؟!».

«وفى الصباح ذهبت لأبحث عن مكان بجهة القلعة، ووقع نظرى على لافتة «للإيجار» معلقة على منزل صغير خلف المسجد الصغير الواقع بين مسجد الرفاعى والقلعة، وكان منزلاً مكونًا من دورين فقط، وبكل دور ثلاث حجرات، فاستأجرته باسم «على على بكر» من الأعيان، والأجرة ١٥٠ قرشًا فى الشهر، ودفعت أجرة شهرين مقدمًا، وفى المساء جاء أصحاب العربات الثلاث وكنت فى انتظارهم على المقهى، وبعد أن شربنا القهوة وتسامرنا قليلاً أخبرتهم بأنى قد وجدت مكانًا للمطبعة، وأننا سننقلها فى الصباح وقت الفجر فى ذلك المكان الجديد، وتواعدنا على اللقاء أمام مسجد الرفاعى ومعهم العربات عند أذان الفجر، وعند أذان الفجر بالضبط كنت أنا ويوسف أمام مسجد الرفاعى فدخلنا المسجد وصلينا الفجر مع الجماعة، وفى اللحظة التى خرجنا فيها من المسجد كانت العربات قد وصلت فتبعتنا إلى المنزل الذى أعددته للمطبعة وأنزلناها فى هدوء وسلام، وشكرت أصحاب العربات على جميلهم ومعاونتهم لنا، ثم أخرجت من جيبى ثلاثة جنيهات لأعطى لكل منهم جنيهًا، وإذا بى

أقابل بثورة غضب شديدة من جانبهم ويصيحون: «إحنا مانخدش أجرة على شغل الوطن، دى شتيمة لنا، أنت بتخاطر بشبابك للوطن وإحنا ناخد أجرة»، وقمت أنا ويوسف بمحاولات ورجاءات لإقناعهم بأخذ شيء ولو بأخذ الأجرة المتفق عليها، ولكنهم رفضوا رفضًا باتًا أن يأخذوا قرشًا واحدًا، يا لها من وطنية سامية لا يسعنى إلا أن أحنى رأسى إجلالاً وتعظيمًا لها».

«وقد أشار إلى هذه الحادثة المرحوم الدكتور أحمد ماهر فى حديث نشرته له مجلة «نهضة الشبيبة» فى عددها رقم ١١٧ بتاريخ ١٤/ ٢/ ١٩٣٤ بمناسبة ما كان يرويه عن أعمال الشباب فى ثورة سنة ١٩١٩».

(٣٥)

ويروى الدكتور سيد باشا تفصيلات طريفة عن الطريقة التى تمكن بها هو وزملاؤه من طباعة جريدة «المصرى الحر» السرية، ويظهر لنا ذكاء هؤلاء الثوار الذين انتبهوا إلى أهمية الفصل بين مكان جمع الحروف، وبين مكان الطبع، ويدلنا ترتيب الخطوات التنفيذية التى كان هؤلاء الطلاب يتبعونها فى أدائهم لمهمتهم السرية هذه على مدى ما كانوا يتمتعون به من نضج وقدرة على التخطيط الجيد، والتنفيذ الدقيق، وهى الصفات التى مكنت من تعاظم دورهم فى ثورة ١٩١٩، ونجاح هذه الثورة:

«. . . وأخذنا نرسم خطة تنفيذ طبع «المصرى الحر» وما يلزم لذلك من إعداد، فعلينا أن نشترى الحروف اللازمة للطبع، ونشترى لها الصناديق والحوامل ونحو ذلك، كما علينا أن نتعرف على عامل موثوق به لجمع الحروف، وعامل آخر موثوق به أيضًا للقيام بعملية الطباعة، وفى هذه الجلسة استقر رأينا على أن توضع الحروف وتجرى عملية جمعها فى مكان غير المكان الموجود فيه المطبعة، وذلك زيادة فى الاحتياط، وفضلنا أن يكون مكان الحروف قريبًا من سكنى».

. . . . . .

«أتسلم أنا من لجنة الطلبة أو من سكرتارية الوفد مخطوط ما يراد طبعه، ثم أسلمها

إلى محمد أفندى إسماعيل أصيل، وكان زميلى بالمدرسة الإلهامية الثانوية، وتوفى والده وهو بالسنة الرابعة الثانوية فآثر أن يحل محل والده فى التجارة على أن يتابع الدراسة، وكان والده صاحب محل بقالة كبير بشارع المغربلين، وكان محمد أصيل ناجحًا فى عمله التجارى».

«وبعد وصول الأصول إلى محل أصيل أخطر الحاج أحمد إبراهيم فيمر على محل أصيل ويأخذ المخطوطات ويذهب بها إلى مكان وجود الحروف ويصفّها (المخطوطات) فى حروف، ثم يضعها فى صحائف ويعدها للطبع».

«ثم يأتى أحد أصدقائى المعلمين العربجية فى الوقت المناسب وتُحمل الصحائف المعدة للطبع على عربته إلى مكان المطبعة، ثم أذهب أنا والحاج أحمد فى الوقت المناسب إلى مكان المطبعة وندير المطبعة معًا، لأن الحاج أحمد كان رجلاً مسنًا، ونطبع العدد اللازم من الجريدة أو المنشور، وبعد ذلك أبدأ أنا ويوسف لجمع العدد المطبوع فى حزم، وكل حزمة تضم العدد الخاص لكل مديرية أو محافظة، ثم يأتى أحد المعلمين ويحمل الحزم التى سترسل إلى الأقاليم إلى محل أصيل، ومنه نقل إلى «أبو غاطس»، وهو مكان تجميع قطارات السكة الحديد بمحطة القاهرة، ومن هناك تسلم إلى المراسلين، أما الحزمة الخاصة بمحافظة القاهرة فتحمل إلى محل محمد توفيق الترزى بسكة المناخ خلف عمارة ترغيب بميدان الأوبرا، وكان محمد توفيق هو الترزى الذى أحيك بدلى عنده، ومن سكة المناخ إلى موزعى المنشورات يوزعونه فى القاهرة، وظل الحال كذلك إلى أن سافرت إلى إيطاليا فى يناير سنة ١٩٢٠».

(٣٦)

ويشير الدكتور سيد باشا آسفًا إلى المصير المجهول الذى لقيته هذه المطبعة على يد قيادات التنظيم السرى لثورة ١٩١٩، وذلك على الرغم من أنه هو وزميله كانا يملكان آلاتها:

«وعندما عدت من إيطاليا فى أغسطس ١٩٢٣ سألت يوسف عن المطبعة وإدارتها، فأخبرنى أنه بعد بضعة شهور من سفرى طلب منه الدكتور أحمد ماهر نقل المطبعة وإدارتها إلى مكان عينه له فنقلها إلى هذا المكان، ولم يعلم يوسف العبد عنها شيئًا بعد

ذلك، رغم أننا أنا ويوسف كنا قد دفعنا من مالنا الخاص أكثر من نصف ثمن المطبعة ومعداتها».

(٣٧)

ويورد الدكتور سيد باشا فى مذكراته تفصيلات متعددة عن الوسائل التى لجأ إليها الطلاب فى ثورة ١٩١٩ من أجل تسليح أنفسهم، ومن الطريف أنهم حصلوا على الأسلحة من الضباط الإنجليز غير الملتزمين(!!) وهى فكرة طبيعية فى مثل هذه الظروف، على أن الأهم من الحصول على السلاح كان هو الحصول على القنابل:

«. . . ولم يدم النقاش طويلا، حيث اتفقنا على أن نحاول الاتصال بالضباط والجنود الإنجليز الذين يرتادون المقاهى والبارات للسكر والعربدة، ونحتال على شراء ما يمكن أن يكون معهم من أسلحة، وتم ذلك واشترينا ثلاثة مسدسات فى أول اتصال بهم، وكلفنا ذلك خمسة جنيهات بما فيها ٧ طلقات لكل مسدس، وتوالى شراؤنا للمسدسات حتى اقتنينا ١٥ مسدسًا، ومع كل مسدس ٧ طلقات، دفعت ثمنها كلها من مالى الخاص، واستقر رأينا على أن نستعمل هذه المسدسات لقتل الإنجليز، أما المتعاونون معهم من المصريين فلا نقصد قتلهم وإنما نقصد إرهابهم، وذلك بإلقاء قنابل عليهم تنفجر ولا تصيب إصابات قاتلة، اللهم إلا مَنْ لا يحسن حملها فقد تحدث به إصابات».

«وفى مقابلة مع أحد الضباط استطعنا أن نحصل على قنبلتين من القنابل اليدوية، وكذلك على ٣٠ طلقة رصاص، ولكنى عندما فحصت طريقة استعمال هذه القنابل وجدت أنها لا يمكن أن تتمشى مع عملنا، ففكرت باعتبارى قد درست قدراً لا بأس به من الكيمياء، أن أصمم قنبلة، وذهبت إلى دار الكتب المصرية بباب الخلق واستعرضت قائمة كتب الكيمياء بالدار، واخترت من بين كتب الكيمياء التى تبحث فى المفرقعات كتابًا إنجليزيًا كتبت اسمه وخرجت قاصداً منزل زميل لى فى مدرسة المعلمين هو المرحوم محمد على، ورجوته أن يستعير لى ذلك الكتاب استعارة خارجية باسمه، وذلك احتياطًا للعواقب، وأحضر لى محمد على الكتاب، فتصفحته واستخلصت منه تصميمًا لقنبلة، ثم أعدته لزميلى ليعيده بدوره إلى دار الكتب».

(٣٨)

وقد وظف سيد باشا علمه من أجل وضع خطة إنتاج القنبلة التى تمكن الثوار من تصنيعها فى بعض الورش الميكانيكية، بمعاونة عمال ورش عنابر السكك الحديدية:

«... كان هذا هو التصميم الذى وضعته للطريقة التى سنستخدمها لإرهاب المصريين الذين يتعاونون مع الإنجليز، وكان لابد لى أن ألجأ إلى ورشة ميكانيكية لتصنع لى الأسطوانة بهذا الشكل الخاص، وكان من اللازم أيضًا أن تكون صناعة هذه الأسطوانة فى غاية السرية والكتمان، وفى مكان أمين، فاتجه تفكيرى إلى ورش عنابر السكك الحديدية، وكان عمال العنابر من أكثر العمال حماسًا للحركة الوطنية، فطلبت من المرحوم محمد عثمان الطوبجى، باعتباره متصلاً بالعمال وزعمائهم، أن يرشدنى إلى عامل موثوق به من عمال ورش السكة الحديد، فجاءنى بالوطنى المخلص الشجاع الحاج أحمد جاد الله، وليس فى وسعى أن أجد العبارات التى يمكن أن أصف بها شجاعة هذا الرجل، وقوة إيمانه بالله، ورغبته فى التضحية بكل ما يملك من مال وحياة لإخراج الإنجليز (الكفار) على حد تعبيره، من مصر. وصفت بدقة للحاج أحمد الغلاف الذى أريده وأريد منه أن يصنعه فى مكان لا يراه فيه أحد ولا يعلم به أحد، وأخبرته بأنى سأدفع له ثمن كل ما يصنعه حسبما يطلب، فاستجاب لكل ما طلبته منه، ثم سأل لأى شىء تلزمكم هذه المواسير، فصارحته بالأمر بعد أن أقسم هو ومحمد الطوبجى على المصحف بألا يبوحا لأحد ما بشىء من هذا الموضوع، ثم سأل: «ومَنْ سيقوم بهذا العمل الوطنى الكبير؟»، فقلت له: «الطلبة»، فقال: «ولماذا لا نشترك نحن العمال مع الطلبة؟»، فقلت: «لا مانع إذا كان العمال مستعدين لذلك»، فقال: «إن العمال يشرفهم أن يشتركوا معكم فى هذا العمل الطيب (ليتخلصوا) من الإنجليز الكفار، واتركا لنا نحن العمال قتل الكفار الإنجليز، وأنتم يا طلبة عليكم المصريون اللئام»، فقلت: «وهل تعرف من العمال أشخاصًا يوثق بهم ويقبلون الاشتراك معنا؟» فقال: «بكل تأكيد»، وانتهى حديثنا على أن الحاج أحمد جاد الله سيختار من زملائه العمال اثنين أو ثلاثة ليعرفهم بمحمد الطوبجى، ثم نعلمهم استعمال المسدسات وضرب النار وإلقاء القنابل، ويكون معهم الحاج أحمد ليتعلم هو

أيضًا إطلاق النار، وبعد ثلاثة أيام من هذا اللقاء كان فى محل محمد الطوبجى «لفة» بها ١٥ غلافًا مطابقًا تمامًا لأصل التصميم، مع رسالة مذكور فيها أن العمال لا يقبلون أن يبيعوا شيئًا لأعمال الوطن، وبعد يومين آخرين كان بمحل محمد الطوبجى لفة بها كمية من حصى الحديد (كبير ومتوسط وصغير) أتى بها الحاج أحمد جاد الله».

(٣٩)

ويأتى إلى دور البطل أحمد عبد الحى كيرة فى حديث صديقه وزميله الدكتور سيد باشا، وقد رحب هذا البطل بالمشاركة فى تحضير القنابل، وتولى استحضار بعض المواد الكيميائية الخاصة بها:

«. . . وكان لى صديق وبلديات طالب بمدرسة الطب وهو المرحوم أحمد عبد الحى كيرة، وكنا نتقابل كثيرًا، وسمعت منه أن معامل مدرسة الطب ليس عليها رقابة تذكر، وأنه من السهل على أى طالب طب أن يحصل على ما يحتاجه من المواد الكيميائية من هذه المعامل، فذهبت إلى صديقى هذا فى منزله وأفضيت إليه بعزمى على عمل قنابل لإلقائها على المتعاونين مع الإنجليز من المصريين لإرهابهم، وسألته إن كان يرغب فى الاشتراك معى فى هذا العمل، فرحب متحمسًا وتعاهدنا معًا على العمل، وأخبرته بأن لنا شريكا ثالثًا هو الأخ يوسف السيد العبد، ثم طلبت منه أن يحضر لنا من معامل مدرسته المواد الكيميائية اللازمة، وهى زجاجة نصف لتر أو أكثر من حامض الكبريتيك، وكمية كبيرة من كلورات البوتاسيوم وحامض البكريك، فأحضر حامض الكبريتيك وكلورات البوتاسيوم، ولم يجد حامض البكريك».

«وكنت أعرف من دراستى أن المصابغ البلدية تستعمل حامض البكريك كعامل لتثبيت بعض الصبغات، ففضلت أن أشترى ما أحتاجه من تلك المصابغ وذلك لأن شراءها من مخازن الأدوية أو الصيدليات قد يعرضنى للشبهات، وفعلاً قصدت حى الجمالية حيث كانت تكثر تلك المصابغ هناك فى ذلك الوقت، واشتريت ما كنت أحتاجه، وبذلك تمت لى كل المواد لصناعة القنبلة، فعبأت ثلاث قنابل وأطلعت يوسف وأحمد على كل ما تم».

(٤٠)

ويشير الدكتور سيد باشا إلى وعيه بأهمية تجريب القنابل قبل استخدامها، وإلى قيامه بهذا التجريب بنفسه، وإلى وعيه أيضًا بضرورة تأمين تخزين القنابل حتى الحاجة إليها فى النشاط الفدائى:

«واتفقت أنا ويوسف على أن نأخذ القنابل الثلاث المعبأة ونخرج إلى منطقة الغابة المتحجرة بصحراء المقطم شرقى القلعة على بعد حوالى خمسة كيلومترات منها، وذلك لنقوم بتجربة على القنابل، وذهبنا وتحققنا من فاعلية القنبلة وعدنا مسرورين من نجاح التجربة، وكان الحاج أحمد قد أحضر إلينا ١٥ غلافًا غير الأغلفة التى كان جاء بها من قبل، فعبأت كل ما كان لدينا بدون وضع حامض الكبريتيك حيث لا يجب وضعه إلا عند أخذ القنبلة، كما وضعت فى عشر منها حصوات حديد كبيرة جدًا لإلقائها على المنشآت العسكرية الخاصة بالجيش الإنجليزى، وأصبح فى حوزتنا ٢٧ قنبلة و٢١ مسدسًا معدة للاستعمال، ورأيت من الواجب أن تحفظ هذه الذخيرة فى مكان أمين بعيد عن الأنظار، فطلبت من الحاج أحمد أن يرسل لى نجارًا أمينًا، فأرسل لى المرحوم محمد فهمى على من عمال البناء ومن الذين اشتركوا معنا فى العمل، ووصفت له عمل مخبأ تحت أرضية إحدى حجرات المنزل الذى به حروف مطبعة «المصرى الحر»، ووضعت القنابل والمسدسات كلها فى المخبأ، ثم وضعت بالحجرة بعض الأثاث».

«وبعد أن تم إعداد السلاح وتجربة القنابل ثم حفظ كل شىء فى مكان أمين، جاء دور التدريب على استعمال المسدسات وإصابة الهدف، فذهبنا مرة أخرى إلى منطقة الغابة المتحجرة أنا ويوسف ومحمد عثمان الطوبجى وأخذنا معنا ثلاثة مسدسات وعدد من الطلقات ودربتهما على استعمال المسدسات وإصابة الهدف، ثم كررنا عملية التدريب هذه أربعة أيام متتالية، وفى نفس المكان دربت أنا ومحمد الطوبجى الزملاء الحاج أحمد جاد الله وإبراهيم موسى ومحمد فهمى على وراغب حسن وعلى محمد على استعمال المسدسات وإصابة الهدف حتى أتقنوا إصابة الأهداف إتقانًا جيدًا، ثم اشترينا من الضباط الإنجليز كمية أخرى من الطلقات تعويضًا لما استهلك منها فى التدريب».

«ولم تكن هناك حاجة للتدريب على استعمال القنابل، وكان يكفى أن نصف لمن سيلقى القنبلة كيفية إلقائها، ولم يبق بعد ذلك إلا التنفيذ، لكن قبل السير فى التنفيذ هناك اعتبارات يجب مراعاتها، أهمها أن عدد أفراد الجماعة التى تؤمن بفكرة العمل على قتل ما يمكن قتله من الإنجليز وإرهاب المصريين هم ثلاثة فقط: يوسف العبد، وأحمد كيرة، وسيد محمد باشا، صحيح أتى معنا ستة آخرون وهم جماعة العمال: محمد الطوبجى، وأحمد جاد الله، وإبراهيم موسى، وراغب حسن، وعلى محمد، ومحمد فهمى على، ولكن جماعة العمال جهاز تنفيذ فحسب، وهذا العدد كاف للتنفيذ فى الناحية التى اختاروها لأنفسهم، وهى ناحية قتل الإنجليز».

«أما الفريق الآخر، وهو فريق إرهاب المصريين المتعاونين مع الإنجليز بإلقاء القنابل عليهم، فعدد أفراده قليل، لاسيما أننا كنا اتفقنا على أنه يجب أن يشترك فى أى عملية ثلاثة أفراد أحدهم المنفذ، والتالى يعطى الإشارة للاستعداد، والثالث لحماية المنفذ بإطلاق الرصاص على مَنْ يحاول تتبع المنفذ أو إمساكه، وفى هذه الحالة نكون عرضة للضياع فى أول خطوة من التحرك إذا قبض علينا أو بعضنا، فقد نعدم نحن الثلاثة أو بعضنا، وعندئذ تموت الفكرة فى مهدها، ويقف العمل من بدايته، إذًا من اللازم أن تتسع قاعدة هذا الفريق، لكن حذار أن يتسع كثيرًا أو أن تتسع القاعدة فى دائرة واحدة، بل يجب تكوين دوائر أخرى تمس كل منها الدائرة الأصلية فى نقطة واحدة (شخص واحد)».

(٤١)

ويشير الدكتور سيد باشا إلى محاولة تكوين تنظيمات عنقودية، وإن لم يستخدم المصطلح، وكيف تم تنظيم العمل من خلال هذه العناقيد، ونحن نلاحظ مما يرويه سيد باشا أنه يعترف اعترافًا واضحًا، وإن لم يكن صريحا، بالفضل الأكبر (لحلقة) العمال، وإن كان يشير بشعور يتوسط ما بين الحياء والفخر إلى أنه كان بمثابة الموجه أو المنسق لهذه الجماعة الفدائية التى تولت كل العبء فى إنجازات العمل الفدائى فى ثورة ١٩١٩:

«وتحدثت إلى أحمد ويوسف فى هذه النقطة واتفقنا على أن يحاول كل منا الاتصال بثلاثة من معارفه وأصدقائه الذين يأنس فيهم الاستعداد للعمل معنا، ويقبل أن يشترك فيه، ثم يكون هو والثلاثة حلقة مستعدة للعمل، مع مراعاة أن جميع المتصلين بهم بعضوى الحلقة الأصلية الآخرين ولا عن باقى أعمال الجماعة، وفى اجتماعنا هذا أقسمنا نحن الثلاثة على المصحف الشريف على أننا قد وهبنا أنفسنا لمصر وطننا العزيز علينا، وأن يتعهد كل منا بألا يبوح للغير بأسرار عملنا إلا إذا كان واثقًا وثوقًا تامًا من أن الإباحة بسرنا تفيدنا ولا تضر أحدًا منا، أو بمن يعملون معنا، ونظمنا العمل فيما بيننا على النحو الآتى:

«يعهد إلى سيد باشا بنشاط الجماعة الخاصة بقتل الإنجليز، أى يكون هو المتصل بحلقة العمال وموجهًا إياها، ويعهد إلى أحمد عبد الحى كيرة بنشاط الجماعة الخاص بإرهاب المصريين الذين يتعاونون مع الإنجليز، أى يكون هو المتصل بحلقات الطلبة وموجهًا إياها، ويعهد إلى يوسف العبد بالمعاونة فى كلا النشاطين، هذا فضلاً عن تعاون الكل فى أى عمل تقوم به الجماعة أو حلقاتها، وكونت حلقتى من محمد خليفة التاجر بكفر الزيات، وكان مندوبنا فى توزيع المنشورات فى كفر الزيات، وآنست فيه الاستعداد للاشتراك معنا وفاتحته فى الأمر فقبل الاشتراك معنا، ومن أحمد النجار، وكان طالبًا معى فى مدرسة المعلمين، وقبل الاشتراك معنا محمد عثمان الطوبجى باعتباره الصلة بينى وبين حلقة العمال التى كانت مكونة ممن سبق ذكرهم، وكون أحمد عبد الحى كيرة حلقة من عريان يوسف سعد، ومحمد الحفنى، وحسن توفيق، ولم يكوّن يوسف العبد حلقة، وبقى معاونًا فى كل العمليات».

(٤٢)

ويشير الدكتور سيد باشا إلى ما يصفه بأنه ثلاث خطط متوازية، ونحن نفهم بالطبع أن مثل هذه الخطط لم ترد على هذا النحو فى الاتفاقات المبدئية، وإنما طورتها التجربة والنجاح فى النشاط السرى على هذا النحو:

«ثم اتفقت أنا والحاج أحمد ومحمد الطوبجى على تنفيذ حركة قتل الإنجليز وتدمير ما يمكن تدميره من المنشآت العسكرية بثلاث خطط:

«الخطة الأولى والعاجلة: هى أن يقوم بعض العمال بارتياد شوارع وجه البركة وكلوت بك وما يتفرع منها، حيث كان يرتادها الإنجليز وصغار الضباط للسكر والعربدة، ويستدرجون مَنْ يمكن استدراجه من هؤلاء وهم سكارى إلى بعض أحياء القاهرة المظلمة والمهجورة كحى الدراسة بالحسين، ومنطقة مستشفى الحوض المرصود بالسيدة زينب، وهناك يقتلونهم».

«والخطة الثانية: تتبع مَنْ نتفق على قتله من كبار الضباط الإنجليز فى الجيش أو البوليس، أو من الشخصيات المهمة من الموظفين الإنجليز، ثم انتهاز أية فرصة مناسبة وإطلاق الرصاص عليه، وغالبًا ما يكون ذلك فى وضح النهار، مع ملاحظة أن تنفيذ هذه الخطة يحتاج إلى تدبير متأن ومحكم».

«والخطة الثالثة: وهى تدمير المنشآت العسكرية الإنجليزية، وتجمعات الجنود الإنجليز، وذلك بانتهاز أى مناسبة وإلقاء القنابل القوية عليها».

«أما من حيث إرهاب المصريين المتعاونين مع الإنجليز فنقوم بتتبع ومراقبة سير مَنْ يتقرر إرهابه ثم يحدد يوم لإلقاء قنبلة أو أكثر عليه من القنابل الخفيفة المحشوة بحصى حديد صغير، وعلى هذه الأسس سار عملنا نحن فدائى سنة ١٩١٩».

(٤٣)

وفى خضم هذا الحديث كله لا يغفل الدكتور سيد باشا عن التنفيس عن شعوره بالضيق ممن سموا أنفسهم «جماعة اليد السوداء»، وعن إدانة تصرف المنتمين إلى هذه الجماعة التى استغلت العمل الوطنى من أجل النصب:

«... ظهر فى تلك الآونة جماعة أطلقوا على أنفسهم اسم «جماعة اليد السوداء»، وهم من الطلبة، وغرضها قتل الخونة من المصريين، وكان أفرادها يذهبون ملثمين إلى الأعيان والتجار ويطلبون منهم التبرع لجمعيتهم ويهددون مَنْ لا يدفع لهم، ثم انكشفت للجنة الطلبة أمر هؤلاء النصابين فأصدرت اللجنة منشوراً حذرت فيه المواطنين من هؤلاء النصابين حيث لا وجود لمثل هذه الجماعة بين الطلبة».

(٤٤)

ويتحدث سيد باشا أيضًا عما اعتراه هو وأصحابه من التفكير فى تدبير التمويل من خلال التنظيمات المرتبطة بالوفد، وذلك فى ظل غياب سعد باشا زغلول عن مصر، وهو يشير إلى رأى ينفرد به، وهو أن عبد الرحمن فهمى كان معارضًا للعمل السرى على الرغم من شهرته الذائعة بالمسئولية عن مثل هذا العمل!!:

«هل نطلب من هيئة الوفد المصرى أن يمولنا من التبرعات التى كان يجمعها من المواطنين للحركة الوطنية؟ وممن نطلب؟ إن سعد باشا الذى يعرفنى جيدًا موجود الآن فى باريس، هل نطلع عبد الرحمن بك فهمى على سرنا ونطلب منه أن يمدنا بجزء من المال الذى خصصه الوفد لطبع المنشورات السرية ونحوها؟ ولكن هل يصدقنا ويوافق على عملنا ويمدنا بالمال اللازم؟ إنه يعرفنى جيدًا باعتبارى مساهمًا فى الحركة الوطنية، ومشرفًا على طبع المنشورات، فقررت أن أجس نبضه من بعيد فترددت عليه يومين متتاليين، وفى كل مرة كنت أوجه الحديث معه إلى ضرورة التفكير فى الانتقام من الإنجليز الذين يحصدون أرواح المتظاهرين بلا رحمة، وكنت أجد منه نفورًا شديدًا مصحوبًا بالفزع من استعمال العنف والاتجاه إلى قتل الإنجليز قائلاً: إنه لا يجب أن تخرج عن خطة الوفد التى تنص على أنه يسعى إلى الاستقلال بالطرق السلمية، فتيقنت أنه لا فائدة ترجى منه، ولا من الحديث معه فى مجال عملنا».

«وعندئذ فكرت فى الرجل الطيب الذى أحبه ويعجبنى شعوره نحو وطنه، وحماسه لكل عمل يراه فى صالح مصر، وهو فى نفس الوقت يثق بى ويتوسم دائمًا الجد فيما أقول، ولا ضرر علىّ إذا فاتحته فى الموضوع، وسيكون صريحًا معى صراحة تامة، ولا خوف علينا منه إذا عرف أمرنا ولم يوافق عليه، وذهبت إلى المرحوم عبد اللطيف الصوفانى بك وأفضيت إليه بكل شىء ونحن وحيدان، فابتهج الرجل وقال لى: «بارك الله فيك وفى أمثالك من شباب الوطن، وفقكم الله لما فيه صالح البلاد»، وأخرج من جيبه عشرين جنيهًا وناولنى إياها قائلا: «هل هذا يكفيك»، قلت: «نعم هذا يكفينى الآن»، فقال: «وأنا مستعد لأن أمدكم بكل ما تحتاجونه»، فشكرته وانصرفت وأخبرت يوسف وأحمد بكل ما حدث بينى وبين الصوفانى بك».

(٤٥)

ونصل مع الدكتور سيد باشا إلى ما يرويه عن التخطيط للاعتداء على رئيس الوزارة محمد سعيد باشا، وهو أول مَنْ قبل رياسة الوزارة الإدارية بعد استقالة وزارة رشدى باشا، وهو يتحدث بالتفصيل عن الدور الذى قدر له أن يقوم به فى هذه المحاولة الفدائية:

«.. أن قبول محمد سعيد باشا لتأليف الوزارة يعتبر تحديًا للحركة، وتعاونًا مع الإنجليز، وردًا على هذا التحدى قررنا الاعتداء عليه، وتطوعت أنا لإلقاء القنبلة على محمد سعيد باشا، لكن أحمد اعترض وقال: ليكن دورك إعطاء الإشارة وسيختار أحد من حلقة الطلبة لإلقاء القنبلة وترك لى اختيار أحد من جهتى للحماية، وراقبنا أنا ويوسف خط سير محمد سعيد باشا فى ذهابه فى الصباح إلى وزارة الداخلية، كان منزله يقع فى شارع المدابغ (شارع شريف الآن) بين وزارة الأوقاف وجريدة «الأهرام» (شيد مكان منزله الآن جملة عمارات)، وكان يخرج من منزله فيسير فى شارع جامع جركس (صبرى أبو علم)، فميدان سليمان باشا (ميدان طلعت حرب)، فشارع سليمان باشا (طلعت حرب)، فميدان قصر النيل، فشارع (قصر العينى)، فشارع السلطان حسين إلى وزارة الداخلية، وقررنا أن يجلس مَنْ سيلقى القنبلة عليه على قهوة كانت موجودة على ناصية شارع كوبرى قصر النيل (التحرير) وميدان قصر النيل، وأقف أنا لأعطى الإشارة على ناصية شارع سليمان باشا وميدان قصر النيل، ويقف مَنْ سيحمى مَنْ سيلقى القنبلة فى شارع كوبرى قصر النيل على مقربة من ناصية ميدان قصر النيل (التحرير)».

(٤٦)

ويحرص سيد باشا على أن يورد رواية عن لقائه بالمصادفة بالنقراشى، الذى كان يعرفه من قبل، وحديثهما عن النشاط الفدائى، وإعجاب النقراشى بالخطوات التى مضى فيها سيد باشا، وحرصه على تعريف زميليه أحمد ماهر والشيشينى بسيد باشا، ومع أن سياق القصة كلها يأتى فى موضعه الطبيعى، فإننا نعجب أن يضحى

سيد باشا بكل احتياطاته، التى عودنا الحديث عنها، ويندفع فى الحديث عن كل التفصيلات للنقراشى على هذا النحو:

«... وقبل موعد التنفيذ بنحو أسبوع كنت مارًا على محل محمد توفيق شاكوش الترزى لأتحقق إذا كان وصله المنشور الذى كان قد تم طبعه فى اليوم السابق، فوجدت محمود أفندى النقراشى جالسًا وعنده اثنان آخران لم أكن أعرفهما من قبل، أما النقراشى فقد كنت تعرفت به بمناسبة ذهابنا معًا، للاعتذار لبطريرك الأرمن عن قتل أحد الأرمن أثناء المظاهرات، فلما رأنى النقراشى دعانى لأجلس معه بعيدًا عن الموجودين، وبعد حديث قصير دار بيننا سألنى إذا كان يمكن أن نجد من بين الطلبة شبانًا موثوقًا بهم يقبلون أن يقوموا بالاعتداء على الخونة من المصريين، ولو أدى الأمر لقتلهم، فقلت له: طبعًا يوجد مصريون يؤمنون بالله وبوطنهم حرا، يرحبون بالتضحية فى سبيل الاستقلال».

«فقال: «أتعرف أحدا منهم؟».

«قلت: «نعم أعرف نفسى، وأعرف إخوانى الذين يشاركوننى الرغبة فى التضحية بأرواحهم».

«فنظر إلىّ مندهشًا قائلاً: «أأنت مستعد للقيام بهذه الأعمال؟».

«قلت: «ستسمع قريبًا جدًا ما سيحدث فى هذا الشأن».

«فسألنى: «وعندك سلاح؟».

«قلت: «نعم»».

«قال: «ومن أين حصلت عليه؟».

«قلت: «بعضه اشتريته، وبعضه صنعته».

«قال: «يعنى إيه؟».

«قلت: «اشتريت مسدسات وصنعت قنابل».

«فقال على الفور: «هل يمكننى أن أساعدك على ما اشتريت».

«فقلت: «أشكرك لست فى حاجة الآن إلى مال».

«فقال: «إنه ليس من عندى، إنه من مال الأمة».

«ثم سألنى: «ومَنْ هم هؤلاء الزملاء؟».

«فأجبته: «لست فى حل من أن أبوح بأسمائهم لأحد».

«عندئذ نادى مَنْ كانا معه ليجلسا معنا ثم عرفنا ببعضنا، فعرفت أنهما الدكتور أحمد ماهر، والأستاذ حسن كامل الشيشينى، ثم قال النقراشى: «هاتوا أيديكم»».

«فمددنا أيدينا ثم قال: «ولنتعاهد ونقسم بالله على ألا يبوح أحد منا بالسر الذى ستعرفونه الآن».

«فأقسموا وأقسمت معهم».

«وعندئذ قال النقراشى: «إن سيد باشا وزملاء له قد سبقونا إلى ما كنا نفكر فيه، وسينفذون قريبًا ما كنا نتمنى تحقيقه».

« فقالا: «الحمد لله والله يوفقهم لعمل الصالح للوطن».

«ثم عقب أحمد ماهر قائلاً: «ألم أقل لكم إن شباب مصر شباب واع وجاد فى العمل لصالح الوطن؟».

(٤٧)

ويزداد عجبنا من حرص سيد باشا على إلقاء كثير من الظلال على علاقته بالنقراشى عندما نقرأ ما يرويه عن لقائه بالصوفانى، وما يرويه كذلك عن لقائه التالى بالنقراشى:

«كان فى عزمى أن أمر على الصوفانى بك لأخبره أننا سنقوم بالتنفيذ فى محمد سعيد باشا خلال الأسبوع، وقوى هذا العزم عندى ما سمعته من قول النقراشى إنه يمكن أن يساعدنا من مال الأمة، فذهبت توًا إلى الصوفانى وأخبرته بموعد تنفيذنا فى محمد سعيد باشا فقام وشد على يدى وقبلنى، ثم قصصت عليه ما جرى بينى وبين النقراشى من حديث، فقال: «عندما تقابل النقراشى مرة أخرى عرفه بأنى على اتصال بكم، وأنى سأطلب من مال الوفد ما تحتاجون إليه من مصاريف»، وبعد يومين قابلت

النقراشى ببيت الأمة، وكان معى يوسف العبد، وأحمد كيرة فعرفتهم ببعض، وأخبرت النقراشى بأننى على صلة بعبد اللطيف الصوفانى، كما أخبرته بما قاله الصوفانى بشأن المساعدات المالية فقال: «على بركة الله، ولكم أن تتصلوا بى بدلاً من الصوفانى عند احتياجكم لأى شىء».

«وفى هذه المقابلة طلب منى النقراشى رسمًا لتصميم القنبلة، مع بيان المواد التى تحتويها، فأعطيته كل ما طلب، ولعل النقراشى كان يريد أن يكلف غيرنا بعمل القنابل ليوسع الدائرة، لكنى لم أر أثرًا لذلك».

(٤٨)

ثم هو يصل إلى الحديث عن الواقعة نفسها حين شارك فى محاولة اغتيال محمد سعيد باشا، وكيف فشلت هذه المحاولة، وتنفرد مذكرات سيد باشا بالإشارة إلى اسم الزميل الذى تسبب فى فشل هذه المحاولة، على حين لم يشأ الآخرون ممن رووا ذكرياتهم تحديد شخصيته (وهو عبد الحميد المنصورى):

«... كان موعد التنفيذ على ما أذكر يوم ٣١ يونيو سنة ١٩١٩، واجتمعنا أنا وأحمد ويوسف قبل ذلك بيومين وأخبرنا أحمد أن الشخص الذى اختاره ليلقى القنبلة هو عبد الحميد المنصورى، وقد قبل العمل بارتياح وحماس، وأعطانى عنوانه وكان فى حارة تتفرع من شارع كلوت بك».

«وفى مساء اليوم التالى، أى قبل يوم إلقاء القنبلة بيوم، ذهبت إلى المنصورى فى بيته وعرفته بأنى موفد من قبل أحمد عبد الحى لتسليمه الأمانة، وهى القنبلة، وشرحت له كيفية حملها وإلقائها، كما عرفته المكان الذى سينتظر منه الإشارة، وهى منديل أبيض يرفع من جيب السترة إلى أعلى ليحاذى الرأس تقريبا».

«ثم ذهبت إلى محمد الطوبجى وسلمته مسدسًا، وأخبرته بأنه مكلف بحماية مَنْ سيلقى القنبلة غدًا على محمد سعيد باشا، وعرفته المكان الذى سيقف فيه، وبوقت تواجده فيه، وفى الساعة الثامنة والنصف من صباح اليوم المحدد كنت واقفًا فى ميدان

قصر النيل عند ناصية شارع سليمان باشا وفى جيبى مسدس، ووجدت زميلى كل فى مكانه، وبعد عشر دقائق من وصولى لاحظت أن عبد الحميد المنصورى يسير بين رجلين والقنبلة فى يده، ودخلوا الثلاثة شارع كوبرى قصر النيل متجهين نحو ميدان الأزهر، فأشرت إلى محمد الطوبجى، وكان لا يعرفه المنصورى، بالابتعاد فوراً، وأسرعت أنا بالصعود إلى عربة حنطور كانت مارة أمامى وطلبت من السائق أن يوصلنى إلى الكوبرى الأعمى (الجلاء)، ومن هناك أخذت الترام إلى الجيزة، ثم إلى كوبرى الملك الصالح، ومن عند كوبرى الملك الصالح أخذت عربة حنطور إلى ميدان زين العابدين حيث كان هناك منزل خالى الشيخ إبراهيم بيومى، وفى منزل خالى إبراهيم استبدلت بدلتى بجلابية بلدى صوف كانت لمحمد ابن خالى، ثم خرجت وأخذت الترام إلى الجيزة، ثم إلى الأهرام، وفى مكان غير مطروق قريبًا من الهرم الثانى جلست أفكر فيما حدث».

(٤٩)

ويستطرد سيد باشا راويًا تفصيلات ما اعتراه من شكوك بسبب موقف عبد الحميد المنصورى:

«... هل المنصورى خاننا أو خانته قواه لرهبة الموقف فاضطر إلى تسليم نفسه إلى البوليس؟ ولكن الذين معه ليسوا ضباطًا أو جنودًا! ربما كانوا مخبرين، هل اشتبه فيه المخبرون الذين كانوا ينتشرون فى طريق مرور رئيس الوزراء، ومن ثم اكتشفوا أمره وكانوا يقودونه إلى قسم البوليس؟ هل خاننا المنصورى وأخطر البوليس قبل مجيئه إلى مكان التنفيذ واتفق مع البوليس على أن يحضر ليقبض عليه وعلىّ متلبسين بالجريمة كما كانوا يسمونها؟ وإذا كان الأمر كذلك فلماذا لم يدلهم على وأنا واقف لأعطى الإشارة؟ مهما يكن من أمر لابد من الاحتياط لكل هذه الاحتمالات، وأول احتياط هو أنى لا أعود إلى منزلى، ولا أذهب إلى منزل أى أحد من أقاربى أو بلدياتى، لأنه إذا كان المنصورى قد اعترف علىّ فإن جميع هذه المنازل ستبحث وتقتحم للقبض علىّ، كما سيقتحم منزلنا بالبلد، وعندما مر بخاطرى اقتحام منزلنا فى البلد انتابتنى رعدة

شديدة، لأنى تخيلت حال والدىّ عندما يحدث هذا الاقتحام، لاشك أنهما سيصدمان صدمة شديدة، إشفاقًا علىّ وأنا الذى أحرص على راحتهما، وهنائهما، أكون سببًا لحزنهما».

«وانطلق لسانى مناجيًا عفوًا يا والدى، فقد دفعنى لما فعلت إيمانى بالله، وحبى لوطنى الذى أحبه كما أحبكما، عفوًا يا إلهى إذا كنت أنا قد تسببت فى إزعاج والدى وأنت أمرتنى بألا أقول لهما أف لأنك وضعت الوالدين بالنسبة للناس فى الدرجة الثانية لدرجتك حيث قلت فى كتابك العزيز: «وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا»، وقضيت بقية اليوم حتى غروب الشمس بمنطقة الأهرام متجولاً ومتجنبًا الناس بقدر الإمكان، وبعد الغروب بقليل أخذت الترام إلى محطة الإسعاف بشارع بولاق، ومن هناك أخذت عربة حنطور مخترقًا شارع عباس (رمسيس) إلى منزل صديقى وزميل صبانا التاجر حامد يوسف عاشور، وكان بشارع عباس أمام كنيسة البطرسية، وأخبرته أنى فى أزمة وأحتاج إلى المبيت عنده تلك الليلة، فرحب بى، وقضيت عنده الليل».

«وفى الصباح شكرته وودعته وذهبت فى عربة إلى منزل صديقى وزميلى فى مدرسة المعلمين المرحوم الدكتور محمد حسنى عباس، وكان يقطن بحى الظاهر، وكنت أتردد على منزله من قبل بحكم أننا كنا الاثنين من هواة الموسيقى. كان يعزف على الكمان، وأنا أعزف على العود، وكنا نعزف سويًا، فلما رآنى أدخل عليه بالجلابية بادرنى بقوله: «وفين العود يابلدى؟»، فقلت له: «إن اليوم ليس يوم تزمير، إنه يوم تفكير وتدبير»، ثم أخبرته بحالى، فظن أنى جئت لأختبئ عنده فى منزله وقال: إن كثيرًا من زملائنا الطلبة يعرفون أنك تتردد علىّ، وربما تصل النذالة بأحد منهم أن يخبر البوليس باحتمال وجودك هنا، ومن رأيى أن تسافر فورًا إلى عزبتنا وتبقى هناك فى أمان، كان قد سبق لى أن ذهبت إلى تلك العزبة التى يملكها والد الدكتور محمد حسنى عباس بجهة مشتول السوق، وبالعزبة منزل أنيق بمعزل عن القرية، وتحيط به حديقة كبيرة جميلة، فقلت: أنا لا أريد أن أختفى فى مكان بعيد عن القاهرة لأنى سأتابع عملى مع إخوانى مختفيًا، وقد أعددت المكان الذى سأختفى فيه،

وكنت أقصد المنزل الذى استأجرته لحروف المطبعة والذى أخفى فيه بعض الأسلحة. أما المهم عندى الآن فهو سفرى إلى إحدى القرى المجاورة لقريتنا لأتمكن من إعلام والدى أنى فى أمان وأطمئنه ثم أعود إلى القاهرة، واستقر الرأى على أن أسافر فى نفس ذلك اليوم إلى البلد على أن أركب القطار من محطة شبرا البلد، لا من محطة مصر التى ستكون به رقابة شديدة».

(٥٠)

ويورد سيد باشا تفصيلات طريفة عن هربه بالسكة الحديد إلى قريته مدعيًا أنه كفيف:

«وطلبت من حسنى أن يذهب ويشترى لى نظارة سوداء لأنى سأدعى أنى كفيف فى بعض الأحيان أثناء السفر، وفى الساعة الواحدة بعد الظهر ركبنا أنا ومحمد حسنى عرب إلى شارع شبرا ونزلنا أمام محل صيد الحمام (التيرو) بشارع شبرا، ثم أخذنا عربة أخرى أوصلتنا إلى محطة شبرا البلد، وكنت أضع النظارة السوداء على عينى وتظاهرت بأنى لا أرى، واشتريت تذكرة إلى محطة السوالم، وهى محطة قبل محطة فارسكور مباشرة، وأجلسنى حسنى على أحد مقاعد الدرجة الثالثة بجانب مسافر إلى المحلة الكبرى، وأوصاه بأن يقودنى فى محطة طنطا عند تغيير القطار لكى أركب القطار الذاهب إلى المنصورة، واهتم بى جارى فى القطار مدة وجوده معى حتى محطة المحلة الكبرى،».

«وعندما غادر القطار محطة المحلة عدت بصيراً بإذن الله، وعندما وصلت محطة السوالم كان الليل قد أرخى سدوله، فاستأجرت حماراً إلى ميت أبو غالب، وهى قرية والدتى، وكان بها مَنْ يعرفوننى فتحاشيت بقدر الإمكان أن أظهر نفسى لأحد، وعند ميت أبو غالب عبرت النيل فى معدية وذهبت إلى شرباص التى تقع على الضفة الشرقية من فرع دمياط تجاه ميت أبو غالب. شرباص تبعد عن بلدتنا كفر الشناوى بحوالى ثلاثة كيلومترات، وكان لى أختان متزوجتان ومقيمتان مع زوجيهما وأولادهما بشرباص، وكان منزل إحداهما يقع فى وسط البلد بينما منزل الأخرى يقع فى طرف البلد، ففضلت أن أذهب إلى منزل أختى الذى يقع فى طرف البلد، وعند

دخولى المنزل أشرت إلى الموجودين بالصمت وعدم التهليل لاستقبالى فاستجابوا، لاسيما وأنهم قد علموا بأن منزلنا بالبلد قد اقتحم فى صباح ذلك اليوم لتفتيشه والبحث عنى».

(٥١)

ويحرص سيد باشا على أن يبدى سعادته بنجاة بيت عائلته من اكتشاف ما كان فيه من أدلة كانت كافية لإدانته، ويشير سيد باشا إلى نصيحة والده له إذا ما كان يرغب فى البقاء بعيدًا عن القاهرة لمدة أسبوع، بأن يقيم عند صديق له اسمه الشيخ أحمد طرابية من أعيان كفر حميدة الواقع على مسافة كيلومترين جنوبى عزبة البرج المواجهة لرأس البر، وهو يروى أنه قد أخذ بنصيحة والده هذه:

«... وسألت إذا كان تفتيش البوليس لمنزلنا قد أسفر عن أخذ شىء؟ فقالت أختى: لم يأخذوا شيئًا أبدًا من منزلنا، وكان مبعث سؤالى هو أنه بمنزلنا المسدس الذى استعملته فى إطلاق الرصاص على المفتش الإنجليزى ديكسون، وسيف من الصلب كنت أقتنيته، وقد علمت فيما بعد أنه كان من بين رجال البوليس المصرى والجنود الإنجليز الذين حضروا لمحاصرة المنزل وتفتيشه كونستابل مصرى، وهو الذى عثر على (الطبنجة) المسدس والسيف، وعندما عثر عليهما دسهما فى رماد محمى فرن المنزل، وعرفت بعد عشر سنوات من ذلك الكونستابل نفسه أنه المرحوم حامد الأرناؤوطى صديقى وزميلى فى مدرسة دمياط الابتدائية، ولشد ما كان تأثرى عندما أخبرتنى أختى أنه أثناء تفتيش المنزل كان والدايّ فى حالة يستحقان الإشفاق عليهما، وهذا ما كنت أتوقعه، وحزّ ذلك فى نفسى وآلمنى ألمًا شديدًا».

(٥٢)

وفى وسط حديث ذكرياته عن تلك الأيام التى ظل هاربًا فيها، والتى امتدت نحو خمسة أشهر، يروى لنا الدكتور سيد باشا كيف أنه بدأ يحس بالقلق وأن هذا القلق جعله يبدأ فى البحث عن صدى هربه عند الناس، وأنه غامر بالخروج من المنزل المختبئ فيه كى يرى الدنيا ويلتقى أهلها، وهو يجد ما توقعه من ملاحقة السلطات لأهله

ومعارفه، فينفجر، لكنه سرعان ما يتذكر فضل الله عليه فى هذه الناحية فيشير إلى أن عمله كان خالصًا لوجه الله، ومن الطريف أن نجد سيد باشا حين كتب مذكراته فى شيخوخته لايزال ملمًا بكل هذه التفاصيل:

«استأنفت نشاطى فى العمل مع يوسف وتجرأت على الخروج من المنزل فى النهار، وفى مرة ذهبت إلى منزل خالى إبراهيم وعلمت أن منزله ومنزل خالى السيد قد اقتحما للتفتيش علىّ، كما اقتحم مكتب ومنزل الشيخ مصطفى نوفل تاجر الفحم بشارع المناخ (ثروت باشا) كان يمت إلينا بصلة نسب، واعتقل ثلاثتهم بعض الزمن ليعترفوا بمكان وجودى، ولما لم يُستفد منهم بأية معلومات أخلى سبيلهم».

«وفى يوم آخر ذهبت إلى صديقى محمد حسنى عباس وعلمت منه أن منزله قد اقتحم للتفتيش علىّ و(عثروا) على صورة فوتوغرافية لى ومحمد حسنى معًا، وقد أخذ البوليس تلك الصورة، وقال محمد حسنى: «إن من المؤلم أنه كان مع البوليس أثناء التفتيش زميلنا فى مدرسة المعلمين وصديقك العزيز!!! حسين الزيات، الذى كنت تأويه ليلاً ونهارًا فى منزلك وتذاكر له دروس الرياضة التى ما كان يفهم منها شيئًا، وهو الذى دلهم على وجود هذه الصورة عندى لأنه كان رآها من قبل».

«وهكذا بُذلت كل هذه الجهود للقبض علىّ، ولكن الله حمانى وذهبت الجهود هباء، لأن الله يعلم أنى لم أكن أبغى من وراء عملى شهرة أو تظاهرًا أو ثوابًا إلا من الله، وكان عملى خالصًا لله، ولصالح وطنى بغير مقابل».

«مكثت مختبئًا بالمنزل الكائن بسكة بركة الفيل نحو خمسة أشهر، وكنت خلال هذه المدة دائم الاتصال بزملائى يوسف العبد ومحمد الطوبجى والحاج أحمد وإبراهيم موسى وأحمد عبد الحى بعد خروجه من الاعتقال لعدم وجود أدلة ضده، كما خرج المنصورى، وكنت أتابع وأشترك معهم فى الاستمرار فى عملنا لطبع جريدة «المصرى الحر»، والمنشورات، وعمليات قتل الإنجليز».

(٥٣)

ويتحدث الدكتور سيد باشا عن المحاولة الثانية للاعتداء على رئيس الوزراء محمد

سعيد باشا، وهى المحاولة المعروفة التى قام ببطولتها الطالب الأزهرى سيد على، ونحن لا نجد فى المصادر الأخرى المتاحة ما يدلنا على اكتشاف علاقة سيد باشا بهذه المحاولة:

« . . . وأثناء هذه الفترة أيضًا قررنا إعادة الاعتداء على محمد سعيد باشا لإرهابه، لاستمراره فى التعاون مع الإنجليز، وكان قد سافر مع أعضاء وزارته لقضاء الصيف فى الإسكندرية».

«وفى ليلة من ليالى شهر أغسطس كنت فى محل محمد إسماعيل أصيل، وجاء محمد خليفة أحد أفراد حلقتى ومندوبنا فى توزيع المنشورات بكفر الزيات، وكان قد جاء ليأخذ نصيب منطقته من عدد جريدة «المصرى الحر» الذى كان قد طبع أخيرًا، ولم يكن قد رآنى متخفيًا من قبل، فانتحيت معه جانبًا وأظهرت له شخصيتى وقلت له: إن عليه أن يلقى قنبلة على محمد سعيد باشا فى الإسكندرية، فوافق وقال: «سأعمل ترتيبى على أن نتقابل فى نفس المكان بعد أربعة أيام لأطلعك على ما يتم بشأن هذا الموضوع، وجاءنى فى الميعاد المحدد وقال: إنه قد تم ترتيب كل شىء، وأنه لن يكون المنفذ وإنما اختار غيره لإلقاء القنبلة، وسيكون هو معاونًا لمن اختاره لإلقاء القنبلة، ثم قال: إنه سيعود بعد أسبوع ليأخذ القنبلة، وأخذ محمد خليفة قنبلتين وألقاهما سيد على الطالب الأزهرى على سعيد باشا فى الإسكندرية فانفجرتا ولم يُصب محمد سعيد باشا، وكان هذا هو المقصود، وقبض على سيد على وحكم عليه بالسجن ١٥ عاما، وخرج بالعفو السياسى فى فبراير سنة ١٩٢٤».

(٥٤)

وعندما يصل سيد باشا إلى الحديث عن محاولة اغتيال رئيس الوزراء يوسف وهبة باشا، فإنه ينهى إلينا قرار اغتياله على يد قبطى، وكأن هذا القرار كان من البديهيات ولم يسبقه تفكير ذكى، وهو ينسب علاقة عريان يوسف سعد بهم إلى زميلهما أحمد عبد الحى كيرة، وهو ما لا يتعارض مع ما تضمنته مذكرات عريان يوسف نفسه التى لم تنشر أيضًا فى كتاب إلا بعد سنوات من وقوع هذه الحوادث.

ونقرأ فى حديث سيد باشا عن محاولة اغتيال يوسف وهبة تفصيلات أخرى عن قيام العمال والطلبة وخلاياهم المشتركة بمحاولات ناجحة لقتل الشخصيات الإنجليزية البارزة:

«وشكل الوزارة بعده يوسف وهبة باشا فقررنا الاعتداء عليه مع مراعاة أن يكون المعتدى (قبطى) ويسلم نفسه بعد الاعتداء للسلطات ليعرف أن المعتدى (قبطيًا)، وذلك خشية أن تنتهز السلطات الإنجليزية عدم ظهور المعتدى وتقول إنه مسلم وأن الاعتداء حدث نتيجة دوافع دينية، ولم نجد فى تنفيذ القرار أية صعوبة، إذ جاء أحمد عبد الحى بعد مرور يومين على اليوم الذى اتخذنا فيه ذلك القرار وأخبرنا أن عريان يوسف سعد القبطى والطالب بمدرسة الطب قدم نفسه متحمسًا ليقوم بالاعتداء على يوسف وهبة، فأخذنا نعمل الترتيبات والمراقبات اللازمة للتنفيذ، وأثناء ذلك وصلت لجنة استطلاع الرأى الإنجليزية وعلى رأسها اللورد ملنر، فقررنا اغتياله، وأحطنا الحاج أحمد جاد الله علمًا بقرارنا ليقوم فريق العمال بالتنفيذ ليكون ذلك بدءًا بتنفيذ الخطة الثانية من حركة العمال الخاصة باغتيال الشخصيات الإنجليزية، وبعد أسبوع من حديثى مع الحاج أحمد بهذا الشأن جاءنى الحاج أحمد ليقول لى إنهم بدأوا خطتهم الثانية بقتل الضابط الإنجليزى الكابتن صمويل كوهين، وكان ذلك فى أواخر شهر نوفمبر ١٩١٩، كما قال إنهم مستمرون فى تتبع اللورد ملنر، وأن الحراسة على (ملنر) قوية جدًا، وبعد نحو عشرة أيام من قتل الكابتن كوهين جاءنى الحاج أحمد أيضًا ليخبرنى أنه تم قتل الضابط الإنجليزى درنك».

(٥٥)

ويصل الدكتور سيد باشا إلى المرحلة التى تقرر فيها تهريبه للخارج، معللاً هذا القرار بما وصل إليهم من قرار محمد بدر الدين مدير الأمن العام بتكثيف الجهود للقبض عليه باعتباره المدبر الأساسى لجرائم الاغتيالات السياسية:

«وسرنا فى الإجراءات والعمليات الخاصة بالاعتداء على يوسف باشا وهبة، وأثناء سيرنا فى هذه العمليات أخبرنى يوسف أنه قد علم من المخبرين السريين الذين

قابلهم بأن محمد بدر الدين مدير الأمن العام قد وجه نداء إلى المخبرين يحثهم فيه على العمل للقبض على الطالب سيد محمد باشا بصفته متهمًا فى محاولة إلقاء قنبلة على رئيس الوزراء محمد سعيد باشا، وبصفته القائد والمدبر الأساسى لجرائم الاغتيالات السياسية، ويخبرهم بمضاعفة المكافأة التى سبق الإعلان عنها لمن يرشد عن مكان وجود سيد باشا، وعلم يوسف من المخبرين أيضًا أنه يدور الآن بينهم همس بأنه قد حددت المنطقة التى فيها المكان الذى يختبئ فيه، وأنه سيقبض عليه عما قريب».

«عندئذ استقر رأينا على ضرورة سفرى للخارج، وإلى أن تتم الإجراءات اللازمة لمغادرتى البلاد يجب أن أنتقل من المنزل الذى أختبئ فيه إلى مكان آخر».

. . . . . .

«. . . وبعد ثلاثة أيام انتقلت إلى شقة صغيرة استأجرها يوسف باسم مستعار فى منزل بدرب البندق بشارع خيرت».

. . . . . .

«. . . وكان لى زميل بمدرسة المعلمين من سكان الإسكندرية، وكنت أثق به، وهو المرحوم أحمد زكى فهمى، فأوفدنا له أحمد محمد النجار لتكليف أحمد زكى بالسفر إلى الإسكندرية لبحث الموضوع، وعاد أحمد زكى من الإسكندرية ليخبرنا بأنه قد تم الاتفاق مع ربان سفينة إيطالية لأسافر معه خفية، على أن يأخذ الربان مقابل ذلك مائة جنيه (ذهب)، وكان الجنيه الذهب يشترى وقتئذ بأربعة جنيهات (ورق)، فأرسلت إلى والدى أخبره بجميع الظروف المحيطة بى وبرغبتى فى السفر إلى الخارج لإتمام تعليمى، وللتخلص من الحال الذى أعيش عليه، كما أخبرته أنى سأكون متخفيًا أثناء السفر، وأن ربان السفينة الذى سيأخذنى معه طلب مائة جنيه (ذهب) مقابل سفرى معه، ورد والدى بالموافقة على السفر والمصاريف».

(٥٦)

ويحرص سيد باشا على أن يرينا أن الثقة بالنفس قد دفعته هو وزملاءه إلى أن يقيموا

له حفل وداع قبل سفره للخارج، وإلى أنه قام أيضًا بوداع أهله واستأذنهم فى السفر، ولا يستطيع أحد أن ينكر مدى نجاح سيد باشا فى التصوير المؤثر للخطوات التى سبقت سفره للخارج، وربما يمكننا القول بأنه لم يكن يؤدى هذه الخطوات بهذا القدر من الثقة فى ذلك الوقت، لكننا لا نستطيع على أية حال أن نمنع أنفسنا من الإعجاب بشجاعته وجسارته:

«وفى يوم ٢٠ ديسمبر ١٩١٩ يوم أن قتل الضابط اديجون، أقيمت لى حفلة وداع بشقة منزل درب البندق حضرها يوسف العبد، وأحمد كيرة، ومحمد النجار، ومحمد عثمان الطوبجى، والحاج أحمد جاد الله، وإبراهيم موسى، ومحمد فهمى على، وعلى محمد راغب حسن، وفى هذا اللقاء أخبرت الحاج أحمد بأنى عهدت للأخ يوسف العبد بمتابعة نشاط فريق العمال وتزويدهم بجميع طلباتهم، فقال الحاج أحمد: «سافر وأنت مطمئن على نشاطنا، وكما ترى قد نفذنا ثلاث عمليات فى أقل من شهر».

«وفى يوم ٢١ ديسمبر ١٩١٩ سافرت إلى كفر الشناوى لأودع أهلى، ثم فى فجر يوم ٢٢ ديسمبر قبلت يدى والدى ووالدتى واستأذنتهما فى سفرى، وقال لى والدى وهو يناولنى كيسًا به مائة جنيه (ذهب) وخمسون جنيهًا (ورقًا): «لقد قلت يوم نجاحك فى البكالوريا إن نفسك تتمم تعليمك فى أوروبا، وها هى رغبتك تتحقق بإرادة الله، فسافر على بركة الله».

«وركبت قطار الصباح من محطة السوالم إلى الإسكندرية، ورافقنى فى سفرى ابن عمتى وزوج شقيقتى المرحوم عبد المنعم إبراهيم، وعند وصولنا إلى الإسكندرية، وكنت مازلت متنكرًا فى زى شيخ وعلى عينى نظارة سوداء، كان فى انتظارى بالمحطة زميلى فى الدراسة المرحوم أحمد زكى فهمى، فلم يعرفنى إلا بعد أن سلمت عليه، ثم رافقنا أنا والمرحوم عبد المنعم إبراهيم إلى شقة لأحد أقاربه الذى كان متغيبًا فى ذلك الوقت مع عائلته فى القاهرة، أمضيت بقية اليوم والليلة مع المرحوم عبد المنعم فى الشقة وحدنا، وأحضر لنا أحمد زكى ما احتجناه من طعام، وفى الصباح جاء أحمد زكى ليوصل عبد المنعم إلى محطة الإسكندرية ليأخذ القطار عائدًا إلى محطة السوالم، وبقيت وحدى فى الشقة حتى قبل الغروب حيث جاءنى أحمد زكى ومعه بدلة ربان

(قبطان) بحرى لأرتديها عند خروجى مساء تلك الليلة من المنزل، ثم طلب المائة جنيه الذهب فأعطيته إياها، كما أعطيته عشرة جنيهات ورق ليستبدلها بنقود إيطالية».

(٥٧)

ونصل مع سيد باشا إلى الباخرة التى ستنقله إلى الجانب الآخر من المتوسط، حيث يبدأ حياة جديدة، وتحفل رواية صاحب المذكرات بما يدل على سرعة تصرفه، وعلى قدرته على انتهاز اللحظات المناسبة لإتمام خططه، كما تحفل أيضًا بقدرته على الاحتياط والاحتراز، وإن لم يخل الأمر بالقطع من عنصر الحظ المواتى:

«فى الساعة التاسعة من مساء يوم ٢٣ ديسمبر ١٩١٩ كنت أصعد سلم الباخرة «سردينيا» بلباس ربان بحرى، ويتبعنى رئيس بحارة السفينة واسمه (البرتونو سترومو) يحمل حقيبتى، وقادنى رئيس البحارة إلى غرفة ربان السفينة الحقيقى، وبت تلك الليلة فى غرفة الربان، وكانت السفينة خالية من الركاب إلا أنا والبحارة، وفى الساعة التاسعة من صباح يوم ٢٤ ديسمبر أقلعت «سردينيا» من ميناء الإسكندرية وأنا على ظهرها فى غرفة الربان، وعند الظهر جاء الربان وعرفنى بنفسه وباسمه (لويجى برسكير)، وبلغة عربية مكسرة طلب منى أن أرتدى بدلتى العادية وأتبعه ومعى حقيبتى، حيث قادنى إلى غرفة من غرف الدرجة الأولى الممتازة وقال لى: «دى كمرتك وسيب الشنطة وروح مانجريا»، وأشار إلى فمه ففهمت أن أذهب إلى صالة الطعام، وسارت السفينة فى طريقها إلى نابولى، وكنت أتفاهم مع الربان بصعوبة أو بواسطة مَنْ كان يترجم بيننا من الركاب، لأنى لم أكن أعرف كلمة واحدة من اللغة الإيطالية، وبمرور الأربعة أيام التى قضيتها على ظهر السفينة، أصبحنا أنا وألبرتو أصدقاء، وأخذت منه عنوانه حيث كان لى من وراء ذلك غرض سيظهر فيما بعد، وصلت السفينة ميناء «نابولى» فى الساعة العاشرة من مساء يوم ٢٧ ديسمبر، ورست خارج الميناء حتى الساعة السابعة والنصف من صباح يوم ٢٨، وقبل أن تتحرك السفينة للدخول فى الميناء جاءنى الربان ليقول لى: «خلاص أنا ما أعرفش، إنت، إنزل وحدك مافيش تذكرة مافيش باسبورت»، فكانت مفاجأة أرهبتنى جدًا، حيث وجدت نفسى فى موقف حرج للغاية، لكن الله هو المسلم».

(٥٨)

وليس من الشذوذ فى شىء أن نرى صاحب المذكرات غير ملم بنظام السفر، ولا بقواعده، وربما كان هذا من حسن حظه، إذ لو عرف الحقيقة لانتابه القلق الكفيل بضياع نتائج جسارته واندفاعه إلى هدفه، وربما يدلنا هذا على ما فى هذه المذكرات من صدق فنى أتاح لها قدرة على التأثير، وعلى فهم قارئها لحقائق التاريخ:

«... لم أكن أعرف شيئًا عن نظام السفر للخارج، ولا عن كيفية الحصول على تذكرة السفر، كما كنت لا أعرف متى تطلب التذكرة أو جواز السفر، كل ما كنت أعرفه أن على المسافر للخارج أن يستخرج جواز سفر من وزارة الداخلية، ولا أدرى ما هو استعمال جواز السفر، وأنا ركبت السفينة ودفعت ثمن التذكرة للربان، ولكن ليس معى جواز سفر، فما هى الإجراءات للنزول من المركب؟؟ أنا لا أدرى شيئًا، ولم يرشدنى أحد بشىء».

«رست السفينة وأنزل سلمها وأخذ الركاب ينزلون، فحملت حقيبتى فى يدى ووقفت أراقب نزول الركاب وماذا يفعلون، فلاحظت أنه عند رأس سلم السفينة يقف على جانبى السلم ضابطان بينهما مسافة تبلغ نحو مترين، ولاحظت أن النازل من السفينة يتقدم من أحد الضابطين ويناوله دفتر صغير وبعض أوراق يتصفحها الضابط ويؤشر عليها ثم يعيدها إلى الراكب، فقلت فى نفسى: هذه هى المستندات التى ليست عندى، إذًا الأمر يتطلب اندفاعًا سريعًا وحسن تصرف للخروج وسط الزحام، وانتهزت فرصة انشغال الضابطين بفحص أوراق راكبين أمامهما وتقدمت مارًا بالضابط الأول ويدى فى جيب جاكتتى الداخلى متظاهرًا بأنى أخرج أوراقى لأقدمها للضابط الثانى، وعندما وصلت إلى مكان الضابط الثانى كانت يدى نحو جيبى متظاهرًا بأنى أعيد أوراقى إلى جيبى بعد أن فحصها الضابط الأول، وبعد نصف دقيقة من هذه الحركة بعون الله كانت قدماى على أرض إيطاليا ولا سبيل إلى إعادتى إلى مصر عندئذ إلا بعد مراسلات وقرارات يطول وقتها، وهذا كل ما كنت أعرفه بالنسبة لمن يهرب من بلده إلى بلد آخر، وتطلب بلده من البلد الهارب إليها تسليمه».

«حملت حقيبتى ومشيت فى ركب الركاب إلى الجمرك، وانتهت إجراءات الجمرك بسهولة بفضل الله».

(٥٩)

ثم نأتى إلى خطوات لا يبدو أن سيد باشا قد شرع فيها من وحى اللحظة، وإنما كان قد دبر أمرها وهو لايزال فى بلاده، وقد استوحاها من قصص مماثلة قرأها أو سمعها، أو طورها على نحو كان كفيلاً له بالنجاح على نحو ما نرى:

«... والآن؟! وقد اجتزت هذه العقبة بسلام والحمد لله، فماذا أنا صانع للإقامة بإيطاليا؟ ليس عندى جواز سفر، ولا أى ورقة تثبت شخصيتى، وجاءنى الحل بسرعة، لقد نُشلت!! فقدت كل أوراقى ونقودى، وبسرعة دخلت تاكسى وقلت للسائق: «البوليس»، فاندهش السائق عند سماع كلمة «بوليس» ولم يفهم ما أقصد، وبعد عدة إشارات وحركات فهم السائق أنى أريد الذهاب لمركز بوليس، وأمام ضابط البوليس قلت بالإنجليزية إن كل أوراقى وحافظة نقودى قد نشلت منى فى ميناء نابولى، فلم يفهم الضابط شيئًا (مما) أقول، وبعد خمس دقائق حضر مترجم وترجم أقوالى وحرر محضراً وأعطانى صورة منه لأقدمها للفندق الذى سأنزل فيه حتى لا يطالبنى بجواز السفر، وكان اسمى بالمحضر: يوسف عيسى، وهو اسم الراعى الذى كان يرعى الغنم فى حقولنا فى كفر الشناوى فى ذلك الوقت، ولا أدرى لماذا لم يحضرنى إلا هذا الاسم عندما سألنى الضابط عن اسمى، ثم طلبت من المترجم أن يدلنى على فندق أنزل فيه، فقال إنه يعرف «بنسيونا» اسمه «بنسيون سانتا لوتشيا»، وهو جميل ويسهل عليك التفاهم فيه باللغة الإنجليزية، ونادى سائق التاكسى الذى كان ينتظرنى وأخبره ليوصلنى إلى «بنسيون سانتا لوتشيا»، ووصلت إلى البنسيون ورجوت صاحبته أن تدفع لسائق التاكسى أجرته وأدفعها من الحساب إن شاء الله».

«وجدت بنسيون سانتا لوتشيا مكانًا جميلاً يطل على خليج نابولى، وكان من حظى حجرة فسيحة تطل على الخليج ومؤثثة جيدًا، وبعد أن غسلت وجهى وغيرت ملابسى نزلت وأبرقت لأحمد زكى بوصولى سالمًا والحمد لله، ورجوته أن يبلغ ذلك لوالدى».

. . . . . .

(٦٠)

يبدأ سيد باشا سلسلة من مداعباته الثقيلة للسلطات الإنجليزية :

«بت ليلة هادئة وفى الصباح بدت لى فكرة، وهى أن أذهب لقنصل إنجلترا فى نابولى على سبيل المداعبة التهكمية من جهة، ومن جهة أخرى أعزز محضر البوليس بخطاب من قنصل إنجلترا بنابولى، فذهبت إلى القنصلية وطلبت مقابلة القنصل فاستقبلنى وأخبرته بأنى مصرى وتاجر أجهزة علمية وحضرت إلى إيطاليا لأعمال تخص تجارتى ولكنى نشلت فى ميناء نابولى وفقدت جواز سفرى وجميع أوراقى بما فيها أموالى، وبصفتك مسئول عن مصالح المصريين فإنى أطلب مساعدتك لى وذلك بأن تعطينى جواز سفر بعد أن تستوفى التعليمات الخاصة بذلك من مصر ثم تعطينى تصريحًا بالإقامة فى إيطاليا مؤقتًا حتى يأتى جواز سفرى من مصر، وأخيرًا تعطينى مبلغًا من المال أصرف منه حتى تأتينى نقود من مصر فأرد لك ما أخذته منك، وكنت جادًا وحاسمًا فى حديثى مع القنصل، فصدقنى واستكتبنى جميع البيانات الخاصة باستخراج جواز السفر كاسمى، وعائلتى، وتاريخ ومكان ميلادى ونحو ذلك، فكتبت له بيانات ليس فيها بيانًا واحدًا صحيحًا (يقصد: بيان واحد صحيح)، ثم قال: إنه سيكتب لمصر فورًا وسألنى عما يكفينى من النقود فقلت يكفينى (ثلاثون) جنيهًا فأعطانى إياها وكتبت له إيصالاً باستلام المبلغ على أنه سلفة، ولم ير وجهى حتى الآن».

(٦١)

وينتقل سيد باشا بعد فترة قصيرة إلى العاصمة الإيطالية قاصدًا الالتحاق بجامعتها، ويكرر ما بدأه من قبل من مغامرات محسوبة تكفل له تأمينًا لخططه، وإمتاعًا لشخصيته المغامرة التى بدأت تعيش حرية كانت محرومة منها طيلة شهور، ونحن نراه قادرًا فى ذكاء شديد على توظيف معلوماته عن الصراعات الدولية من أجل تحقيق مكاسب تكفل له العيش الآمن، وربما الرغد، بيد أننا بحاسة التمحيص لا نستطيع أن نستبعد نوعًا من العلاقة بينه وبين الأتراك كانت قد بدأت، مما مكنه من مثل هذه الحظوة، وليس لنا أن نلومه على مثل هذه العلاقة :

«مكثت بنابولى حتى آخر شهر يناير ١٩٢٠ ثم تركتها قاصداً روما لألتحق بجامعتها وأسير فى تنفيذ البرنامج الذى وضعته لنفسى، وفى روما نزلت فى فندق «النيشو» بميدان «باربيرا»، وكان ذلك بإرشاد «بورجونجينو»، وفى اليوم التالى لوصولى روما ذهبت إلى السفارة التركية بروما وقابلت السفير وأخبرته بأنى مصرى وأنى خرجت من مصر بدون جواز سفر هروبًا من السلطات الإنجليزية فى مصر التى كانت تريد القبض علىّ بحجة أنى أتزعم الطلبة فى المظاهرات، وطلبت منه أن يصدر أمرًا للقنصلية التركية بروما لتعطينى جواز سفر لأثبت شخصيتى، فوافق السفير مع اشتراط أن تكون جنسيتى فى الجواز تركية، فوافقت وأعطانى خطابًا لقنصل تركيا بروما وحصلت على جواز سفر تركى باسمى الحقيقى (سيد باشا)، وهكذا أصبح لى وجود قانونى، ثم قدمت أوراقى التى كانت وصلتنى منذ أيام قليلة من مصر للالتحاق بكلية العلوم بجامعة روما، وشرحت فى الطلب الذى قدمته ظروفى، والتحقت بكلية العلوم بجنسيتى المصرية لا بالجنسية التركية، وحسبت لى مدة الثلاث سنوات التى قضيتها فى مدرسة المعلمين العليا فى مصر فى أقدمية قيدى بجامعة روما، أى اعتبر تاريخ التحاقى بكلية العلوم بروما من أكتوبر ١٩١٦، وبناء على ذلك يكون لى الحق فى التقدم لامتحان البكالوريوس فى يوليو ١٩٢٠ حسب نظام الجامعة».

(٦٢)

وسرعان ما يستأنف سيد باشا نشاطه البارز فى الحركة الوطنية، فهو يسعى إلى لقاء عبد اللطيف المكباتى عضو الوفد، والتعاون معه من أجل خدمة القضية الوطنية:

«... كنت أعرف قبل سفرى من مصر أنه سمح للوفد المصرى بالسفر إلى باريس للسعى فى عرض قضية مصر على مؤتمر الصلح وإيضاح القضية أمام الرأى العام الدولى، وعمل الدعاية اللازمة لذلك كان الوفد قد اختار المرحوم عبد اللطيف المكباتى بك عضو الوفد وقتئذ ليمثله فى إيطاليا ويكون مركز الدعاية لقضية مصر العادلة فى روما، فسعيت حتى قابلت المكباتى بك فى أواخر فبراير ١٩٢٠، وكان يقيم فى فندق «الاكسلسيور» بشارع «فنيتو»، وهو من أفخم فنادق روما، وكان قريبًا من فندق

«النيشو» الذى نزلت فيه عندما وصلت روما، وعرفت المكباتى بك بنفسى وبقصتى، وكان يعلم موضوع اتهامى فى محاولة الاعتداء على محمد سعيد باشا مما نشرته الجرائد المصرية حينذاك، وقلت له: إنى على أتم استعداد للقيام بما يكلفنى به فى خدمة مصر والقضية المصرية».

(٦٣)

وعلى الرغم من كل هذه السعادة بالنجاحات الفدائية المتوالية، فإن سيد باشا يحرص على مزج هذا الشعور الجميل بالألم من تصرفات أحد المصريين الذين زعموا لأنفسهم دوراً لم يحدث، متجنين بذلك على الأبطال الحقيقيين على حد إيحاء سيد باشا فى مذكراته:

«... ولم يقتصر اتصالى بزميلى يوسف العبد على مجرد تبادل المراسلات واستلام المسدسات والذخيرة، بل تعداه إلى تيسير عمليات أخرى، منها على سبيل المثال أن أحد الذين كانوا قد اتهموا فى القضية السياسية المعروفة باسم قضية عبد الرحمن فهمى بك الطالب بالحقوق، كامل أحمد ثابت، والذى تمكن من الإفلات من القبض عليه، فأرسل لى يوسف أن أعمل على تيسير سفر (كامل) إلى إيطاليا، فطلبت من يوسف أن يرسل لى جواز السفر الخاص بيوسف وصورتين لكامل أحمد ثابت، وعند وصول جواز سفر يوسف وصورتى كامل ذهبت إلى أحد محلات الزنكوغراف وعملت أختامًا كالأختام التى كانت موجودة على جواز سفر يوسف العبد، ثم نزعت صورة يوسف من جواز سفره ووضعت بدلها صورة كامل أحمد ثابت وختمت الجواز بالأختام التى صنعها محل الزنكوغراف وأعدت الجواز إلى يوسف، وحضر كامل أحمد ثابت إلى روما والتحق بجامعتها وأتم دراسته بها وعاد إلى مصر عندما أمكنه العودة، وعين بالقضاء فى مصر وتدرج فيه حتى وصل إلى مركز رئيس محكمة، وكانت مكافأته لنا أن ادعى أنه كان رئيس جماعة فدائية فى ثورة ١٩١٩ تدعى «جماعة اليد السوداء» ونسب لنفسه ولجماعته أعمالاً خيالية، إذ لا يمكن إجراؤها، ولا صحة لأى شىء منها.

(٦٤)

ويبدى سيد باشا ألمه العميق من أن زميله وصديقه أحمد عبد الحى كيرة لم يقم معه فى إيطاليا وانتقل إلى ألمانيا، ثم تركيا، حيث اغتالته المخابرات الإنجليزية:

«... وكما فعلت لكامل ثابت فعلته أيضًا لزميلنا أحمد عبد الحى كيرة عندما اتهم بالاشتراك فى مؤامرة لإلقاء قنبلة على رئيس الوزراء عبد الخالق ثروت باشا فى يناير ١٩٢٢، وكلف البوليس بالقبض عليه واختفى فى مصر وظهر فى روما التى وصلها بجواز سفر مزور».

«وكان المفروض أن يبقى أحمد عبد الحى كيرة معى فى إيطاليا ليتم دراسة الطب بها بجامعة روما، وأعددت كل شىء لإلحاقه بجامعة روما لكنه عدل وفضل أن يتم دراسته فى جامعة برلين بألمانيا، وبعد أن مكث معى فى إيطاليا نحو شهرين سافر إلى ألمانيا وكان يراسلنى من آن لآخر، وبعد شهرين من إقامته فى برلين أرسل إلىّ ليقول إنه سيسافر إلى تركيا ويتم دراسته فى (إسطنبول) وسافر إلى تركيا وأخذ يراسلنى مدة ثم انقطعت أخباره عنى حتى عدت إلى مصر فأرسل إلىّ خطابًا عرفنى بمكان وجوده وظل اتصاله بى إلى أن اغتالته المخابرات الإنجليزية فى (إسطنبول)».

(٦٥)

ويصل اعتداد الدكتور سيد باشا بنفسه وبنشاطه فى خدمة الحركة الوطنية إلى أن يروى أنه سافر من روما إلى باريس كيما يطمئن زعيم الأمة على أن جهود الفدائيين ستتكفل له بموقف أقوى مما قد يسفر عنه مؤتمر الصلح، ونحن نرى سعد زغلول فى رواية سيد باشا زعيمًا حقيقيًا قادرًا على المتابعة والنقد والتحليل، ملمًا بالخيوط، وقادرًا على استيعاب العلاقات، وعلى السؤال الجيد:

«... قررت أن أسافر إلى باريس لأقابل سعد باشا وأهون عليه باطلاعه على برنامجنا نحن الفدائيين، وأوضح له أن برنامجنا هذا الذى رسمناه ونسير فى تنفيذه سيكون خيرًا لنا مما كنا نرجوه من مؤتمر الصلح، فضلاً عن أنه مظهر من مظاهر اعتمادنا

على أنفسنا، وفى أواخر أبريل سنة ١٩٢٠ سافرت إلى باريس دون أن أعلم عبد اللطيف المكباتى بك بسفرى».

«وفى باريس قابلت سعد باشا مع كل مَنْ كان يقابلهم من الطلبة المصريين الذين كانوا يدرسون فى فرنسا، وعندما رآنى سعد باشا قال: «أهلا بالمناكف»، كان هذا هو لقبى عنده، «أنت جاى تدرس هنا؟»، قلت: «لا يا سعادة الباشا، أنا أدرس فى إيطاليا، وإنما جئت لزيارة معاليك»، وجلسنا جميعًا نتحدث معتزمًا أن أحاول البقاء معه وحدنا وشعرت بأن لديه نفس الاتجاه، وانصرف مَنْ كانوا معى من الطلبة واحدًا بعد الآخر وبقيت أنا بحجة أنى أريد أن أسعد بالحديث مع الباشا بعض الوقت لأنى سأعود غدًا إلى إيطاليا».

«وعندما أصبحنا وحدنا قال لى سعد باشا: «إيه اللى جابك إيطاليا؟»، قلت: «جئت هاربًا من القبض علىّ لاتهامى بالاشتراك فى محاولة لإلقاء قنبلة على رئيس الوزراء محمد سعيد باشا فى شهر يونيو الماضى»، فقال سعد باشا: «لقد سمعت هذا وأذكر أنى قرأت فى إحدى الجرائد المصرية إعلانًا بمكافأة لمن يرشد عن مكان وجودك والقبض عليك»، فقلت: «نعم هذا حصل»، فقال سعد باشا: «وما هى حكاية القنابل التى يتهمونك بها؟»، قلت: «الواقع أن الحكاية لها أصل، وقد جئت لأطلع سعادتك على أصلها وفصلها لأهون على سعادتك خيبة الأمل التى صدمنا بها مؤتمر الصلح يقفل بابه فى وجوهنا، ولأؤكد لمعاليكم أن نتيجة عملنا سيكون أثرها أفعل مما كنا ننتظره من مؤتمر الصلح، والحكاية هى أنى واثنين من زملائى الطلبة هما يوسف السيد العبد، وأحمد عبد الحى كيرة اتفقنا على أن نكون نواة تعمل بهدف إرهاب الإنجليز المقيمين بمصر وإشعارهم بعدم الأمن على حياتهم، وذلك بإطلاق الرصاص على الشخصيات الإنجليزية المقيمين بمصر وقتلهم، وكذلك قتل (مَنْ) يمكن قتله من الجنود وصغار الضباط الإنجليز، ويهدف عملنا أيضًا إلى إرهاب مَنْ يتعاون من المصرين مع الإنجليز وذلك بإلقاء القنابل عليهم للإرهاب وليس للقتل».

«وبدأنا بتكوين فريق من الطلبة بقيادة أحمد عبد الحى كيرة لإلقاء القنابل على المصريين المتعاونين مع الإنجليز، وقد صنعت أنا هذه القنابل وفريق آخر من العمال

بقيادتى لقتل الإنجليز بوسيلتين، الوسيلة الأولى هى استدراج (مَنْ) يمكن استدراجه من الجنود وصغار الضباط الإنجليز من الأماكن التى يرتادونها للسكر والعربدة وأخذهم إلى الأماكن المظلمة فى أحياء القاهرة كحى الدراسة بالحسين، وحى الحوض المرصود بالسيدة زينب ثم قتلهم».

«أما الوسيلة الثانية لقتل الشخصيات الإنجليزية فهى تعقب مَنْ نرى تعقبه من كبار الضباط الإنجليز أو كبار الموظفين الإنجليز ثم يطلق عليه الرصاص بقصد قتله».

«وقد قمنا حتى الآن بإلقاء القنابل على خمسة من رؤساء الوزارة والوزراء المصريين، كما قمنا بقتل أربعة من الشخصيات الإنجليزية، أما قتل صغار الضباط والجنود الإنجليز فيسير بمعدل ثلاثة أو أربعة أشخاص فى الأسبوع».

«فقال سعد باشا: «وهل أنت على صلة بزملائك الآن؟»، فقتل: «أنا دائم الاتصال بهم وأراسلهم أسبوعيًا وأرسل لهم ما يطلبونه لحاجتهم إليه من المسدسات والذخيرة عن طريق رئيس بحارة السفينة الإيطالية التى هربت عليها من مصر»، فقال سعد باشا: «الحقيقة أنى كنت أتوسم فيك من مناقشاتك ومناكفتك معى أنك عندك استعداد وقادر على أن تقوم بأعمال جدية»، ثم ابتسم سعد باشا وقال: «وأنا أنفع فى فريق الطلبة ولا فريق العمال؟»، فقلت: «سعادتك رئيس الكل ياباشا»، فقال: «وأنا أعتز بهذه الرئاسة التى يجب ألا يعلمها إلا أنا وأنتم»، ثم قال: «الحقيقة أنى كنت أفكر فى تنظيم مثل هذا العمل، وأنا مسرور جدًا لأنكم تنفذونه لأن هذا العمل هو الذى سيسندنى فى نضالى ضد الإنجليز»، ثم قال: «ومَنْ يمولكم؟»، قلت: «للآن نحن تقريبًا نمول أنفسنا بأنفسنا، وقد أخذت بعض التمويل من عبد اللطيف الصوفانى بك، وهو يقول إن ما نأخذه منه هو من مال الوفد، كما أننا نأخذ أيضًا بعض تمويل على حساب أنه لطبع المنشورات من الأستاذ محمود فهمى النقراشى»، فقال سعد باشا: «يجب أن تكون أموال الوفد كلها تحت تصرفكم لأن عملكم هذا هو عماد الثورة، وأنا أعتبر عملكم هذا هو عكازى الذى أستند عليه فى نضالى مع الإنجليز، وهو الحائط الذى يقوى ظهرى وأنا أواجه مَنْ يقولون بأن روح الحماس الوطنى قد فترت لشدة ضغط الإنجليز وكثرة تنكيلهم بالوطنيين».

(٦٦)

وبعد أن يفرغ سيد باشا من رواية هذا اللقاء والحوار الكاشف بينه وبين زعيم الأمة، نراه يضطر نفسه كى يقدم بعض التفسيرات المباشرة، وكأنما لم يكفه الإيحاء البارع الذى تمكن منه، وليس من شك فى أن هذا السلوك يعبر عن شخص مخلص لفكرته، لكنه لا يؤمن بالفن وأثره فى توصيلها، فإذا هو يلجأ إلى التصريح الفج بعد أن نجح بالفعل فى توظيف التلميح الذكى، وربما أنقص التصريح الفج من قيمة ما كونه بالتلميح الذكى.

ونحن نرى سيد باشا يؤكد على هذا المعنى من خلال إثباته أو نقله لفقرة فى مذكرات سعد باشا توحى بوضوح بعلاقته المباشرة بالفدائيين:

«. . . أى أن حرص سعد باشا على بقاء صلته بالفدائيين سرًا لم يكن جبنًا منه وعدم رضاه عن حركتهم، وإنما كان ردًا طبيعيًا على المحاولات الدائبة التى كانت تحاولها السلطات الإنجليزية فى مصر لإقناع الرأى العام الإنجليزى والحكومة الإنجليزية بأن سعد باشا رجل إرهابى وليس بسياسى، وسأذكر فيما بعد واقعة حال لذلك».

«على أنه بالرغم من حرص سعد باشا على تكتم صلته بالفدائيين لم يتمالك إلا أن يشير إلى هذه العلاقة ولو من طرف خفى، وقد جاء ذلك عندما دون فى مذكراته مناجاته للعامل الفدائى محمد فهمى على عندما بلغه (سعد باشا) نبأ الحكم على محمد على فهمى بالإعدام فى القضية التى سموها بقضية الاغتيالات السياسية، تلك المناجاة التى تدل على أن سعد باشا كان يعرف مَنْ هو محمد فهمى على، وما كان عمله، وأن عمله كان موضع تقدير سعد باشا ورضاه، بل واعتزازه، وسيأتى ذكر ما قاله سعد باشا مناجيًا محمد فهمى على».

. . . . . .

«عدت إلى روما فى اليوم التالى لمقابلتى لسعد باشا، وبمجرد عودتى أرسلت إلى الأخ يوسف العبد خطابًا مع «نوسترومو» أخبرته فيه بمقابلتى لسعد باشا وباهتمامه بحركتنا، ورجوته أن يبلغ تحياتى للحاج أحمد جاد الله، ورجائى له بتنشيط العمل».

(٦٧)

وفى موضع آخر من مذكراته يشير سيد محمد باشا إلى لقائه بسعد زغلول فى باريس فيقول:

«وسافرت إلى باريس وقابلت سعد باشا مع التحفظ بألا تثير مقابلتى له اهتمام أى أحد، وأخبرته بما كان من أمر الخديو وأحاديثى معه وسألته عن رأيه فيما يعرضه الخديو، فقال: أريد أن أعرف رأيك أولاً، فقلت له: إنى أعتقد أنه منافق ويريد أن يسخرنا لمصلحته، فقال: وأنا أؤمن على هذا الرأى، وعلى العموم فقد استفدنا من أحاديثه معك تفسيراً لتردد الأمير عمر طوسون ومَنْ معه من الأمراء فى التجاوب معنا ونحن لا يهمنا هؤلاء جميعًا، والمهم عندنا هى مصر، ومصر فقط، ثم سألنى عما إذا كنت لازلت متصلاً بزملائى فى مصر؟ فقلت له: إن كل شىء يسير وفق الخطة ونشاطنا يتزايد، فقال: عفارم، قواكم الله، إن مقابلاتك لى تريح أعصابى كثيراً، ثم عدت إلى روما».

(٦٨)

وقد لا يدهشنا فى مذكرات سيد محمد باشا حرصه الشديد على الولاء لسعد زغلول وزعامته، وهو يدافع عن سعد دفاعًا حاراً ضد الاتهامات التى كالها له مَنْ خرجوا عليه:

«. . . لأرد بما عندى من معلومات على ما قالوا إن هؤلاء الخارجين على الوفد إنما خرجوا احتجاجًا على أنانية سعد باشا وحرصه على الرئاسة، وأن ينسب أى فخر أو خير تناله مصر إلى شخصه، وأن سلوك سعد باشا هذا كان مسببًا فى انشقاق الشعب وتعدد الأحزاب فيه، ويعلم الله أن سعد باشا برىء من كل هذه التهم، وأنه كان شديد الحرص على وحدة الوفد ووحدة الشعب واستقلاله وانتزاع هذا الاستقلال من أيدى الإنجليز، وبقدر حرصه على كل ذلك كان يدرك ويقدر الصعاب التى سيلاقيها فى سبيل تحقيق ذلك، والنضال والجهد (اللازمين) للوصول إلى هذه الغاية والأناة والصبر الذى يجب أن يتذرع به حتى النهاية، كما كان يدرك فى الوقت نفسه أن كثيراً من

أعضاء الوفد الذين يعملون معه لا يقوون على النضال ولا يحتملون الصبر ولا يثقون بقوة روح الشعب، بل إن منهم مَنّ اشترك فى الوفد أملاً فى الوصول إلى مراكز الحكم، حيث كانوا يعتقدون أن النضال لن يطول وأن الإنجليز قد يتكرمون بإعطاء شىء ما، وأى شىء فهو مقبول منهم، وينصحون الشعب بقبوله لأن إنجلترا قوية ولا قبل لأحد بمعاداتها، لكن سعد باشا كان يحايلهم ويحتال عليهم للبقاء معه كمظهر لوحدة الأمة حتى تنال مطالبها، وقد كلف ذلك سعد باشا جهداً كبيراً».

«ومن ثم فإنه عندما أعد اللورد ملنر فى أغسطس ١٩٢٠ كحل لقضية مصر، هذا المشروع الذى لم يكن إلا تقنينا لحماية إنجلترا على مصر، وقدمه لوفد مصر المفاوض، قبلته أغلبية كبيرة من وفد مصر المفاوض ورفضه بشدة سعد باشا وعدد قليل جداً من الأعضاء معه».

(٦٩)

وتنطق مذكرات سيد محمد باشا بحب سعد زغلول وتقديره، والتماس المعاذير له فيما كان جيل الشباب الفدائيين يأخذه عليه، وعلى سبيل المثال فإنه يحكى قصة لقائه هو وزميله يوسف العبد مع سعد باشا وتعجبهما من أن يثنى سعد على توفيق نسيم الذى لم يطلب الرأفة لزميلهما إبراهيم مسعود مع أن مثل هذا الطلب كان فى وسعه:

«... وفى (أحد) الاجتماعات، وكان بنادى (سيروس)، خطب سعد باشا وقال فى خطبته: إن توفيق نسيم باشا يستحق تقدير الوطن. كان نسيم باشا فى ذلك الوقت رئيساً للوزارة، كما كان رئيساً لها فيما سبق، واعتدى عليه الفدائى إبراهيم مسعود وحوكم وحكم عليه بالإعدام لأن نسيم باشا لما سمعت شهادته أثناء المحاكمة باعتباره مجنيا عليه لم يطلب الرأفة بإبراهيم مسعود مراعاة لأنه فعل هذا بعامل الحماس الوطنى كما طلب غيره ممن اعتدى عليهم، وضايقنى كما ضايق يوسف ما قاله سعد باشا بالنسبة لنسيم باشا، وفى اليوم التالى قابلنا أنا ويوسف سعد باشا فى منزله وقلنا له إن تقديره لنسيم باشا يعنى التنديد بالفدائيين واستنكار أعمالهم، بل وتنصلاً منهم، فقال: يا أولادى أنتم فدائيون ولستم سياسيين، وأعترف لكم بأنكم وأعمالكم موضع

تقديرى، بل إنى فى نضالى لا أعتمد بعد الله إلا على أعمالكم، وما قلته هو تعبير بلغة السياسة وليس بلغة الحقيقة».

(٧٠)

ويتحدث سيد باشا بزهو معقول عما استطاع تحقيقه من مكانة فى إيطاليا، وكيف وظف هذه المكانة المتميزة من أجل قضية مصر الوطنية، وهو يصل إلى الاعتراف الصريح بأنه كانت تربطه علاقة مباشرة بموسولينى رئيس تحرير جريدة «البوبو دى إيطاليا» وقبل أن يصبح زعيم حزب الفاشيست، ثم رئيس الحكومة الإيطالية:

«. . . لست مبالغًا إذا قلت إنه بعد عشرة شهور من إقامتى فى إيطاليا كانت الصحف الإيطالية تنشر لى ما أقدمه لها من مقالات حتى بغير توقيع، للدلالة على أن المكتوب هو من تحرير الجريدة نفسه».

«وبهذه الحيلة حصلت على ما أريده بنجاح منقطع النظير، وإنصافًا لنفسى يمكننى أن أقول إنى تبرعت لخدمة وطنى وقضية وطنى بمبالغ كبيرة لمدة ثلاث سنوات كان من حقى الحصول على هذه المبالغ مقابل الوقت والجهد الذى أبذله فى الترجمة، ولكنى تنازلت عنها، وبتنازلى عنها تحولت إلى معنى أدبى ذى قيمة كبيرة جدًا أخذت مقابلاً لها تيسيرًا وتنشيطًا وتقوية للدعاية لمصرنا العزيزة، ويتمثل ذلك فى أنى ما كنت أقدم لأية صحيفة من الصحف التى أترجم لها شيئًا عن مصر وتتردد فى نشره، وأكثر من هذا كما ذكرت سابقًا، فإنى كنت أنشر ما أريد نشره عن مصر بدون توقيع منى، وهذا كان يعنى أن المكتوب هو رأى الجريدة، وما أحسب أحدًا يجهل ثقل هذا العبء على الجريدة الناشرة. أما وقع ذلك على القارئ فيكون أفعل، والاقتناع به مضمون، إذ الملاحظ أن القارئ إذا ما شعر أن الكاتب إنما يكتب ليدافع عن شىء يهمه يتحفظ فى صدق ما يقرأ ولا يقتنع بسهولة، ولما كان غرضى الدعاية لمصر وليس إظهار نفسى والسعى إلى الشهرة، فقد اتبعت هذا الأسلوب النافع، وبهذا الأسلوب وبتلك السياسة نلت مكانة حسنة، وتقديرًا كبيرًا فى الوسط الصحفى الإيطالى، وقبلت عضوًا فى نقابة الصحفيين الإيطالية، وعضوًا فى جمعية الشرق الحديث التى كانت تصدر

مجلة باسمها تروى فيها أخبار الشرق، ودراسات مستفيضة عنه، كما تعرفت وصادفت شخصيات بارزة فى مختلف المجالات».

(٧١)

وبعد هذه الأضواء المضيئة لطبيعة نشاطه فى المنفى، وبخاصة فى إيطاليا، نراه يقدم ما يشبه كشف حساب عن إنجازاته فى فترة المنفى ودراسته:

«... بفضل جهودى قد سمع صوت مصر ونجحت الدعاية لقضيتها فى إيطاليا وفى بعض الأحيان خارجها نجاحًا مثمرًا، كانت له نتائج إيجابية فى الأوساط السياسية، ويستدل على ذلك من الحقائق والقصص الآتية:

«١ ـ أثناء الحروب وأعمال المقاومة التى كانت دائرة بين إيطاليا وطرابلس ١٩١٢ كان قد فرّ إلى ليبيا بعض ضباط السواحل المصريين لمعاونة الطرابلسيين، وكان من بين هؤلاء الضباط الضابطان: أحمد منصور، ومحمد محمدى، وأقام هذان الضابطان مدة فى طرابلس ثم اعتقلا ونقلا إلى إيطاليا، ثم أفرج عنهما وتركا أحرارًا فى إيطاليا».

«وفى سنة ١٩٢٠ طلبت الحكومة المصرية من الحكومة الإيطالية تسليمهما لمحاكمتهما بتهمة الهروب من عملهما العسكرى، ووافقت الحكومة الإيطالية وأُركبا السفينة من «برنديزى» وكانا فى طريقهما إلى مصر، وعلمت أنا بالخبر بعد أن أقلعت السفينة من «برنديزى» بقليل، فاتصلت فورًا ببعض النواب الذين كنت أعرفهم واستعنت بهم على إقناع رئيس الحكومة الإيطالية وقتئذ السينيور جولتى ليعدل عن قرار تسليمهما، وتم ذلك، وأبرق للسفينة بالعودة بهما وإنزالهما فى «برنديزى» ونجا الضابطان من المحاكمة وعادا إلى مصر بعد أن تقرر العفو عنهما».

«٢ ـ عندما سافر الوفد المصرى إلى لندن لمفاوضة لجنة لورد ملنر فى يونيو ١٩٢٠، استدعى الوفد عبد اللطيف المكباتى مندوبه فى روما إلى لندن، وترك المكباتى لنا أنا وديكو لالتو مهمة القيام بعمله فى إيطاليا أثناء غيابه، وكان يراسلنى بكل ما يجرى من أمر المفاوضة فى لندن، وأثناء غياب المكباتى عرضت معاهدة الصلح التى تمت فى مؤتمر

فرساى على البرلمان الإيطالى لإقرارها، وكان معلومًا لنا أن بتلك المعاهدة بند ينص على أن تقر الدول المشتركة فى مؤتمر فرساى، ومن بينها إيطاليا، حماية إنجلترا على مصر، فأرسلت إلى المكباتى أخبره بأنى سأوجه للبرلمان الإيطالى نداء باسم الوفد المصرى أناشد البرلمان فيه بألا يوافق على هذا البند الذى لا ترضاه مصر ولم يؤخذ رأيها فيه، وقلت للمكباتى: إن عندى أملا كبيرا فى أن يستجيب البرلمان لندائنا، وجاءنى رد المكباتى يقول: إن سعد باشا يعرفك جيدًا ويثق فيك، لكنه لا يرى داعيًا لتوجيه هذا النداء فى الوقت الحاضر الذى نتفاوض فيه مع الإنجليز ونريد أن نهيئ جو مسالمة بيننا وبينهم، فضلاً عن أن سعد باشا ليس عنده أى أمل فى أن يعير البرلمان الإيطالى نداءنا أى اهتمام، ولم أقتنع بوجهة نظر سعد باشا، إذ كان رأيى أن الشوشرة على الإنجليز أثناء المفاوضات أجدى من مسالمتهم، ولذلك وجهت النداء باسمى وبصفتى رئيس جمعية الطلبة المصريين فى إيطاليا، وعملت دعاية قوية بين أعضاء مجلس النواب الإيطالى للاهتمام بندائى، وكان من نتيجة هذه الدعاية أن أقر البرلمان الإيطالى معاهدة فرساى مع التحفظ بعدم الموافقة على البند الخاص بإقرار حماية إنجلترا على مصر، وأرسلت نسخة من مضبطة جلسة مجلس النواب الإيطالى التى نظرت بها المعاهدة إلى المكباتى بك بلندن، فجاءتنى برقية من سعد باشا نفسه يثنى فيها علىّ وعلى جهودى ويقول فيها: «لقد كان الشاب أبعد نظرًا من الشيخ».

(٧٢)

ويقطع سيد باشا تسلسل الرواية ليتحدث عن أسفه لحرمانه مما كان يستحقه من إشادة بجهوده الناجحة إذا ما قورنت بجهود محمد محمود باشا (فى أمريكا) التى لقيت كثيرًا من التقدير:

«وهنا أقف قليلاً لأعبر بشعورى بالأسف الذى يؤلمنى لعدم التقدير وعدم الاهتمام بالأعمال التى يقوم بها أشخاص (ذوو) مراكز صغيرة مثلى، فعندما نجحت دعاية المرحوم محمد محمود باشا فى أمريكا ولم يوافق الكونجرس الأمريكى على حماية إنجلترا على مصر، كتبت الجرائد عن هذا النجاح وهللت له كثيرًا، ولما نجحت دعاية

سيد باشا فى إيطاليا ولم يوافق البرلمان الإيطالى على حماية إنجلترا على مصر لم يشر أحد إلى هذا النجاح بكلمة صغيرة، ولو من قبيل اهتمام الناس فى مصر بالأمر نفسه».

«أما مَنْ اهتم بهذا النجاح وانزعج منه فهى السفارة الإنجليزية فى روما، وتجلى انزعاجها فى البحث عمن يكون وراء الدعاية التى جعلت البرلمان الإيطالى لا يوافق على حماية إنجلترا على مصر، ولما عرفت أنه الطالب سيد باشا أرسلت إلىّ القنصلية الإنجليزية فى روما وهى فى ثورة الغضب عليه خطابًا مسجلاً تقول فيه إن السلطات العسكرية فى مصر (وهى طبعًا فى ذلك الوقت إنجليزية) أصدرت قرارًا بإبعادى عن مصر وعدم السماح لى بدخول مصر أو إنجلترا، وقد أفادنى هذا القرار، إذ أنه يعنى أنى قد أصبحت فى حكم القانون مبعدًا لا هاربًا، ولذلك لما صدر القرار بعودة المبعدين السياسيين إلى مصر، عدت معهم باعتبارى كنت مبعدًا، فشكرًا لسفارة إنجلترا فى روما».

. . . . . .

«. . . وفى مرة تحدث مستر لويد جورج رئيس الوزارة الإنجليزية فى ذلك الوقت أمام البرلمان الإنجليزى عن مسألة مطالبة أيرلندا باستقلالها، وقال رئيس الوزراء فى حديثه: إنه كيف تطلب أيرلندا الانفصال عن إنجلترا بعد مائة سنة من الاتصال؟ فعلقت على حديث رئيس الوزراء الإنجليزى فى مقال أرسلته لجريدة «شيكاجو تريبون» وبينت فى تعليقى ما يصيبنا من وجود الإنجليز فى مصر، وناشدت المصريين بأن ينشطوا بكل ما يستطيعون من قوة لمقاومة الإنجليز وطردهم من مصر قبل أن يسرى علينا قانون التقادم، ونشرت الجريدة مقالى وتعليقى على حديث لويد جورج فى صفحتها الأولى تحت «مانشيت يتوج جميع أعمدة صفحتها الأولى» تقول فيه: «مصرى يعلق على حديث لويد جورج تعليقًا مفحمًا»، وكان لهذا المقال اهتمام كبير فى الدوائر السياسية».

(٧٣)

ويذكر سيد باشا بالامتنان لقاءه بعلى الشمسى حين زار روما فى صيف عام ١٩٢٢

للدعاية للقضية المصرية وكيف أبدى على الشمسى تقديره لجهد صاحب المذكرات وعجبه من أن يقوم عدد قليل جدًا بكل هذا النشاط :

« . . . جاء على الشمسى إلى روما فى صيف ١٩٢٢ ليقوم بعمل دعاية سياسية لقضية مصر فى إيطاليا ، واتصل ببعض رجال الصحافة الإيطاليين عن طريق صديق له بروما يدعى الكونت لوشدى ، حيث لم يكن الشمسى يعرفنى أو يعلم بوجودى فى روما ، وفى سبيل مهمته أقام مأدبة فى فندق «اكسلسيور» لرجال الصحافة الإيطاليين ، ومن الأحاديث التى جرت بين الشمسى والصحفيين أثناء المأدبة سمع الشمسى اسمى ونشاطى السياسى فى إيطاليا يتردد على ألسنة الضيوف بالثناء والتقدير والاحترام ، وعرف عنوانى من أحد المدعووين وزارنى فى منزلى المتواضع وعرفنى بنفسه ومهمته ، فرحبت به وأبديت له استعدادنا أنا وإخوانى الطلبة لمعاونته والقيام بأى عمل يكلفنا به لخدمة بلادنا ، وأخبرته بأنى وإخوانى نعمل لنفس الغرض الذى أتى هو إلى إيطاليا من أجله ، وأن سعد باشا يعرفنى شخصيًا ويعرف عملى أنا وإخوانى هنا ، فقال : لقد عرفت عملكم وشعرت به من أحاديثى مع الإيطاليين الذين قابلتهم ، ولكن ما عددكم هنا؟ قلت : نحن ثلاثة لأن رابعنا عاد إلى مصر ، فقال : لكن هذا العدد قليل جدًا ، فرددت على الفور :

تعيرنا أنا قليل عديدنا فقلت لها إن الكرام قليل

«فقال : لا أقصد أن أعيركم ، ولكنى شعرت بأن عملكم كبير فقلت : هذا من فضل الله علينا ، فقال : على كل حال إنى قد اطمأنيت على الدعاية لقضيتنا فى إيطاليا ، وسأخبر إخوانى فى مصر بذلك ، ثم قال : وإنى باسم الوفد سأعتبرك ممثلاً لنشاط الوفد فى إيطاليا ، فقلت له : أما عن الدعاية لمصر وقضيتها فنحن نعمل لذلك بقدر استطاعتنا والله ولى التوفيق ، وأما فيما يتعلق باعتبارى ممثلاً لنشاط الوفد هنا فأرجو أن تعفينى من التشرف بهذا التكليف ، وحسبى أن أكون مصريًا أعمل لمصر ، وسعد باشا نفسه يعلم ذلك ، وسافر على الشمسى وتابعت عملى وبرنامجى» .

(٧٤)

ونأتى إلى إحدى الوقائع المهمة فى تاريخ صاحب المذكرات ، وهى واقعة اتصاله

بالخديو السابق عباس حلمى، وما جره هذا الاتصال عليه من مشكلات وما سببه له من متاعب، وذلك على الرغم من حرصه على أن يظهر مدى سطحية هذه العلاقة كما سنرى فيما يرويه، والواقع أن أى علاقة لأى أحد بالخديو عباس كانت بمثابة خميرة عكننة للملك فؤاد، وبخاصة فى ظل وجود عدد لا يستهان به من العملاء المزدوجين الذين كانوا يفيدون من تأجيج الأزمة من حين لآخر، وترينا رواية سيد باشا بعدا مهما فيما يتعلق بأدوار رجال السياسة الذين لعبوا على أوتار هذه القصة:

«كان الخديو عباس حلمى الثانى يقيم فى إيطاليا أثناء وجودى بها، ولم أكن أعرف مكانه، كما لم يكن لى حاجة أو رغبة فى مقابلته، إلا أنه فى أحد الأيام وأذكر أن ذلك فى أواخر ديسمبر ١٩٢٠، جاءنى فى منزلى رجل عرفنى بنفسه قائلا: إنه محمد توفيق فاضل سكرتير خاص سمو الخديو عباس حلمى الثانى خديو مصر سابقًا، وأنه موفد من قبل الخديو ليقول لى إن الخديو يرغب فى مقابلتى له، وهو يقيم بفندق «بالاس» بشارع «فينتو»، فحددت له موعدًا أذهب فيه لمقابلة سمو الخديو، وذهبت فى الموعد المحدد واستقبلنى الخديو استقبالاً حسنًا، وقال: إنه يسره أن يرى شابًا مصريًا مثلى حيث سمع من بعض رجال السياسة والصحافة الإيطاليين ثناء طيبًا عنى وعن نشاطى فى الدعاية لمصر، وتحدثنا أنا والخديو نحو ساعة عن مصر وما يجرى فيها، وعن أعمال الإنجليز فى مصر وما ناله منها، وفى نهاية الجلسة طلب منى الخديو أن أزوره بعد أسبوع، وذهبت إليه بعد مرور الأسبوع وأثناء وجودى معه حضر رجلان عرفنى الخديو أنهما أحمد بك لطفى رئيس الحزب الوطنى فى ذلك الوقت، والأمير عزيز حسن، وسلما على الخديو بالانحناء وتقبيل يده، لكننى ما فعلت ذلك أبدًا، بل كان سلامى للخديو دائمًا عاديًا، وأبقانى الخديو معه أكثر من ساعة وعند قيامى أعطانى ٣٠٠٠ ليرة إيطالية (تعادل فى ذلك الوقت ٣٠ جنيهًا مصريًا تقريبًا)، وقال: إن هذا المبلغ مساعدة منه لجمعيتنا لإصدار نشرتها، فأخذتها وشكرته، ثم دعانى للتردد عليه فى الأوقات التى تناسبنى، ولعله ظن أنه قد اشترانى بهذه المنحة، ولكن خاب ظنه».

«ثم زرت الخديو بعد ذلك فى روما عدة مرات وكانت أحاديثه معى فى المرات التى قابلته فيها تدور حول أنه يحب مصر حبًا شديدًا، وأنه كان يعمل بإخلاص لصالحها،

ولكن بعض المصريين، ومنهم بعض الأمراء وعلى رأسهم الأمير عمر طوسون، كانوا يعاونون الإنجليز على مضايقته وإحباط الخطط التى كان يرسمها لصالح مصر، وقال: إنه علم أن الأمير عمر طوسون ومَنْ معه من الأمراء يؤيدون رجال الحزب الوطنى ويمدونهم بالأموال لمناهضة سعد باشا والوفد بأمل أن يستفيدوا (الأمراء) من ثورة مصر ليتولى أحدهم الحكم فيها، لأن هؤلاء الأمراء يقولون إنهم أحق منى (الخديو) بحكم مصر لأنهم من سلالة محمد على، أما أنا (الخديو) فمن سلالة إبراهيم باشا الذى هو ابن زوجة محمد على وليس ابن محمد على، وقال: إن على كامل فهمى شقيق الزعيم مصطفى كامل قد زاره من بضعة أيام وأكد له ذلك، ثم طلب منه مبلغ ١٠ آلاف جنيه ليقوم رجال الحزب الوطنى فى مصر وخارجها بالدعاية لصالح الخديو، فاستكثر الخديو هذا المبلغ وقال له: إنه بهذا المبلغ يمكنه أن يشترى أى بلد عربى».

«ثم قال الخديو: إنه لا يثق برجال الحزب الوطنى، ولا يعتقد أنهم مخلصون فى العمل لصالح مصر، وأنهم يحبون المال بدليل أنه عقب وفاة مصطفى كامل قد حصل من أخيه على كامل على كل ما لدى مصطفى كامل من أوراق مقابل وعده بدفع ٣٥ جنيهًا لعلى كامل، وأخذ الأوراق ولم يعطه شيئًا، ثم قال: إنه يثق كثيرًا بوطنية سعد باشا وإخلاصه لمصر، وأنه مستعد لأن يكون وفديًا ويمد الوفد بكل ما يحتاجه من المال، وأنه يسره جدًا أن أنقل هذا إلى سعد باشا، وقال: إنه يعرف سعد باشا من مواقفه فى الوزارة وفى الجمعية التشريعية، وقال: إنه كان يسمى الجمعية التشريعية بأنها جمعية «تهجيصية» بدون سعد باشا، ومن إطراء الخديو لسعد باشا واستعداده لمعاونة الوفد ماليًا، أدركت أن الخديو يتملق سعد باشا ليكون فى صفه، وقررت فى نفسى أن أطلع سعد باشا على هذا التملق لأعرف رأيه فى الخديو».

«وفى إحدى المرات التى زرت الخديو فيها وجدت عنده رجلاً عرفنى الخديو به قائلا: إنه سامى بكير وزير خارجية تركيا فى ذلك الوقت، وجرى بيننا حديثًا عامًا، وبعد خروج سامى بكير قال الخديو: إن وزير خارجية تركيا جاءه ليطلب منه معونة مالية للجيش التركى الذى كان وقتها فى حرب مع الجيش اليونانى، وأن الوزير التركى لوح للخديو بأنه إذا لم يدفع شيئًا فإن مصطفى كمال (أتاتورك) سيصادر جميع أملاك الخديو فى تركيا، ثم استطرد الخديو قائلا: إنه لن يدفع شيئًا للأتراك ولا يخاف من

تهديدهم له، لأن تركيا لم تساعده على العودة إلى مصر، ولم تعترض على الإنجليز عندما طردوه من مصر».

(٧٥)

ونستأنف مع سيد باشا ما يرويه عن تطور علاقته بالخديو عباس حلمى، وبداية التوتر فى هذه العلاقة حين تصدى لرغبة الخديو فى احتواء الحركة الوطنية واستغلالها لمصلحة عودته إلى عرشه:

«فى ربيع ١٩٢٢ عقد بمدينة «جنوا» الإيطالية مؤتمرًا دوليًا لمناقشة بعض المشاكل الدولية المهمة فى ذلك الوقت، وانتهزت هذه الفرصة لأتقدم للمؤتمر بمذكرة باسم جمعيتنا أشرح فيها للمؤتمر القضية المصرية وأحقية مصر فى الاستقلال، وعلم الخديو بذلك وكان يقيم فى ذلك الوقت بمدينة «سان ريمو» على السواحل الإيطالية، فأرسل إلىّ مع سكرتيره الخاص محمد توفيق فاضل كتابًا رقيقًا يرجو فيه أن أضمن المذكرة التى سأتقدم بها لمؤتمر «جنوا» موضوع حقه الشرعى فى حكم مصر، وأن الإنجليز قد طردوه من مصر بدون وجه حق، كما سألنى فى خطابه هذا إذا كنت قد بلغت سعد باشا عن رغبة الخديو ليكون عضوًا غير ظاهر فى الوفد على أن يمد الوفد بجميع ما يلزمه من المال، فكان ردى على الخديو بخطاب أيضًا حمله إليه سكرتيره الخاص وقلت فى خطابى: إنى شديد الأسف لعدم إمكانى تحقيق أى من رغبتى سمو أفندينا للأسباب الآتية:

«١ ـ من (جهة أن) تتضمن مذكرة جمعيتنا القول بأحقية سموكم الشرعية فى حكم مصر فإنى أخشى أن نتهم بأننا مأجورون لمسائل شخصية وليس هدفنا خدمة بلادنا، وعندئذ لا ينظر لعملنا بأى تقدير، ولا يهتم أحد بنا، فلن تستفيد سموكم شيئًا ونخسر نحن حسن سمعتنا، والأفضل أن تترك إثارة مثل هذه المسائل إلى ما بعد أن تحصل مصر على استقلالها، فعندئذ يقرر الشعب حكامه الشرعيين».

«٢ ـ ومن حيث نقل رغبة سموكم فى انضمام سموكم إلى الوفد المصرى إلى سعد

باشا فأرجو أن تعفينى سموكم من هذه المهمة لأنى غير متأكد من نوايا سموكم الحقيقية بشأن مستقبل مصر».

. . . . . .

«وغضب الخديو من ردى هذا ولم أعبأ بغضبه، وأعددت المذكرة دون أن تتضمن أى شىء خاص بالخديو، ووزعتها على الصحف وعلى أعضاء المؤتمر، ونشرتها الصحف الإيطالية وعلقت عليها تعليقات مسهبة لصالح مصر، وتبناها أحد أعضاء وفد إيطاليا فى المؤتمر فاساللو، وتحدث بشأنها أمام المؤتمر مؤيدًا ما فيها، ومن ثم سمع صوت مصر عاليًا فى مؤتمر دولى، ولم يشعر بعملى هذا أحد فى مصر لأنه عمل قام به سيد أفندى باشا».

(٧٦)

ونأتى إلى مشاركة الدكتور سيد باشا فى مؤتمر لوزان ١٩٢٢، وهو يشير إلى أن على الشمسى باشا هو الذى ألحقه بهذا الوفد، وما يرويه عما شهده هذا المؤتمر من محاولة محكوم عليها بالفشل من أجل التوحيد بين جهود الحزب الوطنى والوفد فى ظل سعى الخديو عباس حلمى إلى استغلال المؤتمر لصالحه، وهو ما لم يكن الوفديون ليوافقوا عليه:

«. . . تقرر عقد مؤتمر دولى فى لوزان فى شتاء ١٩٢٢ لبحث المشاكل التى كانت بين تركيا ودول البلقان، لاسيما اليونان فى ذلك الوقت، وقرر الوفد المصرى أن يوفد وفدًا منه إلى لوزان للسعى فى عرض القضية المصرية على المؤتمر، وتشكل وفد مصر لدى مؤتمر لوزان برئاسة حسن حسيب باشا، وكان من بين أعضائه على الشمسى بك، وفى طريقه إلى لوزان مر الوفد بروما وجاءنى على الشمسى وأخبرنى بأنه قد تقرر أن أرافق الوفد إلى لوزان ملحقًا به بصفتى صحفيا، كما طلب منى الشمسى بك أن أحضر اجتماعًا سيعقد مساء اليوم الذى زارنى فيه بفندق «الاكسلسيور»، وقال: إن هذا الاجتماع سيعقد بين الجماعة الذين اختارهم الحزب الوطنى ليمثلوا مصر لدى المؤتمر، وبين الجماعة الذين اختارهم الوفد ليمثلوا مصر لدى المؤتمر، وذلك بقصد

الاتفاق على اندماج الجماعتين ليكونوا وفدًا واحدًا يمثل مصر لدى المؤتمر فى لوزان، حتى لا تظهر مصر أمام العالم بأنها منقسمة على بعضها».

«وعندما سمعت ذلك من الشمسى بك جال بخاطرى فورًا أن الخديو عباس الثانى لابد أن يكون وراء السعى لهذا الائتلاف، ذلك لأنى كنت أعرف أثناء وجودى فى مصر أن رجال الحزب الوطنى، باستثناء عبد اللطيف بك الصوفانى ومَنْ انضم منهم إلى الوفد، كحافظ عفيفى، ومصطفى النحاس، وعبد اللطيف المكباتى، لا يطيقون حتى الحديث مع أعضاء الوفد، فكيف يقبلون هذا الاندماج الآن؟ لابد أن يكون الخديو قد ساومهم على قبوله على أن يحاول فريق الحزب الوطنى فى وفد مصر لدى مؤتمر لوزان أن يضمن الوفد إحدى مذكراته موضوع أحقية الخديو بعرش مصر، لذلك قلت لعلى الشمسى على الفور: إنى أعتقد أنكم لن تجدوا أية صعوبة فى إتمام هذا الاندماج، لكنه لن يدوم، ثم سألت الشمسى عمن سعى لهذا الاندماج، أهو الوفد المصرى أم الحزب الوطنى؟ قال: نحن الذين اقترحنا الاندماج عندما علمنا بأن الحزب الوطنى سيوفد وفدًا لمؤتمر لوزان حتى لا تظهر مصر منقسمة على بعضها أمام العالم، وشعرنا بميل الحزب الوطنى لهذا الاندماج، لذلك فإنى أعجب لقولك إن هذا الائتلاف لن يدوم، فقلت: إن السبب الذى يدعوك للاعتقاد بدوام الائتلاف وهو ميل الحزب الوطنى له، هو نفسه السبب الذى يدعونى للاعتقاد بعدم دوامه، لأنه ائتلاف لحاجة فى نفس يعقوب، و اكتفيت بهذه الإشارة».

(٧٧)

كذلك يورد سيد باشا تفصيلات مهمة عن مؤتمر لوزان وممثلى مصر فيه:

«وحضرت الاجتماع فى فندق «الاكسلسيور»، وتم الائتلاف وسافرنا إلى لوزان وكان ذلك على ما أذكر فى أواخر شهر نوفمبر ١٩٢٢».

«. . . كان وفد مصر لدى مؤتمر لوزان مكونًا من: حسن حسيب باشا رئيسًا، ثم على الشمسى بك، وسلامة ميخائيل بك، وحسين هلال بك، وعبد الحليم البيلى أفندى، وإبراهيم راتب أفندى، وعطا عفيفى أفندى أعضاء من هيئة الوفد

المصرى، وأحمد لطفى بك، وحافظ رمضان بك، وأحمد وجدى أفندى، وسعيد حليمات أفندى أعضاء من هيئة الحزب الوطنى، ورأس الوفد المندمج حسن حسيب باشا، ومكتب صحافة الوفد كان مكونًا من محمد فهمى بك، الذى كان مقيمًا بجنيف ويعمل أستاذًا للتاريخ الإسلامى بجامعتها، وسيد باشا أفندى، كما كانت سكرتارية الوفد مكونة من جورج رومانى أفندى، وعزيز أنطون أفندى، وأخذ وفد مصر لدى مؤتمر لوزان يمارس نشاطه، فأعد مذكرة ضافية شرح فيها الأدوار التى مرت بالقضية المصرية وكيف احتلت إنجلترا مصر، ثم وعود إنجلترا بالجلاء عن مصر، ثم فرض حمايتها على مصر بدون موافقتها، ومن ثم عدالة مطالبة مصر برفع تلك الحماية، ثم طبعت المذكرة ووزعت على أعضاء المؤتمر، وعلى مندوبى الصحف فى المؤتمرات، وسارت الأمور سيراً حسنًا، كما تلقى وفد مصر لدى المؤتمر كتابًا من مصطفى كمال (أتاتورك) رئيس تركيا فى ذلك الوقت ردًا على تهنئة وفد مصر له بمناسبة انتصار تركيا على اليونان، وأعرب مصطفى كمال فى رده عن تمنياته الطيبة لمصر، وأمله فى أن تنال استقلالها التام بفضل اتحاد شعبها وجهادها وتضحياتها».

(٧٨)

ومن الجدير بالذكر أن سيد محمد باشا أورد فى مذكراته نص خطاب الزعيم التركى مصطفى كمال أتاتورك إلى حسن حسيب باشا رئيس وفد مصر لدى مؤتمر لوزان.

«. . . وفى نفس الوقت تكلم عصمت إنينو رئيس الوفد التركى لدى المؤتمر مظهراً شعوراً طيبًا نحو مصر وشعبها، وشرح كيف سارت علاقة تركيا بمصر، وكيف تعطلت هذه العلاقة منذ سنة ١٩١٤ عند قيام الحرب العالمية الأولى، ثم قال: إن تركيا قد تنازلت عن حقوقها فى مصر لمصر منذ ذلك التاريخ، كما قال: إنه بناء على ذلك فإن الشعب المصرى له الحق والحرية فى أن يقرر مصيره بنفسه».

«وعلقت الجرائد السويسرية والإيطالية على مذكرة وفد مصر، وعلى حديث عصمت إنينو لصالح مصر».

(٧٩)

ونصل مع سيد باشا إلى اللحظة التى شهدت تفجر الخلافات بين ممثلى مصر فى مؤتمر لوزان، ونحن نجد سيد باشا يصور نفسه فى حواره مع على الشمسى أكثر وعيًا من الشمسى باشا بالحقائق الحاكمة لتصرفات السياسيين وقصور نظرهم:

«. . . وعندما أخذ وفد مصر لدى المؤتمر يعد المذكرات الإضافية لمذكرته التى قدمها للمؤتمر، هو ما كان فى نفس يعقوب، حيث عرض اقتراح من جانب ممثلى الحزب الوطنى فى الوفد بأن تتضمن إحدى المذكرات الإضافية موضوع أحقية الخديو عباس فى تولى حكم مصر، فعارضت هذا الاقتراح بشدة بصفتى أحد المصريين الذين يتكلم وفد مصر لدى مؤتمر المؤتمر باسمهم، وبصفتى رئيس جمعية الطلبة المصريين فى إيطاليا، واستندت فى معارضتى على أن مهمة الوفد هى أن يوضح للرأى العام الدولى قضية مصر وليس قضية شخص بعينه مهما كان مركزه، ثم قلت: إن هذا ليس رأيى وحدى، وإنما هو رأى الشباب المصرى، وسأبرهن لكم على ذلك، ثم غادرت المكان وأنا أقول للشمسى بك: هذا هو ما كان فى نفس يعقوب الذى أشرت إليك به، ثم أرسلت إلى جميع جمعيات الطلبة المصريين فى أوروبا وفى إنجلترا طلبت من كل منهم إيفاد مندوب أو أكثر عنها لحضور اجتماع سيعقد بلوزان لبحث أمر مهم خاص بالقضية المصرية».

«وانعقد الاجتماع وحضره مندوبون عن ٢٣ جمعية من جمعيات الطلبة المصريين التى كانت موجودة أن ذلك فى مختلف عواصم البلاد الأوروبية ومدنها الكبيرة، وشرحت لهم وجهة نظرى فى الاقتراح الذى اقترحه ممثلو الحزب الوطنى فى وفد مصر لدى مؤتمر لوزان، فأقر المجتمعون بالإجماع وجهة نظرى فى معارضة الاقتراح، واتخذ المجتمعون قرارًا ينص على أنه إذا تضمنت أية مذكرة لوفد مصر لدى مؤتمر لوزان بشأن قضية مصر ذكر أشخاص أو قضايا أشخاص لهم علاقة بمصر فى الماضى أو الحاضر أو فى المستقبل، فإن جميع الجمعيات المصرية الموجودة فى أوروبا وإنجلترا تسحب ثقتها من الوفد المصرى وتعلن ذلك للأمة المصرية، ثم سلمت حسن حسيب باشا صورة من محضر الاجتماع وقراراته، كما وزعت نسخًا منها على مندوبى

الصحف السويسرية والإيطالية لدى مؤتمر لوزان، وتسببت هذه الحملة فى رفض اقتراح ممثلى الحزب الوطنى فى الوفد، وتابع الوفد أعماله».

(٨٠)

وتنفرد مذكرات سيد باشا دون غيرها من أدبيات تاريخنا المتاحة بالحديث التفصيلى عن محاولات الخديو عباس حلمى للإفادة من مؤتمر لوزان:

«وكان الخديو عباس موجودًا فى لوزان أثناء انعقاد المؤتمر يتابع نشاط وفد مصر، ويترقب نتيجة جهود ممثلى الحزب الوطنى فى الوفد فى تحقيق ما كلفهم به، فلما علم بما حدث أرسل إلىّ لمقابلته فذهبت إليه، فقال لى: لماذا تحاربنى وأنا لم أقدم إليك أية إساءة؟ فقلت: عفوا ياسمو أفندينا، كما كانوا يخاطبونه وقتئذ، أنا لا أعمل شيئًا ضد سموكم، ولا أفكر فى ذلك مطلقًا، وهذا هو الواقع، ولكنى أعمل لصالح مصر، وأعتقد أن أى عمل يخرج عن دائرة العمل لمصر لا يفيدها، فقال: إنى لست فى حاجة إلى معاونة أحد من المصريين، فهم ينكرون جمائلى عليهم، فقلت: أعتقد ياسمو أفندينا أن المصريين أصدق الناس فى الاعتراف بالجميل، ثم انصرفت».

«عندئذ رأى الخديو أنه لا فائدة له من وجود ممثلى الحزب الوطنى فى وفد مصر لدى مؤتمر لوزان، فصدرت التعليمات لهم بعدم حضور اجتماعات الوفد فانسحبوا منه وانتهى الائتلاف».

«ثم اختار الخديو اثنين من أعضاء الحزب الوطنى للسفر إلى أنقرة للسعى لدى مصطفى كمال أتاتورك للحصول منه على توصية إلى عصمت إنينو رئيس وفد تركيا فى المؤتمر ليثير أمام المؤتمر موضوع عزل الخديو عباس عن عرش مصر وعدم شرعية هذا العزل».

«وسافر فعلاً إلى أنقرة حافظ رمضان بك، وأحمد وجدى أفندى، ثم سافرت أيضًا إلى أنقرة معهما الأميرة شويكار لمعاونتهما، كما أخبرتنى هى بنفسها بذلك، ونجحوا فى الحصول على توصية من مصطفى كمال إلى عصمت إنينو ليقابل الخديو ويسمع شكواه، وحدد عصمت إنينو موعدًا للقاء الخديو، وعلمت بموعد اللقاء من الأميرة شويكار».

«وقبل موعد المقابلة بيوم واحد نشرت جريدة «البوبولو دى إيطاليا» لسان حال حزب «الفاشيستى» فى إيطاليا حديثًا لى مع موسولينى رئيس الحكومة الإيطالية فى ذلك الوقت ورئيس وفدها لدى المؤتمر، وأعلن موسولينى فى حديثه معى أن مهمة مؤتمر لوزان هى بحث مسائل الشعوب ومشاكلها، وليست النظر فى قضية أو مشكلة أى شخص من أية دولة مهما كان مركزه، وكان نشر هذا الحديث سببًا فى اعتذار عصمت إينو عن استقبال الخديو عباس».

«وإزاء تصرف ممثلى الحزب الوطنى فى وفد مصر لدى المؤتمر، أصدر ممثلو الوفد فى وفد مصر لدى المؤتمر بيانًا للأمة المصرية أعلنوا فيه انتهاء الائتلاف لمناورات ممثلى الحزب الوطنى فى الوفد وتصرفاتهم، وكتبت هذا البيان بخطى وطبع فى لوزان على ما يسمى مطبعة الحجر لعدم وجود آلة كاتبة أو مطابع عربية بسويسرا، وأرسل البيان لمصر فى حينه، ومن المستندات القليلة جدًا التى بقيت عندى صورة من هذا البيان وجدتها عند المرحوم محمد بك فهمى عندما زرته فى جنيف سنة ١٩٣٨، والبيان مكتوب بخطى ومطبوع على مطبعة حجر بلوزان».

(٨١)

ولا تقف جسارة سيد باشا فى حديثه عن سلوكيات كبار رجال الدولة عند حد، ونحن نراه يعلن أنه اكتشف من بين أعضاء الوفد المصرى فى مؤتمر لوزان مَنْ يتجسس لحساب الملك فؤاد، وهو يقدم أدلته على أن اللذين قاما بهذا الدور هما عبد الحليم البيلى، وإبراهيم راتب اللذان كانا عضوين فى وفد مصر إلى لوزان، كما كانا منتميين للوفد:

«. . . كنت أجلس فى إحدى الليالى خلال أيام انعقاد المؤتمر فى إحدى حجرات مكتب وفد مصر فى فندق «بالاس» أكتب مقالاً لجريدة «الايبوكا» الإيطالية عن مصر، وكان يجلس فى الحجرة المجاورة للحجرة التى أجلس فيها عبد الحليم البيلى، وإبراهيم راتب يتحدثان فى هدوء بصوت خافت، ثم خرجا من الحجرة، وبعد انتهائى من كتابة المقال دخلت الحجرة التى كانا يجلسان فيها فوجدت ورقة ملقاة على أرض الحجرة فتناولتها فإذا هى خطاب من أحد كبار رجال السراى فى مصر فى ذلك الوقت إلى عبد الحليم البيلى يبلغه فيها أن جلالة الملك فؤاد قد أمر بمنح كل منهما، عبد الحليم البيلى

وإبراهيم راتب خمسة وسبعين جنيهًا فى الشهر مقابل أن يمدا السراى بكل المعلومات عن تحركات الوفد المصرى واتجاهاته داخل مصر وخارجها، فقلت فى نفسى: وهذا ميدان آخر يحتاج إلى معركة».

«وبعد يومين كان وفد مصر مجتمعا يتابع نشاطه، وإذا باقتراح يقدمه عبد الحليم البيلى يقترح فيه إيفاد اثنين من أعضاء الوفد إلى تركيا لمقابلة مصطفى كمال ليأتيا منه بتوصية لعصمت إنينو ليولى مذكرات الوفد شيئًا من الاهتمام ويتحدث بشأنها فى المؤتمر، لاسيما من حيث شرعية الحكم فى مصر، ورشح عبد الحليم البيلى إبراهيم راتب ليكون أحد الاثنين اللذين سيوفدا على أساس أن إبراهيم راتب يجيد اللغة التركية، كما رشح عبد الحليم البيلى نفسه ليرافق إبراهيم راتب، لكن الاقتراح رفض على أساس أن عصمت إنينو قال كل ما كان يمكنه أن يقوله لصالح مصر، وأن مصطفى كمال أرسل للوفد خطابًا رقيقًا مشجعًا ردًا على الخطاب الذى كان قد أرسله له الوفد».

(٨٢)

وتنفرد مذكرات سيد باشا بالتأكيد على أهمية النتائج التى حصلت عليها مصر فى مؤتمر لوزان، وربما لا يوافق القارئ على مثل هذه الأهمية، إذ أن القراء يدركون الآن أن كل هذه المعاهدات الدولية لا تقيم حقًا من تلقاء نفسها، وأن قيمتها تكمن فى أنها قد تصلح كأسانيد:

«واستمر وفد مصر يمارس نشاطه بدون ممثلى الحزب الوطنى، وبوجود عيون الملك فؤاد حتى انتهى المؤتمر من أعماله، وقد أفادت مصر من نشاط وفدها لدى مؤتمر لوزان، وحصلت على نتائج سياسية دولية مهمة، حيث نصت معاهدة لوزان فيما يختص بمصر على ما يأتى:

«مادة ١٧: يسرى مفعول تنازل تركيا عن كل حقوقها فى مصر والسودان من ٥ نوفمبر ١٩١٤».

«مادة ١٨ : صارت تركيا محررة من كل تعداتها الخاصة بالقروض العثمانية المضمونة بالجزية على مصر، وهى المعقودة فى سنوات ١٨٠٠ و١٨٩١ و١٨٩٤، وصارت المدفوعات السنوية التى تدفعها مصر لوفاء هذه القروض الثلاثة جزءاً من مدفوعات الدين المصرى العام، وصارت مصر محررة من كافة العهدات الأخرى المتعلقة بالديون العثمانية».

«مادة ١٩ : إن المسائل الناتجة من الاعتراف بالدولة المصرية التى لا تسرى عليها الأحكام الخاصة بالأملاك المنسلخة من تركيا بمقتضى هذه المعاهدة ستسرى فيما بعد باتفاقات بين الدول صاحبات الشأن فى الظروف التى تعنيها».

«مادة ٩٩ : ابتداء من نفاذ هذه المعاهدة وبدون مساس بالنصوص الواردة فيها، تنفذ معاهدة الآستانة المعقودة فى ٢٩ أكتوبر ١٨٨٨ الخاصة بوضع نظام الملاحة فى قناة السويس مع التحفظ الوارد فى المادة ١٩ من المعاهدة الحالية».

«وفضلاً عن ذلك فإن جميع الصحف الإيطالية قد نشرت بيانات وفد مصر لدى المؤتمر، ومذكراته، وعلقت عليها لصالح مصر، وكذلك فعلت بعض الصحف السويسرية، أما الصحف الفرنسية والإنجليزية فلم تنشر شيئًا منها بكل أسف».

(٨٣)

ويصل سيد باشا فى التعبير عن عداوته للخديو عباس إلى حد أن يذكر أنه أقنع وزير المستعمرات الإيطالية بتآمر الخديو، مما جعل إيطاليا تقرر إبعاد الخديو عن إيطاليا وعدم السماح له بدخولها، وهو الأمر الذى استمر حتى وفاته، ونحن لا نستطيع أن نؤكد رواية سيد باشا ولا أن ندعمها . . . لكننا نعجب من أن تظل مثل هذه النقطة غامضة إلى مثل هذا الحد.

« . . . وفى أوائل شهر إبريل ١٩٢٣ على ما أذكر، دعانى الماركيز كولونا دى شيزارو وزير مستعمرات إيطاليا فى ذلك الوقت، لمقابلته، وكنت أعرفه، بل كنت صديقه، حيث كان هو رئيس جمعية الشرق الحديث، وكنت أنا عضواً فيها وسكرتيرها الشرفى، وعندما ذهبت إليه أطلعنى على مكتوب وصله من مجهول وفحواه أن (سيد

باشا) على صلة قوية بالطرابلسيين المقيمين فى إيطاليا، والثائرين ضد إيطاليا فى طرابلس، وأنه يشترك فى تزويد الثائرين بالسلاح، وقال لى الوزير: إنه على يقين بأن البلاغ بلاغ كيدى لأنه (الوزير) أدرى الناس بنشاطى فى إيطاليا».

«ثم سألنى عمن أظن أن يكون مرسل هذا البلاغ؟ فقلت له: ربما يكون الخديو عباس حلمى قد أوحى إلى أحد أتباعه بإرساله لأنه غاضب منى، فقال: لابد أن يكون ذلك صحيحًا لأننا نشتبه فى نشاطه، ويظهر أنه شعر بذلك ويريد أن يضلل مخابراتنا ويصرفها عن مراقبته على حساب اتهامك، وبهذا البلاغ أكد لنا الخديو ما لدينا من شبهات فى نشاطه، وانتهى حديثنا».

«وبعد بضعة أيام علمت من الماركيز دى شيزارو أن الحكومة الإيطالية قد أبعدت الخديو عباس حلمى من إيطاليا، وقررت عدم السماح له بدخول إيطاليا طول حياته، وذلك بعد أن قامت سلطات الأمن الإيطالية بتفتيش مقر إقامته بسان ريمو بإيطاليا ووجدت عنده أوراق (يقصد: أوراقًا) تثبت أنه كان يعمل على أن يتولى الحكم فى أى قطر من أقطار شمال إفريقيا، ومن بينها طرابلس، وذلك بتجميع أعوان له فى تلك الأقطار ومدهم بالمال لقلب نظام الحكم فيها، ولم يدخل الخديو بعد ذلك إيطاليا إلى أن توفاه الله».

(٨٤)

ويتحدث سيد باشا بفخر شديد عن حصوله على الدرجات النهائية على يد أحد عشر ممتحنًا هم لجنة الدكتوراه، ولا يعجبن القارئ من أن يحصل سيد باشا على هذه الشهادة بهذه السرعة، فقد كان النظام الإيطالى فى ذلك الوقت قائمًا على هذا النحو، وهكذا كانت الدكتوراه التى يتحدث عنها سيد باشا أقرب إلى درجة البكالوريوس البريطانية والفرنسية، حيث كان النظام الجامعى الإيطالى يتيح هذه الدرجة عقب المرحلة الجامعية الأولى مباشرة:

«... منحت بعدها الدكتوراه، وكانت الدرجة التى نلتها ١١٠/ ١١٠، أى أن كل أستاذ أعطانى ١٠/ ١٠، وبحصولى على الدرجة النهائية ومرتبة الشرف استرديت

(يقصد: استرددت) جميع المصروفات الجامعية التى دفعتها من يوم التحاقى بالجامعة حتى مناقشة الدكتوراه، حيث كانت تنص بذلك لوائح الجامعة».

«بعد الانتهاء من مناقشة الرسالة استدعانى رئيس لجنة المناقشة الأستاذ فيتو فولترا العالم فى الطبيعة الرياضية وعضو مجلس الشيوخ الإيطالى ورئيس الأكاديمية الإيطالية فى ذلك الوقت، وكان هو أستاذى فى هذه المادة، والمشرف علىّ فى بحث رسالتى، وهنأنى بحرارة ثم سألنى: هل أنت مصرى من مصر؟ قلت له: أنا مصرى من ريف مصر، ، ثم قال: وأين تعلمت؟ قلت: تعلمت فى المدارس المصرية، ثم قال بالحرف ما يلى: «أنت تعلم أنى أشغل الآن كرسى أستاذ الطبيعة الرياضية فى أربع جامعات هى روما وباريس ولندن ومدريد»، وهذا صحيح، إذ كنا نعلم أنه يلقى كل عام ٢٠ محاضرة فى كل من جامعات باريس ولندن ومدريد، ويدرس لنا الطبيعة الرياضية فى جامعة روما، ثم قال: «ولى الآن خمس سنوات وأنا أحاول اختيار مساعد لى»، لأن النظام فى جامعات إيطاليا فى ذلك الوقت كان يقضى بأن الأستاذ هو الذى يختار مساعده بصرف النظر عما إذا كان هذا المساعد من هيئة التدريس بالجامعة أو من خارجها، أو كانت له مدة خدمة أو حديث التخرج، «ولم أوفق بعد، وقد وقع اختيارى اليوم عليك لتكون مساعدى، فما رأيك؟»، فقلت: إن هذا شرف كبير وتقدير عظيم لى، ولكن ألا ترى سيادتك أن وطنى أحق بى من أى بلد آخر؟ فقال: يابنى إن العلم ليس له وطن خاص به، وعلمك سينفع بلدك وغير بلدك، فقلت: على أى حال إذا عملت فى بلدى سيكون علمى أقرب إليه من غيره، واعتذرت له وانصرفت».

«ولم أندم فى حياتى على رفض عرض عُرض علىّ غير هذا العرض، فلو أنى قبلت أن أكون مساعداً للأستاذ فولترا لكنت أصبحت الآن من بين علماء الذرة المرموقين فى العالم، ولكن هذا ما أراده الله لى».

(٨٥)

وتظهر ثقة سيد باشا الفائقة بنفسه فيما يرويه عن لقائه هو وزميله عريان يوسف سعد بالزعيم سعد زغلول قبيل توليه رئاسة الوزارة، واقتراحهما عليه ألا يقبل بهذا المنصب، مكتفيا بزعامة الأمة:

« . . . ذهبنا أنا ويوسف لمقابلة سعد باشا فى منزله، وبعد أن هنأناه بحصول الوفد على الأغلبية فى البرلمان، قلنا له: إننا جئنا لنتقدم باسم الفدائيين إلى دولتك برجاء، ثم جرى بيننا الحديث التالى بالنص:

«أنا: هل تعتقد دولتك بأننا قد حصلنا على الاستقلال الذى قامت الثورة من أجله؟».

«سعد باشا: لا أعتقد ذلك، ولازال بيننا وبين الإنجليز (مشوار طويل) لاستخلاص استقلالها الصحيح».

«أنا: ألست دولتك هو قائد الثورة؟».

«سعد باشا: بيقولوا كده».

«أنا: نعم هو كذلك، وفى صالح الثورة ألا يكون قائدها فى مركز يضطره للتورط أو المجامعلة فى معاملة خصوم الثورة».

«سعد باشا: بلاش لف، عايز تقول إيه؟ وضحك».

«أنا: باسم الفدائيين جئنا لنرجوك ألا تقبل رئاسة الوزارة وتبقى دولتك مع الأغلبية فى المعارضة للرقابة والتوجيه، لأن قبول دولتك لرئاسة الوزارة يعنى انتهاء الثورة بيننا وبين الإنجليز، لأنه بحكم وجود دولتك فى رئاسة الحكومة ستضطر لمهادنة الإنجليز ليتيسر سير الحكم، ثم لا يخلو الأمر من حصول بعض مجاملات أو تساهلات مرة للإنجليز، ومرة للسراى، وكل هذا يأتى على حساب الثورة فيضعفها بدلاً من أن يقويها، هذا فضلاً عن أن دولتك بحكم مركزك ستكون مسئولاً عن الأمن فى البلاد، وهذا يضطرنا لأن نوقف عملنا لأننا لا نرضى بإحراج دولتك».

«سعد باشا: هذا كلام له قدر كبير من الوجاهة بالنسبة لأناس لا يمارسون السياسة ولا يعرفون النظم البرلمانية. هل سمعتم فى نظام فى دولة من دول العالم أن الأغلبية البرلمانية تراقب ولا تحكم؟!».

«أنا: إن حالنا يختلف عن أحوال البلاد الأخرى، فنحن لانزال فى ثورة من أجل استقلالنا، أما البلاد الأخرى فهى مستقلة تمامًا».

«سعد باشا: آسف لئلا أقبل منكم هذا الرجاء لأنى لا أوافق على رأيكم».

«أنا: نشكركم ونحن متمسكون برأينا ونرجو لكم التوفيق، وفى الوقت نفسه نقول لدولتكم: إن قبولكم الوزارة يعنى الحكم بالإعدام على حركة الفدائيين مع العلم بأن الإنجليز لن يطيقوا وجود دولتكم فى الحكم طويلا».

(٨٦)

وهكذا انتهى لقاء سيد باشا وزميله بسعد باشا إلى حرصهما على إثبات وجهة نظرهما فى أن الإنجليز لن يطيقوا بقاء سعد فى الوزارة، وهما لا يقفان عند حد فى تشخصيهما للموقف على هذا النحو، وإنما يندفعان بمعونة صديق ثالث إلى كتابة منشور يحرض على عدم التعاون مع الإنجليز، ويؤكد على أن الكفاح المسلح لايزال ضروريا!!

ومن الطريف أن سعد زغلول نفسه كان لا يجد حرجًا فى أن يظل مثل هذا الرأى سائدًا بين أوساط مؤيديه، فها هو يبتسم لهذين الشابين ويقول «لكم دينكم ولى دين»:

«. . . وفى أثناء ذلك وفد علينا صديق لنا من طلبة الأزهر ومن الشبان المتحمسين للثورة وهو المرحوم عبد الله حبيب، وسألنا عما كنا نتكلم فيه فأخبرناه بما كان من أمرنا، فوافقنا على رأينا واشترك معنا فى كتابة المنشور الذى وقعناه بكلمة «هم»، وكان المنشور يتضمن المعانى الآتية:

«١ ـ إن ثورتنا ضد الإنجليز لم تنته بعد، لأننا لم نحصل على استقلالنا كاملاً».

«٢ ـ إن النواب والشيوخ الذين انتخبوا ويمثلون الثورة وما هم إلا فئة الهتافين والانتهازيين ولا يمكن أن تعتمد عليهم البلاد لتحريرها».

«٣ ـ إن الفدائيين هم الذين يمثلون الثورة تمثيلاً عمليًا، وهم الفئة العاملة بالفعل لتحرير البلاد من المستعمرين».

«٤ ـ إن الإنجليز لم يسلموا برفع الحماية عن مصر والاعتراف باستقلالها المبتور إلا بضغط الحركة الفدائية».

«٥ ـ إن قبول سعد باشا زعيم الثورة وقائدها تولى الحكم يعنى انتهاء الثورة، مع أن الثورة لم تنته بعد».

«٦ ـ إن الفدائيين لا يعترفون بانتهاء الثورة ويعارضون تولى سعد باشا الحكم على أساس أنه زعيم الأغلبية الثائرة».

«٧ ـ إن الفدائيين يطالبون سعد باشا بأن يبقى هو وأغلبيته فى المعارضة للمراقبة».

«وطبع المنشور فى المطبعة الرحمانية، ووزعناه بطريقتنا السرية على الجرائد، والتجار، والأعيان، وكبار الموظفين، وأعضاء البرلمان الذين انتخبوا، وجمعيات الطلبة، واتحادات العمال، وكان لهذا المنشور رد فعل وانزعاج شديد لدى سلطات الأمن، حيث فهموا من صدوره أن الحركة الفدائية ما زالت مستمرة، وأن الفدائيين ليسوا وفديين أو على الأقل خرجوا على الوفد».

«ويؤكد ذلك الانزعاج الذى أصاب سلطات الأمن ما جاء على لسان النائب العام خاصا بهذا المنشور وهو يترافع فى قضية الاغتيالات السياسية، إذ قرأ بعض فقرات من المنشور وقال: إن مثل هذا المنشور لا يمكن أن يصدر إلا من جماعة إرهابية عنيفة تهز الأمن فى البلاد هزًا عنيفًا».

«كما كان المنشور أيضًا بمثابة ناقوس ينبه الشعب إلى حقيقة واقع لم يكن قد تنبه إليه من قبل، وهذا الواقع هو أن هناك وراء العمليات والحوادث التى شاهدها على مدى الأربع سنوات الماضية هيئة قوية مستقلة ومنظمة تعمل لدعم الثورة فى سيرتها نحو غايتها، وهى استقلال مصر استقلالاً تامًا، وود كثير من المواطنين لو ينتسبون لهذه الهيئة».

. . . . . .

. . . . . .

«بعد مرور بضعة أيام على قرار الإفراج عن المعتقلين والمسجونين السياسيين، ذهبت أنا ويوسف لنشهد جلسة من جلسات مجلس النواب وتعمدنا أن نعترض طريق سعد باشا وهو ذاهب من قاعة المجلس إلى حجرة رئيس الوزراء بالمجلس، وعندما

لمحنا نادانا فذهبنا إليه فاستقبلنا ضاحكًا وقائلاً: عملتموها ياخنازير، وبعد أن سلمنا عليه قلنا: لقد أعلنا رأينا يادولة الباشا، فقال: لا بأس، لكم دينكم ولى دين، بس أوعوا تبعدوا عنى، فقلت: نحن تحت أمرك دائمًا ياباشا».

(٨٧)

ونصل مع رواية سيد باشا للأحداث التى أعقبت الانتصار الشعبى والبرلمان للوفد وسعد زغلول، واختلاف وجهات النظر والتوجهات الوطنية الوفدية والتصرفات الصادرة عن هذه التوجهات إلى مفترق الأحداث فى العلاقة بين سيد باشا وبين النقراشى، وهو المفترق الذى جاء سريعًا عندما أصدر سيد باشا وأصدقاؤه منشورهم المندد بالتعاون مع الإنجليز من خلال الوزارة والبرلمان، ونرى سيد باشا لا يجد حرجًا فى أن يغمز النقراشى بقوله: إن شعوره بالهزيمة لا يغضبه فحسب، وإنما يجننه:

«... كان من الطبيعى أن تتناول أحاديث أعضاء مجلس البرلمان فيما بينهم مسألة المنشور الذى أذعناه، وكان من الطبيعى أن يسأل محمود فهمى النقراشى وأحمد ماهر بصفتهما المتصلين بقطاع منشورات الثورة عمن كتبوا ذلك المنشور وأذاعوه، وكان من الطبيعى كذلك أن يشعر النقراشى وماهر بالهزيمة، ذلك لأنه قد تبين للوفديين أن قيادة قطاع العنف فى الثورة ليست للنقراشى وماهر كما كان الوفديون يعتقدون ذلك، وشعور النقراشى بالهزيمة لا يغضبه فحسب، بل يجننه، وقد لمسنا ذلك عندما وفد علينا النقراشى ونحن جالسون أنا ويوسف وعريان تلك الليلة فى محل «صولت» حيث كان النقراشى وأصدقاؤه متعودين أن يقضوا سهرتهم كل ليلة فى ذلك المكان، فما كاد يرانا، وكانت أول مرة يرانا فيها بعد صدور المنشور، حتى اندفع نحونا بسرعة وبدون سلام وبغضب شديد انفجر قائلا وملوحا بيده: إزاى تكتبوا المنشور ده، وإزاى تكتبوه بدون ما تقولوا لى، وإزاى تهاجموا سعد باشا بهذه اللهجة؟ وطبعا سعد باشا هو الذى أخبره بأننا نحن الذين كتبناه».

«وبنفس الاندفاع وبنفس الغضب رددت عليه قائلاً: إننا لا نسمح لك أن تخاطبنا بهذه اللهجة، فمَنْ أنت بالنسبة لنا؟ وما هو سلطانك علينا؟ إنّا لنا رأينا الخاص بنا، ولنا أن نعلنه كما نشاء، ووقت أن نشاء، فليس لأحد علينا سلطان إلا مصلحة بلدنا، وقد

عرف سعد باشا رأينا قبل أن نعلنه ولم يغضب منا، فتركنا النقراشى ممتعضا وذهب ليجلس مع أصدقائه».

(٨٨)

ويروى سيد باشا تطور ترقيته الوظيفية من بعد عودته من إيطاليا فى أساليب شيقة، وهو حريص على أن يوحى إلينا أن انتماءه إلى الحركة الوطنية كان بمثابة عبء على مستقبله السياسى:

«... وأثناء انتظار إتمام الإجراءات الخاصة لتعيينى بإدارة البلديات كنت فى مقابلة مع عبد اللطيف المكباتى بفندق «الكونتنتال» وقدمنى للمرحوم عبد المجيد بك عمر، الذى كان يجلس معه وقت لقائنا، وكان عمر بك ناظر مدرسة المهندسخانة (كلية الهندسة) فى ذلك الوقت، فلما عرف أنى حاصل على الدكتوراه فى الطبيعة الرياضية من جامعة روما قال: إنى أعمل الآن على تدعيم هيئة التدريس بالمدرسة بتعيين ذوى المؤهلات العليا الأجنبية، ويسرنى أن تنضم إلى هيئة التدريس بمدرسة الهندسة، وسأعرض أمر تعيينك عندنا على مجلس إدارة المدرسة الذى كان من سلطته تعيين أفراد هيئة التدريس بالمدرسة وتقدير مرتباتهم، ووافق مجلس إدارة مدرسة الهندسة على تعيينى مدرسًا مساعدًا بالمدرسة بمرتب ٣٥ جنيهًا شهريًا فى الدرجة الخامسة، وقمت بالعمل بالمدرسة من أول يناير ١٩٢٤».

(٨٩)

وبعد صفحات يفاجئنا سيد باشا بأن النقراشى، وهو أحد زملائه فى الكفاح المسلح، هو الذى خفض مرتبه!! ووقف أمام نواله ما كان يعتبره بمثابة حقه الطبيعى:

«... كان شهر فبراير قد اقترب من نهايته ولم أحصل بعد على مرتبى، حيث إنه لم يعتمد وزير المعارف قرار مجلس إدارة المدرسة الخاص بتعيينى، وبناء على ذلك لم تصرف لى المدرسة مرتبى، فذهبت إلى وزارة المعارف لأستعجل اعتماد الوزير لقرار مجلس الإدارة إلى المدرسة، وهناك فوجئت بما صدمنى، فالقرار اعتمد، ولكن المرتب

عدل من ٣٥ جنيهًا إلى ٢٠ جنيهًا بناء على تأشيرة من مساعد السكرتير العام للوزارة، وكان هذا المساعد هو محمود فهمى النقراشى، فذهبت إليه لأعرف سبب تدخله وتعديله قرار مجلس الإدارة المختص فنيًا وتقديراً للمؤهل، فوجدت عنده الأخ عريان سعد ليستوضح من النقراشى عن سبب تعيينه (عريان) فى سكرتارية مجلس الشيوخ فى حرف «ب» وليس فى حرف «أ» كأقرانه، ورد النقراشى على استيضاحنا فى موضوعينا بقوله: إننا لا نريد أن يقول الناس إن الوفد يحابى أنصاره، فقلت له: إن الذى حدد مرتبى هو مجلس إدارة المدرسة ولا علاقة له بالسياسة ولا بالوفد، فهو هيئة فنية محايدة»، ورد عريان قائلاً أيضًا: إنه قد عين معه فى سكرتارية مجلس الشيوخ مَنْ لا يحملون أى مؤهل بمرتب يعادل ضعف مرتبه لأنهم كانوا يعملون فى الصحف المؤيدة للوفد، أو كانوا يعملون بمكاتب المحامين الوفديين، ونحن لا ننتمى لأى حزب ولن ننتمى لأى حزب، ولم نعلن فى أى وقت أننا وفديون أو غير وفديين».

«ثم قلت للنقراشى: إننا غير مقتنعين بما قاله خاصًا بنا، ونرى أن هناك تناقضًا بين ما يقوله وبين الواقع، وعلى ذلك تكون المسألة شخصية بيننا وبينه، وتركناه وقمنا لنذهب إلى مقهى «النيو بار» لنقابل يوسف العبد، وقابلنا يوسف وجلسنا نتحدث ونتذكر بعض ماضينا وقضينا سهرتنا مع بعض ولم نفترق بعد ذلك عن بعضنا إلا لأعمالنا ولأوقات راحتنا، وخلال سهرتنا أخبرنا يوسف بما حدث بيننا وبين النقراشى، وكان يوسف أيضًا قد عين فى وزارة الزراعة بمرتب يعادل المرتب الذى عين به عريان، وهو مرتب يجعله أيضا أقل من أقرانه، وكان ذلك كله بتدخل النقراشى، وبنفى تدخل النقراشى فى موضوع مرتباتنا علمنا أن سعد باشا عندما تولى الوزارة عهد إلى النقراشى الاهتمام بأمور الشبان الذين ساهموا فى الحركة الوطنية وكانوا قريبين من الوفد وتتبع أوضاعهم فى الجهات التى سيعينون بها، وكان ذلك على أساس أن النقراشى نصب نفسه أمام سعد باشا على أنه كان على رأس حركة الشبان بوجه عام، وحركة الفدائيين بوجه خاص».

«ويعلم الله أن ذلك لم يكن صحيحًا بالمرة بالنسبة لنا نحن الفدائيين، وانتهز النقراشى فرصة قيامه بالمهمة التى أسندها إليه سعد باشا وعامل الفدائيين، دون علم سعد باشا، معاملة سيئة، بل معاملة اضطهاد انتقامًا منا لعدم قبول رياسته علينا، إذًا

هل نشكوه لسعد باشا؟ إننا لا نشك فى أن سعد باشا سينصفنا، ولكن هل نذهب لسعد باشا لنحدثه فى مسألة مادية تتعلق بأشخاصنا، لاسيما أن تلك المسألة قد تكون فيها شبهة أننا نطالب بمكافأة لأعمالنا، ونحن الذين نعمل لبلدنا دون أن ننظر إلى ما قد يصيبنا!! كلا!! لن نذهب إلى سعد باشا فى مثل هذه الأمور، ولنرض بما كان من أمرنا، ويفعل الله ما يشاء».

(٩٠)

ونصل مع سيد باشا إلى مرحلة حتمية فى كل ثورة حققت بعض نجاحاتها من خلال العمل السرى، وهى مرحلة العمل على استئصال المبرزين فى العمل السرى حتى لا يظلوا مصدر خطورة كفيل بتغيير أوضاع مَنْ وصلوا إلى السلطة، ومع أن القراء يعرفون عن ثورة يوليو ١٩٥٢ أنها اتبعت هذا الأسلوب حتى أقصاه، فإن أحدًا لا يتصور أن ثورة ١٩١٩ عانت هى الأخرى من بعض المؤامرات التى كادت تفقدها أبناءها المخلصين، وتفرض عليها الانتهازيين والنفعيين، ومن العجيب أن معاناة سيد باشا مع الحكومة فى عهد وزارة سعد زغلول بدأت عندما وقعت محاولة اغتيال سعد زغلول نفسه، واستسهلت أجهزة الأمن أن تضعه بين المشتبه فيهم :

«. . . فى يوم ١٢ يوليو - عيد ميلادى - سنة ١٩٢٤ أطلق المجرم الأثيم عبد اللطيف عبد الخالق (الدلبشانى) الرصاص على سعد باشا بقصد قتله وهو يهم بأن يستقل القطار من محطة السكة الحديد بالقاهرة ليغادر مصر إلى لندن ليفاوض الحكومة الإنجليزية فى أمر إكمال استقلال مصر، لكن لحسن الحظ لم يصب سعد باشا إلا بإصابات خفيفة ونقل فوراً إلى مستشفى رامز بالروضة».

«كان الاعتداء على سعد باشا مدبراً واشترك فى تدبيره الملك فؤاد (رجال السراى)، ودار المندوب السامى البريطانى، والدليل المادى على ذلك هو اختفاء المسدس الذى استعمله الجانى، مع أنه لم يخرج من محطة السكة الحديد إلا مقبوضًا عليه، والذين قبضوا عليه وفتشوه هم رجال الأمن الذين كانوا بالمحطة للمحافظة على سعد باشا وعلى رأسهم الضابط الإنجليزى إنجرام وكيل حكمدار القاهرة رسل باشا الإنجليزى أيضا، فأين ذهب هذا المسدس؟ ذهب إلى جيب الضابط الإنجليزى إنجرام، وشاهدا

الرؤيا هما الأستاذ محمود سليمان غنام المحامى، وأحد الشبان الوفديين الذين كانوا فى توديع سعد باشا على المحطة، حيث قررا أنهما رأيا المسدس فى يد إنجرام، كما رأياه يدسه فى جيبه (إنجرام)، كذلك قرر الضابط حسن فخرى ياور سعد باشا أمام وكيل النيابة الذى تولى تحقيق الحادث أنه (حسن فخرى) رأى المسدس عندما سقط من يد الجانى على الأرض فالتقطه انجرام ودسه فى جيبه، وكان جزاء حسن فخرى على هذه الشهادة أنه فصل من الخدمة عقب استقالة سعد باشا من رئاسة الوزارة».

(٩١)

ويروى سيد باشا العواقب المباشرة للاعتداء على سعد زغلول، وما اقتضته إجراءات الأمن من تفتيش بيته:

«وبسبب هذا الحادث فتش منزلى بحجة أنه قد تكون لى صلة بارتكابه، وأُخذت أوراقى ومذكراتى ولم أكن موجودًا بالمنزل وقت تفتيشه، ولم يقبض علىّ، ولم يبحث عنى للقبض علىّ، ولما تمت إجراءات سفرى إلى إيطاليا، وكان ذلك بعد وقوع حادث الاعتداء على سعد باشا بنحو أسبوع، أرسلت خطابًا لمدير الأمن العام أخبرته فيه بموعد سفرى حتى لا يظن أنى سافرت هاربًا بعد أن فتش منزلى».

«وفى الساعة الحادية عشرة من مساء اليوم السابق مباشرة ليوم سفرى فتش منزلى للمرة الثانية ولم أكن موجودًا وقت التفتيش أيضًا، وعندما عدت إلى منزلى وكانت الساعة الواحدة بعد منتصف الليل وجدت المنزل محاطًا برجال البوليس الذين لم يسمحوا لى بدخول المنزل واقتادونى إلى قسم الأزبكية حيث قضيت تلك الليلة، وفى الصباح رُحلت إلى دار محكمة مصر بميدان باب الخلق (ميدان أحمد ماهر)، وانتهزت فرصة وجود تليفون بالحجرة التى كنت أنتظر فيها استدعائى للتحقيق وتحدثت إلى الأستاذ محمود النقراشى وكان فى ذلك الوقت وكيل محافظة القاهرة وعاتبته قائلاً: كيف تكون أنت وكيل المحافظة ولك سيطرة على رجال البوليس وتعرف مقدار حبى وصلتى لسعد باشا ويقبض علىّ بشبهة أن تكون لى صلة بالاعتداء على سعد باشا؟ فقال: إن هذه إجراءات أمن وستظهر حقيقة كل شىء فلا تهتم».

«وبعد انتهاء حديثى مع النقراشى استدعيت للتحقيق الذى أجراه معى وكيل النيابة على النحو التالى:

«س: أتعرف سعد باشا؟

جـ: نعم أعرفه وهو رئيس الوزارة».

س: هل توافق على سياسته؟

جـ: نعم أوافق على سياسته».

«س: هل تعرف عبد اللطيف الدلبشانى؟

جـ: لا أعرفه ولم أره فى حياتى».

«وعبد اللطيف الدلبشانى هو الشخص الذى اعتدى على سعد باشا كما ذكرت سابقًا، وانتهى التحقيق فى ذلك اليوم على هذه الصورة، وأرسلت إلى سجن مصر بميدان القلعة لأقضى فى أحد زنزاناته أسبوعًا».

(٩٢)

ويفاجئنا سيد باشا بأن اتهامه فى قضية مقتل سعد زغلول قد تطور على يد السلطات إلى اتهام آخر بمحاولة قتل الملك فؤاد نفسه من أجل التمهيد لعودة الخديو عباس حلمى، ومع ما يبدو فى هذا التفكير من شذوذ واضح فى تدبير الأمور، فإن ديناميات الصراعات السياسية تدلنا على أن مثل هذه المؤامرات تمثل نمطًا طبيعيًا فى محاولات التخلص من الشخصيات المؤثرة من طراز صاحب هذه المذكرات:

«ثم استدعيت لاستئناف التحقيق، وقادونى إلى حجرة النائب العام فى ذلك الوقت وكان يدعى محمد باشا إبراهيم، وفوجئت بهذا النائب العام يوجه لى اتهامًا جديدًا لا علاقة له بالاعتداء على سعد باشا، ويتلخص هذا الاتهام الجديد فى أنى أتزعم مؤامرة قلب نظام الحكم فى البلاد بالاتفاق مع خديو مصر السابق عباس حلمى الثانى، وذلك بقتل جلالة الملك فؤاد وإعادة الخديو عباس لتولى الحكم فى البلاد!! وعند سماعى لهذا الاتهام الجديد ارتاحت نفسى لاستبعاد تهمة الاشتراك فى الاعتداء على سعد باشا عنى، لكنى دهشت لأن يوجه إلىّ مثل هذا الاتهام الذى يتنافى مع علاقتى بالخديو الذى

يعتقد أنى أعاديه وأقف فى طريق مساعيه، وعلى كل حال فهو اتهام ضخم يشعرنى بأن سلطات الأمن قد أخذت عنى فكرة بأنى شخص ذو قوة ونفوذ لدرجة أنى أتآمر على قلب نظام الحكم، وكيف لا أعرف أنا عن نفسى أنى بهذه القوة!!».

«وبدأ النائب العام بسؤالى إذا كنت قد قابلت الخديو بإيطاليا، وأجبت بأنى قابلته، ثم أخذ يلقى علىّ أسئلة أخرى وأجيب عليها، لكنى لاحظت أن كاتب التحقيق لا يدون كل الأسئلة التى يلقيها علىّ النائب العام وإجابتى عليها، بل إنى لاحظت أن النائب العام يشير إلى الكاتب بألا يدون كل إجابتى على الأسئلة التى يدونها الكاتب، فسألت النائب العام: لماذا لا يدون الكاتب كل الأسئلة وكل الإجابات؟ فرد النائب العام قائلاً: هذا شغلى وليس لك أن تعترض عليه، فقلت له: إن شغلك هذا يخصنى ويجب عليك أن تتبع فيه القواعد المتبعة فى التحقيقات، وهى أن كل سؤال تلقيه عليه يدون، وكل كلمة أرد على سؤالك بها تدون أيضًا».

«وكنت قد لاحظت أيضًا أنه عند إلقاء أى سؤال يرفع النائب العام غطاء المكتب (السومان) الذى أمامه وينظر إلى شىء تحته فقلت له: إنى أريد أيضًا أن أرى ما تحت هذا (السومان)، فانزعج ووضع كلتا يديه على (السومان) وصاح قائلاً: لن أريك شيئا، ففهمت من كل ذلك أن هناك تهمة ملفقة ضدى وموضوع لها أسئلة معينة وإجابات معينة، فقلت للنائب العام: إذا كنت لا ترينى ما هو موجود تحت يديك فأنا ممتنع عن الإجابة عن أى سؤال توجهه إلىّ، ولك أن تحيلنى إلى محكمة الجنايات من الآن، فهاج النائب العام وأخذ يصيح: ما هذه الأخلاق؟ وما هذا الاستهتار بكرامة النيابة؟ يجب أن تجيب على الأسئلة التى توجه إليك، فقلت: أنا لا أجيب على أسئلة يوجهها إلىّ رجل ليس له ضمير، أنت مسخر لتلفيق تهمة خطيرة ضدى وأنا برىء منها».

«وهممت بالخروج من الحجرة فنادى العسكرى الذى كان موجودًا أمام الحجرة وقال له: لا تدع هذا الأفندى يخرج من الحجرة، فجلست وقلت: سأبقى ولكنى لن أجيب بأى كلمة، ثم وجه إلىّ سؤالاً فلم أجب، وكرر السؤال ثلاث مرات وأنا لا أجيب، فنادى الضابط الذى كان قد أحضرنى من السجن وقال له: أعده إلى السجن، فعدت إلى السجن».

(٩٣)

ويروى سيد باشا كيف استطاع أن يستثمر موقفه الصعب وأن يحيله إلى ما جعل السلطات تحسن معاملته:

«. . . وفى اليوم التالى جاء ضابط برتبة ملازم أول، عرفت فيما بعد أنه الملازم عبد المحسن الشاذلى، ليأخذنى للتحقيق، ولاحظت أنه يهم لأن يضع فى يدى القيد الحديدى (الكلابش) فبادرته بصفعة قوية على وجهه قائلاً له: أنا لست مجرمًا لتضع فى يدى القيد الحديدى، فذهل الضابط ولم يقاوم وسلم القيد للعسكرى الذى كان معه وقال لى: تفضل للتحقيق، ودهشت لاستسلامه وقلت فى نفسى لعله أدرك أنه أخطأ، ولكن اتضح لى فيما بعد أنه خاف من أن يصيبه أذى من جماعتى حيث كانت إحدى الصحف الأجنبية التى تصدر بالقاهرة (قد) ذكرت فى اليوم السابق أنى أتزعم جماعة الفدائيين، وأن هذه الجماعة تسعى لتهريبى من السجن وستقاوم كل مَنْ يتعرض لها بالسلاح، وأرانى هذه الجريدة أحد موظفى النيابة وأنا منتظر بمكتب النيابة قبل استدعائى للتحقيق».

«ثم اقتادنى الضابط الشاذلى إلى حجرة النائب العام، ولما دخلت عليه بادرنى بقوله: أرجو أن يكون مزاجك اليوم أحسن، فقلت: نعم، لقد تحسن مزاجى بوضع القيد الحديدى فى يدى، ألم تأمر الضابط بذلك؟ فقال: أبدًا لم آمره بشىء يزعلك، ثم نادى الضابط وقال له: هل أنا قلت لك ضع القيد الحديدى فى يد الأفندى؟ فأجاب الضابط بالنفى، وقال: إنها تعليمات البوليس أردت أن أنفذها فنالنى صفعة على وجهى، فبدا على وجه النائب العام بعض الاضطراب ثم أخذ يلاطفنى وألقى علىّ سؤالاً فلم أجبه، وكرر إلقاء السؤال فلم أجبه، فقال: أنت مصمم على عدم الإجابة؟ قلت: نعم، فقال: سأرفع الأمر إلى معالى وزير الحقانية، قلت: افعل ما ترى، فنادى الضابط وقال: أعده إلى السجن، وعدت إلى السجن».

«بقيت بالسجن أسبوعين لم أُطلب خلالهما لأى تحقيق، ولا أعرف شيئًا عما اتخذ بشأنى، وبعد مرور الأسبوعين وفى مساء أحد الأيام استدعيت للتحقيق وفى دار النيابة أُدخلت حجرة بها هيئة مكونة من أكثر من ثمانية أشخاص كنت أعرف منهم محمد

سعيد باشا وزير المعارف وقتئذ، الذى كنت اتهمت بالاشتراك فى إلقاء قنبلة عليه عندما كان رئيسًا للوزارة سنة ١٩١٩، ثم محمد عاطف بركات وكيل وزارة المعارف وقتئذ، أما الباقى فلم أكن أعرف منهم أحدًا، ثم عرفت فيما بعد أنه كان منهم محمد زكى الإبراشى باشا رئيس الخاصة الملكية فى ذلك الوقت، وحسن نشأت باشا وكيل وزارة الأوقاف فى ذلك الوقت أيضًا، وكان يتوسط الجالسين رجل نحيف الجسم، طويل القامة، ويرى بعين واحدة، عرفت فيما بعد أنه المستشار على بك سالم».

(٩٤)

ويقدم سيد باشا وصفًا تفصيليًا للتحقيق الذى أجرى معه فى حضور وزير المعارف، ووكيل وزارة المعارف، وشخصيتين كبيرتين من المعروفين بولائهم للقصر الملكى، وقد كان هذا التحقيق، فيما يبدو، هو الحل الذى توصل إليه سعد زغلول باعتباره رئيسا للحكومة فى مواجهة الاتهامات التى رمى بها سيد باشا، والتى لم يكن من الممكن للنيابة العامة أن تمضى فى خطواتها بعدما تأزم التحقيق الذى بدأه النائب العام بنفسه مع سيد باشا.

ونحن نرى فى وصف سيد باشا لجلسات التحقيق مدى ما يمكن للقضاء أن يحققه من عدالة، ومدى ما يمكن للسياسة أن تتورط فيه من أحكام جاهزة بناء على رغباتها وانحيازاتها:

«ولما وجدت نفسى أمام هيئة بهذا العدد من الأشخاص والشخصيات، ومن بينهم محمد سعيد باشا، أخذتنى الرهبة وقلت فى نفسى: هل أُحلت فعلاً إلى محكمة الجنايات؟ ولكن ما شأن محمد سعيد باشا ومحمد عاطف بركات بك بمحكمة الجنايات؟ فهل هى محكمة محلفين قد شكلت لمحاكمتى كما هو الحال فى أوروبا فى بعض القضايا الجنائية الكبيرة؟ لكن كيف يكون محمد سعيد باشا بين المحلفين الذين يحاكموننى وبينى وبينه خصومة؟ الواقع أنى تهيبت الموقف واضطربت فى بادئ الأمر، لكنى ما لبثت أن تجلدت وقلت فى نفسى: يفعل الله ما يشاء مادمت أنا بريئا من هذه التهمة، ويظهر أنه قد (بدت) على وجهى آثار هذه الرهبة فبادرنى المستشار على بك

سالم بقوله: «اتفضل اجلس ياسيد»، فاستأنست من ندائه لى باسمى حاف، ثم نادى العسكرى وطلب منه إحضار كوب ماء وفنجان قهوة لى، فشكرتُه وزاد استئناسى».

«وقبل أن تأتى القهوة قال لى على بك سالم: «أنت رفضت الإجابة أمام سعادة النائب العام، وهو أكبر رأس فى الدولة لمباشرة التحقيقات الجنائية، وقضية مهمة مثل قضيتك هذه لم يكن لغيره من رجال النيابة مباشرة التحقيق فيها، وأمام إصرارك على عدم الإجابة أمام النائب العام فقد أمر دولة رئيس الحكومة سعد باشا بتكليفى بمباشرة التحقيق معك لأن قضية مهمة مثل هذه القضية لا يمكن إحالتها على محكمة الجنايات بدون تحقيق بالبساطة التى تخيلتها، وأنى أرجو أن تساعدنى إلى الوصول إلى الحقيقة فى هذه القضية»، فقلت وقد استجمعت كل شجاعتى: «ثق ياسعادة الرئيس أنى سأجيب على كل ما يخصنى بصدق وصراحة».

«وبعد أن شربت القهوة أخذ رئيس التحقيق فى استجوابى، واستمر هذا الاستجواب نحو ثلاثة أشهر ظللت فيها معتقلاً، وكنت أطلب للتحقيق كل خمسة أيام أو ستة، وكان التحقيق معى يستمر نحو أربع ساعات فى كل مرة، وسأذكر فيما يلى أهم النقاط التى تحضرنى الآن من النقاط التى أثيرت فى التحقيق:

«١ ـ أطلعنى المستشار المحقق على صورة فوتوغرافية للخطاب الذى كنت أرسلته للخديو، لأقول له: إنه لا يمكن تحقيق ما يطلبه منى للأسباب التى ذكرتها فى الخطاب المذكور، وقال لى المحقق: «هل أنت كتبت هذا الخطاب؟»، قلت: نعم، فقال: «وماذا كنت تقصد بإرساله؟»، قلت: «كنت أقصد أن أرد على خطاب الخديو الذى أرسله إلىّ لأقول له بأنه لا يمكن تحقيق ما طلبه منى»، فرد الشخص الذى عرفت فيما بعد أنه الإبراشى باشا وقال: «ياسعادة الرئيس هذا الخطاب قد أرسل بقصد التمويه والتضليل، أمال أخذ من الخديو فلوس ليه؟»، فنظرت إلى الإبراشى نظرة ازدراء، ولم أقل شيئًا».

(٩٥)

ونمضى مع سيد باشا وهو يقيم للمحقق على بك سالم الأدلة على أن علاقته بالخديو عباس لم تتعد حدود التعاون اليسير من أجل دعم جمعية شبابية، وأنه على النقيض من

الاتهامات المجهزة ضده كان معاديًا للخديو، بل إنه، كما أشرنا من قبل كان يعتقد فى نفسه القدرة على طرد الخديو من إيطاليا:

«سألنى المستشار إذا كنت قابلت الخديو وأين قابلته؟ فقلت: قابلته عدة مرات فى روما وفى لوزان، وعندما ذكرت لوزان قال الإبراشى: «اسأله ياسعادة الرئيس لماذا سعى لدى الحكومة السويسرية لعرقلة سفر عبد الحليم بك البيلى وإبراهيم راتب من لوزان إلى أنقرة، وكانا ذاهبين فى مهمة لصالح مولانا جلالة الملك، فسكت على بك سالم ونظرت إلى الإبراشى نظرة ازدراء مبتسمًا، فهاج الإبراشى باشا وصاح قائلاً: «إزاى الجدع ده يحتقرنا كده.. إحنا مش ماليين عينه؟!»، فقلت بهدوء: «أنا لست جدعا ياحضرة، أنا دكتور بحكم أحد عشر عامًا لا تجرؤ أنت على الوقوف أمامهم، ثم أنا أحتقرك لأنك بدأت باحتقار نفسك، والشاعر يقول:

إذا أنت لم تعرف لنفسك قدرها هوانا بها كانت على الناس أهونا

فالاعتراضات والأسئلة التى توجهها لى لا تصدر إلا عن شخص لا يفهم ما يقول، فكونى أخذ من الخديو ثلاثين جنيهًا للمعاونة فى طبع النشرة التى تصدرها جمعية الطلبة المصريين فى روما لخدمة القضية المصرية، لا يعنى أن الخديو اشترانى بهذا المبلغ، ولا بمثله آلاف المرات، لاسيما وأنا أعلم أن الخديو اغتصب الكثير من أموال المصريين، فما أقل من صرف أمواله فى خدمة قضية المصريين».

«ثم إذا كان الخطاب الذى اهتممت بتقديمه للمستشار المحقق هو خطاب قصد به التمويه والتضليل، فلماذا اهتممتم بتقديمه؟ وهل لديكم غيره يؤيد ما تنسبونه إلىّ؟ إنى لا أخاف إلا الله، فلا حاجة بى للتمويه أو التضليل، والحقيقة أنى كنت دائمًا على خلاف مع الخديو وتسببت فى طرده من إيطاليا وعدم السماح له بدخولها مدة حياته، وبما لديكم من نفوذ يمكنكم أن تتحققوا من ذلك من الماركيز كولونا دى شيزارو وزير المستعمرات الإيطالية الأسبق، وهو موجود الآن فى روما».

(٩٦)

ويصل سيد باشا إلى ذروة الدراما فى التحقيق معه، حيث تحول بفضل ذكائه من متهم إلى مدع أحرج حسن نشأت نفسه:

«وعندما ذكرت هذه الجملة احمر وجه حسن نشأت وظهر عليه الارتباك، ثم قصصت للمستشار المحقق قصتى مع الخديو وقت انعقاد مؤتمر «جينوا»، ووقت انعقاد مؤتمر «لوزان»، ثم قلت: إن مَنْ كان الخلاف بينه وبين الخديو يصل إلى هذا الحد لا يمكن أن يتفق معه على أى شىء، ثم قصصت أيضًا قصة البلاغ الذى قدم ضدى لوزير المستعمرات الإيطالية وكيف انتهت نتائجه إلى طرد الخديو من إيطاليا وعدم السماح له بدخول إيطاليا طوال حياته، ولاحظت أن المستشار المحقق كان يسمع لسردى هذه الوقائع باهتمام كبير بالرغم من أنه أشار إلى الكاتب بعدم تدوينها، كما لاحظت أن حسن نشأت كان ممتقعًا ومهمومًا، ولاسيما وأنا أقص قصة طرد الخديو من إيطاليا».

«وبعد أن انتهيت من سرد الوقائع التى حدثت بينى وبين الخديو فى إيطاليا وفى سويسرا، التفت إلىّ زكى الإبراشى ووجهت إليه الكلام قائلاً: «أما قولك أنى سعيت لدى الحكومة السويسرية لعرقلة سفر اثنين من أعضاء وفد مصر لدى مؤتمر لوزان كانا ذاهبين لأنقرة فى مهمة لصالح جلالة الملك فؤاد فهو قول لا يصدر من طفل، فمن أنا فى سنة ١٩٢٣ حتى يتيسر لى أن أطلب من حكومة لها مركزها الدولى المرموق عرقلة سفر اثنين يقيمان بها، ويرغبان فى السفر إلى أى جهة يشاءان وهى بلد الحرية السياسية؟ ثم لماذا تجلس أنت هنا؟ وبأى صفة تستجوبنى وترمينى بالكذب والتضليل؟»، فانسحب زكى الإبراشى من الجلسة وتبعه حسن نشأت وبدا على وجه المحقق على بك سالم الارتياح وأخفى ابتسامة خفيفة».

وعند هذا الحد نجد سيد باشا يبدأ فى محاولة تبرير لجوء حسن نشأت إلى تلفيق الاتهام له:

«ومن احمرار وجه حسن نشأت وظهور الارتباك عليه عندما ذكرت قصة طرد الخديو من إيطاليا وخروجه مع زكى الإبراشى، أدركت أنه هو وراء تلفيق هذه التهمة ضدى وذلك لأنه كما سبق (أن) ذكرت كان فى أوروبا عندما طردت إيطاليا الخديو منها، ويبدو أنه عندما عاد إلى مصر ادعى أنه هو الذى تسبب فى طرد الخديو من إيطاليا، لذلك عمل على تلفيق هذه التهمة ضدى ليثبت أنى على وفاق مع الخديو، وعلى ذلك فلا يصدقنى أحد إذا قلت إننى الذى كنت مفتاح قرار طرد الخديو من إيطاليا».

(٩٧)

ونصل مع سيد باشا إلى نجاحه الفذ فى حمل سكرتير الخديو على الاعتراف بأنه أجبر على كتابة التقرير الذى قدم ضد سيد باشا لإثبات تواطئه مع الخديو على قلب نظام الحكم:

«عندما تلا علىّ المستشار المحقق تقريراً كتبه من يُدعى محمد توفيق فاضل السكرتير الخاص السابق للخديو عباس، وكان التقرير يتلخص فى أن محمد توفيق فاضل حضر حديثًا جرى بينى وبين الخديو عباس حلمى الثانى عندما كنا مجتمعين فى حجرته الخاصة بفندق بالاس بشارع فينتو بروما، وكان موضوع الحديث هو أن الخديو عباس حلمى اتفق مع سيد باشا على أن يضع تحت تصرفى جميع أمواله المودعة فى بنوك سويسرا وإيطاليا لأستعين بها فى الأعمال التى تؤدى إلى قتل الملك فؤاد وإعادة الخديو عباس لحكم مصر. كما أن الخديو سيصدر أوامر لجميع رجاله المقيمين بمصر ليكونوا رهن إشارتى».

«وبعد أن انتهى المحقق من تلاوة التقرير سألنى عما أقوله فيما جاء بالتقرير، فقلت: إنى لم أتحدث مع الخديو فى أى شىء من هذا القبيل قط، وكل الأحاديث التى جرت بينى وبين الخديو لم تخرج عن قوله إنه يحب مصر ويؤيد حركة الوفد، وأنه يرغب فى التعاون مع الوفد، وسأل المحقق محمد توفيق فاضل عما يقول فى ردى على ما جاء بالتقرير فقال: «إنهما كانا يتقابلان كثيراً ويتحدثان فى أحقية الخديو بعرش مصر»، ورأيت أن الموقف لن يحسم بتبادل عبارات النفى والإثبات بينى وبين محمد فاضل، ورأيت أن أندد بأقواله لأثيره وفى ثورته قد تظهر الحقيقة، فقلت: «ياحضرة المستشار، إن ما يذكره السكرتير السابق للخديو فى تقريره لا يمكن أن يكون حقيقة، بل هو مجرد خيال قد حلم به الخديو وقصه لسكرتيره ليفسره له، لأنه لو فرض وأنى أقدمت - لا قدر الله - على قتل جلالة الملك فؤاد فما هى القوة التى أملكها لإعادة الخديو إلى حكم مصر؟ إن مثل هذه القوة لا تكون إلا عند قائد جيش تفوق قوته قوة الجيش الإنجليزى الموجود فى مصر الآن، ولا يمكن أن يغيب ذلك عن الخديو حتى يخاطر بوضع أمواله ورجاله تحت تصرفى لإعادته لحكم مصر، ولا تصل به الغفلة إلى هذا الحد، وإذا وصلت به الغفلة إلى هذا الحد فما قيمة اتفاقه معى أو مع غيرى على أى شىء؟».

«ثم هل يبلغ بالخديو عدم المبالاة لدرجة أن يتحدث فى كلام خطير مثل هذا على مسمع من سكرتير له يعرفه أكثر من غيره، ويعرف أنه يمكن أن يُشترى بدراهم معدودة ليبوح بأى سر قدر له أن يعرفه؟».

(٩٨)

ويصل سيد باشا إلى الحديث بفخر عن نجاح خطته فى الإيقاع بسكرتير الخديو السابق:

«وكانت النتيجة كما توقعت، فما كدت أن أنتهى من هذه العبارة حتى اندفع محمد توفيق صائحا: «لأ.. لأ.. أنا لم أسمع حديثًا عن قتل أو جنايات، وإنما الذى سمعته أن الخديو طلب من سيد باشا أن يعمل له (بروباجندا) فى الصحف، ليس إلا»، وعندئذ ظهر الغضب على وجه المستشار المحقق وسأل محمد توفيق فاضل: «أليس هذا التقرير بخطك؟»، فأجاب: «هم أملوه علىّ ومضونى عليه»، فسأله المستشار: «ومَنْ هم؟»، فأجاب: «اللى جابونى من (إسطنبول)»، فقال المستشار: «إذًا، أنت لا تصمم على ما جاء بهذا التقرير»، فقال: «إن كل ما جاء فيه كذب فى كذب»، وبعد أن استوقعه المستشار على التحقيق أمره بالانصراف».

. . . . . .

«فى اليوم التالى للإفراج عنى قرأت فى الجرائد أن محمد توفيق فاضل حاول الانتحار فى ميناء الإسكندرية لأنه منع من السفر للخارج، وأُنزل من على ظهر السفينة التى كانت ستقله إلى تركيا، وعند سؤاله عن سبب محاولته الانتحار قال: إنه يخشى على حياته إذا بقى فى مصر».

(٩٩)

وليس من العجب أن يتطرق التحقيق مع سيد باشا إلى الحديث عن عقيدته فى تفضيل النظام الجمهورى، ونحن نراه قادرا على الدفاع عن مثل هذا الاتهام دفاعًا مقنعًا جعل المستشار المحقق يسأله: هل هو دكتور فى القانون؟:

«وجه إلىّ المستشار السؤال الآتى: «ذكرت فى مذكراتك اليومية التى وجدها البوليس فى منزلك وجاء بها أنك قرأت بعض كتب «ماتسينى» الإيطالى الجمهورى المشهور، وحضرت حفل ذكرى لتكريمه، وسررت بما سمعت من الخطب والأحاديث فى تلك الذكرى لأنها تتفق مع ميولك، فما هى ميولك السياسية؟»، فأجبت: «أظن أنه واضح أن ميولى مع ميول ماتسينى»، فقال المستشار: «أفهم من ذلك أنك تحبذ نظام الحكم الجمهورى؟» فأجبت: نعم، وما كدت أقول نعم حتى علا الاصفرار أوجه بعض الحاضرين، ثم تسللوا إلى خارج الحجرة التى كان يجرى فيها التحقيق».

«ثم قال المستشار: «أليست ميولك هذه يمكن أن تكون قرينة على أنك يمكن أن تفكر فى قتل جلالة الملك؟»، فقلت: «وهل يؤاخذ الإنسان على عقيدته؟ إن الدستور المصرى الذى ينص على أن نظام الحكم فى مصر ملكى، كما ينص على أن دين الدولة الإسلام، فهل أخذتم الأقباط فى مصر على عقيدتهم الدينية لأنها غير الإسلام حتى آخذ (يقصد: أؤاخذ) أنا على عقيدتى السياسية لأنها غير الملكية، أنا لم أمارس شيئا يخالف النظام الملكى، فلم أكتب فى الصحف ولا فى الكتب، ولم أتحدث بشىء يدعو للجمهورية أو يندد بالنظام الملكى، كما أنى لم أخالف أى قانون أصدره النظام الملكى، وكل ما فى الأمر أن عقيدتى السياسية تخالف مَنْ يعتقدون فى النظام الملكى».

«فسألنى المستشار: «أأنت دكتور فى القانون؟»، قلت: «لا.. أنا دكتور فى الطبيعة والرياضة».

(١٠٠)

ويورد سيد باشا بعد هذا بعض ما تضمنته نتائج التحقيق من تبرئة له من التهم التى نسبت إليه، لكنه يأسف من أن وزارة المعارف، وكنا لانزال فى عهد وزارة سعد زغلول، كانت قد أصدرت قرارًا بفصله من العمل.

ولسنا نعرف لماذا انصرف سيد باشا عن أن ينال حقه من خلال معرفته بسعد زغلول نفسه!:

«وكما ذكرت استمر التحقيق معى ثلاثة أشهر، ثم أفرج عنى بعد أن فشل تلفيق

التهمة، وتقرر حفظ القضية لعدم وجود أدلة، وكتب المستشار المحقق فى نهاية ما كتبه عنى فى تقرير حفظ القضية ما يلى:

«ومما يذكر أن سيد محمد باشا يعمل لصالح القضية المصرية بإخلاص وبكل ما يستطيع عمله، ولا يمكن لأحد مهما بلغ مركزه أن يؤثر عليه أو يحوله عن مبادئه، ونشر تقرير الحفظ فى جريدة «البلاغ».

«خرجت من الاعتقال أوائل أكتوبر ١٩٢٤، وذهبت لاستئناف عملى بمدرسة الهندسة وإذا بى أفاجأ بتسليمى قرارًا يقضى بفصلى من العمل».

«وعندما علم طلبة مدرسة المهندسخانة بفصلى قاموا بمظاهرة بقيادة الطالبين أحمد عبده الشرباصى، وعبد المجيد بدر، احتجاجًا على فصلى، وجاءنى كثير من طلبة المدرسة لإظهار أسفهم لقرار الوزارة الخاطئ، وشكرتهم على شعورهم».

(١٠١)

وتنفرد مذكرات سيد باشا، دون المذكرات والكتابات التاريخية، بتقديم تصور كامل لقضية مقتل السردار، وهو يلجأ فى إكمال الصورة التى يرسمها إلى بعض ما قد يوصف بالتعسف أو التزيد فى الاستنتاج، لكننا لا نستطيع أن ننفى أن تصوره كفيل بحل كثير من الألغاز فى هذه القضية المعقدة التى لاتزال بعض جوانبها فى حاجة إلى التأمل والدراسة.

ومن السهل على الناقد التاريخى أن يطعن فى رواية سيد باشا بذكر عداوته السابقة لعبد الحليم البيلى مثلا، أو لحسن نشأت، لكننا لا نستطيع أن نوافق على مثل هذا الطعن، فقد كان خلاف الجانبين نفسه انعكاسا لموقفهما من الحركة الوطنية، ولم يكن خلافًا شخصيًا، وهكذا فإن سياق الاختلاف والخلاف يمضى فى صالح رأى سيد باشا ولا يمكن أن يؤخذ ضده.

على أننا نلاحظ فى رواية سيد باشا عنصرًا مهمًا غاب عن روايات عبد العزيز على، وعبد الفتاح عنايت وغيرهما، وهو العنصر المتعلق بشفيق منصور ومدى إسهامه فى هذه القضية، حيث يذهب عبد العزيز على وعبد الفتاح عنايت إلى أن شفيق منصور

برىء من الاشتراك فى هذه القضية، وأنه لم يكن موافقا على إتمام عملية الاغتيال على هذا النحو.

أما سيد باشا فإنه يقدم تحليلاً وتوصيفًا أقرب إلى المعقولية حتى وإن غابت حقائقه عن المشاركين فى الاغتيال أنفسهم، وهو يصور شفيق منصور متورطًا فى التهمة بسبب عدم وصوله إلى ما وصل إليه غيره ممن اعتبرهم أندادًا له فحسب، وهكذا لعب القصر على هذا الوتر حتى دفعه إلى المشاركة الفاعلة فى التخطيط للاغتيال على نحو ما تم.

(١٠٢)

أما دور محمود إسماعيل فقد حظى بتحليل جيد من سيد باشا، وهو تحليل ساعدت عليه معرفة مسبقة جيدة بالرجل وطباعه وتاريخه.

ومن العجيب فى هذا كله أن سيد باشا كان قريبًا جدًا من العملية، لكنه حرص على أن يبتعد عنها نهائيًا، وهذا هو ما نجاه من الاتهام:

«... وقد جرت أحداث هذه المؤامرة التى أطاحت بسعد باشا، كما أطاحت بحركة فدائيى سنة ١٩١٩ على النحو الآتى:

«كان شفيق منصور لما أفرج عنه بقرار العفو عن المسجونين السياسيين وخرج من السجن، قد انضم إلى الوفد وانتخب عضوًا بمجلس النواب واتخذ لنفسه صفة أحد زعماء الفدائيين القدامى، وبذلك اعتبر نفسه ندًا لكل من أحمد ماهر ومحمود النقراشى اللذين كان يشاع عنهما أنهما على رأس فدائيى سنة ١٩١٩، واتصل بهما ووثق صداقته بهما، كما أنه فتح باب مكتبه كمحام ليكون بمثابة منتدى لبعض مَنْ كانوا معه فى السجن من المسجونين السياسيين وبعض مَنْ اشتركوا فى حوادث الاعتداءات السياسية، وكان من أكثر الناس ترددًا على هذا المنتدى محمد نجيب الهلباوى، والطالبان عبد الفتاح عنايت، وعبد الحميد عنايت شقيقا المرحوم محمد عنايت الذى كان متهمًا مع شفيق منصور فى حادثته، و لكن لم تثبت عليه التهمة، ثم محمود إسماعيل الموظف بنظارة الأوقاف فى ذلك الوقت، وأصدق أصدقاء شفيق منصور، وذهب إلى هذا المنتدى من جماعتنا (المرحومان) إبراهيم موسى، ومحمد فهمى على،

وبحسن نية وطهارة قلب من جانبهما عرف منهما محمود إسماعيل أنهما اشتركا فى حوادث قتل الإنجليز، ولما علمت بذلك نصحتهما بعدم الذهاب إلى هذا المنتدى، إذ لا حاجة لنا فى الذهاب إليه».

«وكان سعد باشا عندما عاد من لندن بعد فشل مفاوضاته مع الحكومة الإنجليزية قد عدل وزارته وعين أحمد ماهر وزيراً للمعارف، ومحمود النقراشى وكيلاً لوزارة الداخلية، فأثار ذلك غضب شفيق منصور حيث لم يعين فى وظيفة كبيرة مثلهما وهو الذى يعتبر نفسه نداً لهما، ومن ثم أخذ شفيق منصور يندد بسعد باشا وسياسة سعد باشا».

«وانتهز رجال السراى، وعلى رأسهم حسن نشأت، ورجال دار المندوب السامى الإنجليزى وعلى رأسهم توبين مومير مدير الأمن العام بوزارة الداخلية المصرية هذه الفرصة للعمل على تنفيذ المؤامرة».

(١٠٣)

ويتهم سيد باشا حسن نشأت اتهامات واضحة ومبررة فيما يتعلق بقضية مقتل السردار:

«كان حسن نشأت فى ذلك الوقت وكيلاً لوزارة الأوقاف، فقرب إليه محمود إسماعيل الموظف درجة ثامنة بوزارة الأوقاف، ومناه بالترقية وتحسين الحال، وعينه موظفًا بسكرتارية حزب الشعب أو حزب الملك(!!) يذهب إليه بعد الظهر بمرتب عشرين جنيهًا، مع أن مرتبه بوزارة الأوقاف لا يتجاوز ١٢ جنيهًا، كما اختاروه وهو الموظف درجة ثامنة فى لجنة استقبال الملك، فى حفل افتتاح معرض الزهور، واستقبل محمود إسماعيل جلالة الملك مرتديا (بدلة ردنجوت) مع المستقبلين».

«وسلطه على شفيق منصور ليقول له إن جلالة الملك غير راض عن عدم تعيين شفيق منصور وزيراً، وأن جلالته يريد أن يعدل الوزارة أو حتى يغيرها كلها ليعين شفيق منصور وزيراً، لكن الإنجليز متمسكون الآن بعدم تغيير الوزارة، ولأجل أن يجعل المندوب السامى الإنجليزى يوافق على تغيير الوزارة يجب عمل حادثة كبيرة تهم

الإنجليز، كقتل شخصية إنجليزية كبيرة، وأكبر شخصية إنجليزية فى مصر هو سردار الجيش المصرى، وقام محمود إسماعيل بدوره فى المؤامرة خير قيام، ونجح بمعاونة عبد الحليم البيلى عميل السراى وصديق وزميل شفيق منصور فى المحاماة فى إقناع شفيق منصور بتزعم تدبير قتل السردار».

«ولم ينس محمود إسماعيل أن يذكر لشفيق منصور أن جلالة الملك فؤاد قد وعد وأكد بأنه سيصدر عفوًا عمن يقتلون السردار، إذا لا قدر الله عرفوا وحكم عليهم، وهكذا تراءى لشفيق منصور أن مركز الوزير قد صار قريبًا منه بسهولة، لكن مَنْ ينفذ واتفق شفيق منصور ومحمود إسماعيل على أن يكون المنفذون هم القائمون الآن بقتل الإنجليز».

«كان محمود إسماعيل، كما سبق (أن) ذكرت، (قد) عرف من إبراهيم موسى أنه يشترك فى حوادث قتل الإنجليز، فبحث عن مكانه وذهب إليه وقال له: «إن جلالة الملك سمع عنك وعن شجاعتك، وهو مسرور منك، ويريد أن تستمر فى قتل الإنجليز، ويسره أن تكون العملية القادمة هى قتل سردار الجيش المصرى وهو السير لى ستاك ليبرهن للإنجليز على أن المصريين (قادرون) على قتل أكبر رأس عسكرية إنجليزية فى مصر»، ورد إبراهيم موسى بأنه لا يشترك فى أى عملية من هذا القبيل إلا بموافقة سيد باشا».

«وجاءنى محمود إسماعيل وعرفنى بنفسه وأنه وطنى يحب بلاده، وأنه موظف بوزارة الأوقاف، وأنه موفد من قبل وكيل وزارة الأوقاف حسن نشأت باشا ليقول لى إن الباشا يرغب فى مقابلتك ليعتذر إليك عما حدث من اتهامك فى مؤامرة قلب نظام الحكم فى مصر، وأن نشأت باشا سيعمل على إصلاح الحال بينك وبين السراى، ورد اعتبارك بتعيينك فى الوظيفة التى تستحقها، واستطرد فى حديثه ليقول: إن الإنجليز يضايقون جلالة الملك ويعملون على الحد من سلطاته، وجلالته يريد أن يريهم أن بإمكان المصريين أن يقتلوا أكبر رأس فى الجيش الإنجليزى فى مصر، وأنت (سيد باشا) خير من يتزعم هذه الحركة، فقلت لمحمود إسماعيل: عُد إلى مَنْ أرسلك وقل له إن الوطنيين المصريين ليسوا بلطجية يؤجرون على القتل».

«ولما لم أستجب لرسالة محمود إسماعيل عاد للاتصال بإبراهيم موسى وحسّن له الاشتراك فى المؤامرة هو ومَنْ يختاره من زملائه، بحجة أنه استمرار لعمل الفدائيين لصالح مصر، وقال له: إن جلالة الملك وعد بأنه سيعفو عمن يشتركون فى العملية إذا لا قدر الله قبض عليهم ثم حكم عليهم بشىء».

(١٠٤)

ويصل سيد باشا إلى النص على ما يوحى به ما روى عن تأجيل عملية الاغتيال أسبوعا حتى أمكن إقناع إبراهيم موسى وغيره:

«وجاءنى إبراهيم موسى وقص علىّ ما جرى بينه وبين محمود إسماعيل من الحديث، فحذرته من الاشتراك فى العملية، وعرفته بأنها لصالح الملك والإنجليز وليس لصالح مصر، والمقصود بها إخراج سعد باشا من الحكم بصفته مسئولاً عن الأمن فى مصر، وأكدت عليه بعدم الاشتراك لا هو ولا أحد من زملائه فى العملية، لاسيما أنه كان مطلوبًا منه أن تنفذ العملية بعد أسبوع من وجوده معى، أى تنفذ يوم ١١ نوفمبر ١٩٢٤، وفى اليوم التالى عاد إلىّ إبراهيم موسى وأخبرنى أنه أبلغ محمود إسماعيل بعدم قيامه بالعملية أو الاشتراك فيها، لأنها ليست لصالح مصر كما عرفته، لكن محمود إسماعيل رد عليه بقوله: إن سيد باشا ضد الملك وكان متهمًا فى مؤامرة لقتل الملك، وخرج من الاعتقال منذ شهر فقط، لذلك فإن سيد باشا لا يحب عمل شىء لصالح جلالة الملك، فقال له: على كل أنا (إبراهيم موسى) غير موافق على الاشتراك فى هذه العملية، فاطمأننت أنا (سيد باشا) لعدم تنفيذ المؤامرة».

«ثم ذهبت ليلاً إلى منزل سعد باشا فلما رآنى قال ضاحكًا: «هل جئت لتصالحنى؟»، فقلت: «وهل دولتك زعلان منى؟»، فقال: «لا ولكن من مدة طويلة لم أرك حتى لما خرجت من اعتقالك لم تأت لزيارتى، أنا كنت متتبع سير التحقيق معك، وطمنى عليك المستشار على سالم، وقال لى إنك كنت قوى وجرىء أثناء التحقيق معك، وأنك هزأت بتوع السراى»، فقلت: «هذا هو حكم الظروف علينا يادولة الباشا»، ثم قال: «خير إن شاء الله»، فقلت: «جئت لأنبه دولتك أن الأعداء

بدأوا ينصبون لدولتك الشراك كما توقعنا، وقصصت له ما كان من أمر محمود إسماعيل ونشأت باشا، فقال: «الله يكفينا شرهم، وأنا واثق من أنك تتصرف بحكمة».

«وفى يوم ١٩ نوفمبر ١٩٢٤ قتل السردار، أى أن ميعاد تنفيذ قتله قد أجل أسبوعا لإقناع إبراهيم موسى بالاشتراك فى قتله، واشترك معه فى القتل من زملائه على محمد، وراغب حسن، كما اشترك كمراقبين عبد الفتاح عنايت، وعبد الحميد عنايت».

«وبقتل سير لى ستاك ضرب الإنجليز عصفورين بحجر واحد، فتخلصوا من حكم سعد باشا، وقضوا على حركة فدائيى ١٩١٩ قضاء مبرمًا كما سأبين ذلك، وتم ذلك بتدبير دنىء اشترك فيه رجال السراى والمخابرات الإنجليزية فى مصر، ودار المندوب السامى».

(١٠٥)

ويقدم سيد باشا مجموعة كبيرة من الأدلة والقرائن على أن قتل السردار كان بتدبير وتحريض السراى والمندوب السامى الإنجليزى فى مصر؟ وهو يقدم أدلة جيدة تدل على تفكير منطقى، وعلى قربه من مسرح العمليات، ومن مسرح الأحداث معًا، ومع احترامنا لآراء سيد باشا فإننا لن نمنع أنفسنا من أن نعلق عليها بعض تعليقات سريعة من قبيل القول بأن بعضها لا يعدو أن يكون فى إطار تقاطع المصالح، أو توافق الغايات من مساع مختلفة:

«١ ـ أفاد الإنجليز والسراى من قتل السردار بإخراج سعد باشا من الحكم، وهو الأمر الذى كانوا يسعون إليه ويعملون من أجله، لأن سعد باشا أخذ يقاوم تدخل السلطات الإنجليزية فى شئون مصر ويحد من نفوذ الملك وفرض سلطاته، وإلزامه باحترام الدستور».

«٢ ـ وصول الأسطول الإنجليزى لميناء الإسكندرية قبل مقتل السردار بساعات وقبل تقديم الإنذار لسعد باشا بدون سابق إعلان، وهذا يدل على أن هناك تدبيرا يدبره المندوب السامى ويحتاج لوجود الأسطول الإنجليزى فى الإسكندرية لتهديد مصر».

«٣ ـ كان السردار قد حدد سفره للسودان يوم ١٣ نوفمبر ١٩٢٤ وأخبر المندوب السامى الإنجليزى فى مصر بموعد سفره صباح يوم ١٢ نوفمبر ١٩٢٤، ثم فوجئ فى مساء ذلك اليوم برجاء جاء من المندوب السامى ليؤجل سفره ليوم ١٩ نوفمبر لأمر مهم، وسأل السردار عن الأمر المهم الذى يستدعى تأجيل سفره فإذا به تقرير ياور جلالة الملك فؤاد وكبار ضباط الجيش المصرى إقامة حفل تكريم السردار فى نادى ضباط الجيش المصرى مساء ١٨ نوفمبر ١٩٢٤، ولم يكن ذلك صحيحًا، فالأمر المهم الحقيقى لتأجيل سفر السردار كان السعى لإقناع إبراهيم موسى وزملائه لتنفيذ عملية قتل السردار».

«٤ ـ رفضت أرملة السردار أن تأخذ من مصر الفدية التى قررها لها المندوب السامى الإنجليزى فى إنذاره، وقالت: إن إقامة حفلة التكريم لزوجها مفتعلة لتأجيل سفر زوجها حتى يتم الاستعداد لقتله، لأنه كان موجودًا بالقاهرة منذ ثلاثة أسابيع ولم يفكر الضباط المصريون فى تكريمه إلا يوم سفره، وقالت: إنها مقتنعة بأن المندوب السامى الإنجليزى كان على علم بالترتيبات التى كانت تعمل لقتل زوجها، ولذا رفضت أن يودعها المندوب السامى بمحطة مصر عند سفرها لإنجلترا بعد قتل زوجها».

«٥ ـ فى أوائل نوفمبر ١٩٢٤ وأثناء وجود السردار فى القاهرة بعث اللورد اللنبى المندوب السامى فى مصر إلى حكومته يقول فيها: إنه ينتظر الفرصة المناسبة لتحدى الحكومة المصرية، وكان الأحرى به أن يقول إنه يعمل على تهيئة الفرصة لتحدى الحكومة المصرية».

«٦ ـ فى الساعة الحادية عشرة من صباح يوم ١٩ نوفمبر ١٩٢٤، أى قبل مصرع السردار بساعة ونصف (الساعة)، ذهب ممثل إنجلترا فى عصبة الأمم فى جنيف وقدم لسكرتير العصبة تحذيرًا فحواه أن إنجلترا تعتبر أى تدخل من جانب أى دولة فيما يمكن أن تتخذه إنجلترا من إجراءات فى مصر عملاً عدائيًا ضدها، وذلك تطبيقًا للتحفظات الواردة فى تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ الذى أعلنت إنجلترا فيه رفع حمايتها عن مصر، وهذا يعنى أن إنجلترا كانت بصدد اتخاذ إجراء ضد مصر، وهو الإجراء الذى اتخذته بعد قتل السردار، أى أن إنجلترا كانت تعلم أنه سيقع فى مصر حادث يستوجب اتخاذ

إجراء وهو طرد الجيش المصرى من السودان، ووصول الأسطول الإنجليزى إلى الإسكندرية، وتغريم مصر نصف مليون جنيه».

«٧ ـ فى سنة ١٩٣٨ نشر عدد من الصحفيين الأمريكيين تحقيقًا أجروه فى عدة جهات بشأن قتل السردار لى ستاك، وانتهوا فى تحقيقاتهم إلى نتيجة مؤكدة، هى أن المخابرات الإنجليزية هى التى قتلت أو عملت على قتل سير لى ستاك».

«٨ ـ مصاريف حفلة تكريم ضباط الجيش لسير لى ستاك دفعتها السراى مناولة من حسن نشأت».

«٩ ـ بعد مصرع السردار بساعة واحدة ذهب محمود إسماعيل راكبًا موتوسيكلا إلى منزل عبدالحليم البيلى فلم يجده، فقال للخادمة: أخبريه عندما يعود أن العملية قد تمت».

«١٠ ـ دفع حسن نشأت أتعاب المحامى الذى دافع عن محمود إسماعيل فى قضية مصرع السردار».

«١١ ـ قال أحمد إسماعيل شقيق محمود إسماعيل وهو يدلى بشهادته أمام المحكمة التى نظرت قضية مصرع السردار وهو يشير إلى قفص المتهمين: إن هذا القفص ينقصه المجرم الأصلى الذى قتل السردار، وهو حسن نشأت».

«١٢ ـ قال محمود إسماعيل قبل شنقه بدقيقة: «إن دمى ويُتم ابنى على رأس مَنْ غرر بى وتخلى عنى»، ومحمود إسماعيل يقصد حسن نشأت الذى كان (قد) وعده باستصدار عفو من الملك عن الفاعلين لو عرفوا وحكم عليهم بشىء».

«١٣ ـ بعد صدور حكم الإعدام على شفيق منصور فى قضية مصرع السردار وقف فى الزنزانة التى كان مسجونًا بها وأخذ يصرخ ويقول بأعلى صوت: «يا محمود يا إسماعيل، اعترف بأن حسن نشأت هو الذى حرضك على قتل السردار، وأفهمك بأن ذلك يهم (رءوسا) كبيرة»، كما قال معلومات أخرى، ودوّن مأمور السجن تصريحات وصرخات شفيق منصور، كما دونها أيضًا وكتب تقريرًا عنها الضابط الإنجليزى إنجرام وكيل حكمدار القاهرة وقتئذ الذى تصادف وجوده فى السجن أثناء صياح شفيق منصور، وكان ذلك يوم ٣١ يوليو ١٩٢٥، وكان من الواجب أن يقدم إنجرام تقريره

وتقرير مأمور السجن إلى النائب العام فى ذلك اليوم أو اليوم الذى يليه لمناقشة شفيق منصور ومَنْ ذكرهم فيما صدر منه من تصريحات خطيرة، لكن إنجرام لم يقدم التقريرين إلى النائب العام إلا بعد إعدام شفيق منصور يوم ١٩ نوفمبر ١٩٢٥، وكان شفيق منصور قد أعدم يوم ٢٣ أغسطس ١٩٢٥».

«١٤ ـ عندما كانت تجرى الترتيبات فى إدارة الأمن العام لتلفيق التهم فى القضية التى عرفت بقضية الاغتيالات السياسية، وقيل إن عبد الحليم البيلى قد يكون ضمن المتهمين فى تلك القضية، بادرت السراى بتعيينه بسفارة مصر بتركيا ليكون خارج البلاد ولا يتسنى القبض عليه».

(١٠٦)

ونأتى إلى ما يرويه صاحب هذه المذكرات عن الوقائع التى كان هو نفسه (أى سيد باشا) طرفًا فيها:

«بعد قتل السردار بيومين جاءنى الحاج أحمد جاد الله وقال: إنه متألم لما حدث لأن إبراهيم موسى كان (قد) أخبره أنى غير موافق على هذه العملية، ولكنهم أخذوه للملك والملك قال له: «على شان خاطرى اعمل العملية دى لأنها لصالح مصر»، فتورط إبراهيم ونفذ العملية وأخذ معه من رجالنا راغب ومحمد فهمى، ولكنه الآن ندم وتأكد أنك كنت تمانع فى تنفيذ العملية لصالح الوطن بعدما رأى النتائج، وهذا هو قضاء الله وأمره، فقلت له: «نعم هذا هو أمر الله، وليس لنا فى أمر الله حيلة»، وانصرف الحاج أحمد، وبقيت أفكر فى الأسباب التى أدت إلى أمر الله فينا، ولكنى لم أهتد».

«وقُتل السردار، واستقال سعد باشا، ودفعت مصر الفدية، وطرد الجيش المصرى، والموظفون المدنيون من السودان».

(١٠٧)

ويلقى سيد باشا أضواء كاشفة على طبيعة الدور الذى لعبه نجيب الهلباوى فى الإيقاع بالمتهمين فى حادث مقتل السردار:

«كان هذا الملعون، يتردد على مكتب شفيق منصور على اعتبار أنه صديقه وزميله فى السجن، وكان يعلم بالطبع من المخابرات أن فى مكتب شفيق منصور بعض مَنْ يعرفون المعتدين وأولهم شفيق منصور، ولكنه تصور أن شفيق منصور يصعب استدراجه للاعتراف بالفاعلين، فاتجه لأضعف الأشخاص الذين يترددون على مكتب شفيق منصور وهما الطالبان عبد الفتاح عنايت وعبد الحميد عنايت، وتقرب إليهما وأبدى لهما ودًا كبيرًا على اعتبار أنه كان صديقًا لأخيهما المرحوم محمود عنايت، الذى كان متهمًا فى قضيته، ومن ثم استدرجهما حتى عرف منهما مَنْ قاموا بقتل السردار»،

«وبعد بضعة أيام جاء ليقول لهما إن رجال الأمن قد حصلوا على معلومات تفيد بأن عبد الفتاح عنايت وعبد الحميد عنايت قد اشتركا فى قتل السردار، ولهذا فإن رجال الأمن يعملون الآن الترتيبات للقبض عليهما، وحتى لا يتمكن رجال الأمن من القبض عليهما ينصحهما بمغادرة مصر بأية طريقة، وأسهل طريقة للخروج من مصر هى عبور الحدود بين مصر وليبيا والفرار إلى ليبيا، ثم هون عليهما الأمر بتطوعه لمساعدتهما ومرافقتهما لغاية الحدود المصرية ـ الليبية، لأن صداقته لأخيهما توجب عليه ذلك، ووثق الشابان بصدق نصيحة الغادر، ووصلا وهو معهما إلى حدود مصر ـ ليبيا، وهناك كان الذى أعاد الثلاثة إلى سجن مصر».

«واستمر الهلباوى فى تقمص الناصح المخلص ليحمل الشابين على الاعتراف بارتكاب الحادثة وذكر أسماء زملائهما، على أساس أن يكونا شاهدين، فنجح مع عبد الفتاح ولم ينجح مع عبد الحميد، واعتقل شفيق ٠، ومحمود إسماعيل، وإبراهيم موسى، واستعمل معهم الضغط الشديد وتسليط الأضواء القوية والتيارات الكهربائية على رءوسهم، فلم يضعف منهم إلا شفيق منصور، حيث اعترف أنه هو ومحمود إسماعيل المحرضين والباقى منفذين ومراقبين، ولما آنسوا الضعف فى شفيق منصور استكتبوه ما سموه بالاعترافات عن حوادث القتل السابقة، ودسوا فى تلك الاعترافات معلومات القليل جدًا منها الصحيح والكثير جدًا منها ملفق».

(١٠٨)

ويتحدث سيد باشا مبكراً عن إدراك عريان يوسف سعد المبكر لتحول نجيب الهلباوى عن انتمائه الوطنى، وتحوله إلى عمالة المخابرات السياسية:

«. . . وفى أحد لقاءاتنا (الضمير يعود عليه هو ويوسف العبد وعريان يوسف سعد) وكنا نجلس بقهوة «النيو بار» بميدان الأوبرا، وفد علينا محمد نجيب الهلباوى الذى كان اتهم مع شفيق منصور ومحمد شمس الدين فى محاولة إلقاء قنبلة على السلطان حسين ١٩١٥ وحكم عليه بالسجن مدة ١٥ سنة وأفرج عنه مع المسجونين السياسيين بقرار وزارة سعد باشا، وقدمه لنا الأخ عريان باعتباره صديقا له تعرف عليه بالسجن، وجلس معنا مدة ثم انصرف، وبعد انصرافه قال لنا الأخ عريان: إن هذا الرجل قد ظهر عليه الثراء، وأعتقد أنه قد اتصل بالمخابرات السياسية وأصبح مخبراً، لأنى قد كنت علمت ونحن فى السجن أنه قد جرت معه مفاوضات فى هذا الشأن، ومظهره الآن يدل على أن تلك المفاوضات قد نجحت وقبض الأتعاب، لأنى أعلم أن حالته المالية العادية لا تسمح له بأن يكون بالمظهر الذى يظهر به لآن، وفكرنا أن نتأكد من هذا الأمر ونقتله إذا كان صحيحًا، ثم عدلنا عن ذلك حيث رأينا أنه لا يستحق اهتمامنا لدرجة أن نعمل على قتله، ويكفى أن نتجنبه».

(١٠٩)

على أن سيد باشا يواصل نهجه الفكرى والنقدى فى تعامله مع قضية مقتل السردار إلى أن يصل إلى أن يشخص أن خمسة من الذين أعدموا شهداء، وأن اثنين منهم ذهبا ضحية أطماعهما:

«وعلى أساس تلك التلفيقات اعتقل آخرون غير مَنْ اشتركوا فى الحادث من فدائيى ١٩١٩ وحوكموا وحكم بالإعدام على سبعة من المواطنين المصريين، خمسة منهم شهداء وهم: إبراهيم موسى، وعلى محمد، وراغب حسن، من جماعتنا من فريق العمال، ومحمود راشد من الموظفين، وعبد الحميد عنايت من الطلبة، واثنان ذهبا ضحية لأطماعهما وهما شفيق منصور، ومحمود إسماعيل، أما عبد الفتاح عنايت فقد

حكم عليه بالسجن المؤبد ولم يعف عنه كما وعد، وقضى مدة العقوبة وخرج، وقبض الغادر الملعون نجيب الهلباوى مبلغ العشرة آلاف جنيه، واشترى عزبة بأبى الوقف».

«وقد حزنت، بل وتألمت ألمًا شديدًا لموت إبراهيم موسى، وعلى محمد، وراغب حسن شهداء الوطن وزملائى فى المعركة، وقد شاركنى فى هذا الحزن زعيمنا المرحوم سعد باشا، حيث قابلته بعد إعدامهم بنحو ثلاثة شهور فقابلنى بالأحضان وقبلنى وقال: «أعرف أنك حزين على زملائك، وأنا أشاركك هذا الحزن»، وهكذا أسدل الستار على الحادثة التى كانت وبالاً على مصر وشعب مصر وفدائيى مصر، ونصرًا مبينًا لسياسة الإنجليز وأعوانهم فى مصر».

(١١٠)

ويميل سيد باشا إلى القول بأن الإيقاع بشفيق منصور كان بمثابة البناء الذى بنى عليه قرار الاتهام:

«وبناء على ما استكتبوه لشفيق منصور وذكروا فيها معلومات ملفقة عن أحمد ماهر ومحمود النقراشى وأحمد جاد الله وآخرين، خاصة بحوادث قتل الإنجليز، قبضوا على هؤلاء وقدموا للمحاكمة فى قضية عرفت حينئذ بقضية الاغتيالات السياسية، وكان من بين أعضاء المحكمة التى نظرت القضية قاض إنجليزى اسمه كرشو، واستمرت المحاكمة نحو ثلاثة أشهر، ثم قضت ببراءتهم رغم أنف كرشو فى يوم ٢٥ مايو ١٩٢٦ عدا محمد فهمى على، وهو من جماعتنا، فقد حكم عليه بالإعدام، وقد ناجاه سعد باشا فى مذكراته حيث قال: «حكم على محمد فهمى بالإعدام، ولم يهتم أحد بذلك لأنه عامل، ولكن هل كان محمد فهمى يقتل ليستفيد أو كان يقتل دفاعًا عن وطنه لأنه يحب وطنه؟ إن محمد فهمى يستحق التقدير والجزاء».

«أما أنا فقد كان حزنى على إعدام محمد فهمى مجددًا لحزنى على زملائى الذين أعدموا من قبل، وعلاوة على ما تحملته من أحزان على زملائى الأبطال، رأيت من واجبى أيضًا احتمال بعض الالتزامات مما كان ملتزمًا بها إبراهيم، وهو تربية أولاد أخيه عبد الحميد موسى الذى مات شابًا وترك لأخيه إبراهيم ثلاثة قصر، مفيدة وكوكب

وإبراهيم، ليتولى إبراهيم موسى تربيتهم فعاونت فى تربيتهم حتى حصلت مفيدة وكوكب على شهادة كفاءة التعليم الأولى، وعينتهما مدرستين بروضة أطفال النيل التى كنت أحد أصحابها». «كما أنه من الواجب إقرار أن إبراهيم موسى وحسن راغب وعلى محمد ومعهم الحاج أحمد جاد الله ومحمد فهمى على، كانوا أبطالاً شجعانًا، مخلصين كل الإخلاص لوطنهم، راحوا ضحية فى مؤامرة غادرة دبرها لهم خونة قذرون وسياسيون لا ضمائر لهم، سعيًا لأطماع وشهوات شخصية ومبادئ استعمارية دنيئة، ولا يسعنى إلا أن أحنى رأسى تقديرًا لأعمالهم وإجلالاً لذكراهم».

«كما لا يسعنى إلا أن أذكر بالفضل أعمال بطلة ساهمت فى حوادث الفدائيين بإخلاص وشجاعة، هى السيدة أم إسماعيل زوجة المرحوم الحاج أحمد جاد الله. كانت هذه السيدة عندما يتقرر إطلاق الرصاص على أحد الإنجليز ويتحدد مكان إطلاق الرصاص تذهب وتجلس على بعد نحو خمسين مترًا من المكان الذى سيطلق منه الرصاص، وتضع أمامها «مقطف» مملوء بالفجل والخس أو الكرّات، وتحت الفجل أو الخس أو الكرّات كانت توجد المسدسات التى سيستعملها المنفذون، فيمر كل منهم عليها ليأخذ منها مسدسًا، وبعد تنفيذ العملية يعيد المنفذون إليها المسدسات التى أخذوها منها، وذلك ليدخل المنفذون المنطقة التى يطلق منها الرصاص ويخرجون منها مجردين من أى سلاح، فإذا حدث وقبض على أحد منهم لا يكون معه أى شىء يدل على اشتراكه فى العملية، أما أم إسماعيل فتبقى بعض الوقت ثم تقوم حاملة مقطفها بشجاعة وهدوء حيث لا يشك أحد بأن لها صلة بالحادث».

(١١١)

وعلى المستوى الشخصى فقد كان حادث مقتل السردار حاسمًا فى اتخاذ سيد باشا قراره بالتقاعد والابتعاد عن مجال العمل الفدائى:

«بعد إعدام هؤلاء الأبطال وكشف الكثير من أسرار عملنا، رأيت أنه لا مجال بعد ذلك لاستئنافه، وقررت التقاعد فى هذا المجال لأجاهد فى مجال آخر».

(١١٢)

ويكرر سيد باشا أسفه لوجود طائفة الذين يحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا ممن صوروا قادة للعمل الفدائى ولم يكونوا كذلك، وممن نالوا أمجاداً ومناصب نتيجة هذا التصوير دون أن يستحقوا من ذلك شيئًا.

وهو يضرب مثلاً على هذا السلوك باثنين من الفدائيين الذين نسبوا فضلاً قام به هو إلى النقراشى مع أن النقراشى لم يقم بهذا الفضل:

«وإنه ليؤسفنى ويحز فى نفسى أن أرى أناسا اتصلوا بالفدائيين من بعيد، إما لمعاونتهم بأعمال بسيطة بعيدة كل البعد عن أى خطر، وإما لصداقة بينهم وبين أحد الفدائيين يسرت لهم هذه الصداقة بطريقة عابرة معرفة شىء عن بعض أعمال الفدائيين الظاهرة أو السماع عنها، فاتخذوا من ذلك مجالات يصولون فيها ويجولون ويتحدثون عن أنفسهم وعن أعمال قاموا بها وهى منهم بريئة أو خيالية ولم يراعوا فيما يذكرونه أن المسألة مسألة تاريخ للأجيال القادمة، وليست مسألة مباهاة وسعى لقبض الثمن، وإن كان فى ذلك تجن على أناس، ونسبة أعمالهم إلى غيرهم الذين لم يأتوا منها شيئًا قليلاً أو كثيرًا، ولم يقتصر الأمر على ذلك، بل إن هناك أناسًا ادعوا أنهم مطلعون على بواطن الأمور، وتطوعوا لأن ينسبوا لآخرين ممن شغلوا بعض المناصب أعمالاً لم يفعلوا شيئًا منها مطلقًا، وذلك بقصد أن يرتفع أصحاب المناصب إلى مناصب أكبر جزاء لهم على ما قيل إنهم فعلوه، ثم يؤدى ذلك بالطبع إلى تبادل المنفعة».

. . . . . .

«وقد رأيت وسمعت أنا وإخوانى الفدائيين من هذا الكثير، وكنا نندهش لجرأة هؤلاء المتجنين على الحقائق والتاريخ، ولكننا لا نحاول تكذيبهم خشية أن نحيد عن مبدئنا، وهو عدم التحدث عن أعمالنا، وقد بلغ من جرأة بعضهم أن نسب إلى نفسه فى حضرتى عملاً قمت أنا به».

. . . . . .

«وقد انساق فى هذا التيار اثنان من إخواننا الذين اشتركوا معنا فعلاً فى بعض الحوادث، ونشروا على صفحات الجرائد ما سموه بمذكراتهم، فضخموا العمل الذى قاموا به، وزادوا فى وقائعه ليبدو عظيمًا، فقد ذكر الشيخ سيد على ومحمد خليفة فى مذكراتهم، أن النقراشى هو الذى سلمها القنابل التى ألقيت على محمد سعيد باشا فى الإسكندرية، ولم يكن ذلك صحيحًا، حيث تسلمها منى محمد خليفة».

(١١٣)

ويتطرق سيد باشا إلى نقد بعض التأليفات الخيالية التى نشرتها الصحف لأناس يصفهم بأنهم لم يكونوا على مستوى المسئولية فيما نشروه، ويخص بالنقد روايات المستشار كامل أحمد ثابت، الذى صور نفسه رئيسًا لجمعية اليد السوداء، ونسب إلى نفسه أمجادًا خارج سياق ثورة ١٩١٩:

«... وزاد بعض الصحف على ما نشر حكايات وتعليقات هى أقرب للخيال منها إلى الحقيقة، من ذلك نشرت جريدة الأخبار مذكرات أحد المواطنين (كامل أحمد ثابت) وهو الذى سفرناه بجواز سفر مزور، يقول فيها إنه كان رئيسًا لجمعية اليد السوداء فى سنة ١٩١٩، وأن أعمال هذه الجمعية كانت تتركز فى جمع البنادق وإرسالها للأرياف، وأن الجمعية قد حصلت على أكثر من ١٥٠٠٠ بندقية وأرسلت كلها الأرياف، ومن عجب أن ثورة ١٩١٩ لم تكن فى مواجهة ميدانية مع الإنجليز والجيش الإنجليزى حتى يتسلح المصريون المواجهون لهم بالبنادق أو المدافع، كما أن هذه المواجهة لم تكن فى الأرياف على الإطلاق، بل كانت المواجهة مع الإنجليز تتركز فى القاهرة، وكانت مواجهة خفية لا يستعمل فيه إلا السلاح الذى يمكن للسائر فى الطريق إخفاؤه، كالمسدس أو الطبنجة، ثم من أين يمكن الحصول على هذا العدد الضخم من البنادق فى مصر؟ ومَنْ الذى دفع ثمنه؟ وفى أى مكان جمع؟ وكيف وزع؟ أليس هذا مجرد خيال؟»،

«وبنفس هذا الخيال والجرأة فى التجنى على التاريخ نشر الأستاذ كامل أحمد ثابت (رئيس المحكمة السابق فى جريدة الأخبار أيضًا مرة أخرى أنه كان عضوا فى الجهاز

السرى سنة ١٩١٩، وأنه وهو فى إيطاليا كانت مهمته تهريب السلاح من إيطاليا إلى مصر عن طريق ليبيا، أليس هذا هذيانا؟ فمن كان يستقبل هذا السلاح فى مصر؟ وكيف كان التهريب من إيطاليا بالذات لليبيا؟ اتقوا الله يا متخذى الكذب على التاريخ للشهرة والتباهى».

(١١٤)

ويمتد سيد باشا بنقده إلى بعض مَنْ كتبوا التاريخ محاولين إعادة توزيع الأمجاد على طريقتهم، متخذا لذلك مثلا من محاولة فتحى رضوان الارتفاع بقامة عبد الرحمن فهمى على حساب سعد زغلول:

«وقد ساءنى أكثر ما ساءنى محاولة النيل من سمعة مَنْ عملوا بصدق وإخلاص فى ثورة ١٩١٩ كمحاولة الأستاذ فتحى رضوان النيل من زعامة سعد زغلول لثورة ١٩١٩ مدفوعًا فى ذلك بأغراض شخصية، ومآرب حزبية كان سبيله إلى ذلك إسناد زعامات أو بطولات لأناس مثل عبد الرحمن بك فهمى لا يستحقون هذه الزعامات أو البطولات، بل إنهم ليسوا فى مستوى الوصول إليها. فسعد زغلول هو مثال الوطنى الصادق، وبطل ثورة ١٩١٩، وبطل استقلال مصر بلا منازع ولا منافس، ولن يصل أحد إلى مستواه، أما عبد الرحمن بك فهمى فهو وإن كان مخلصًا صادق الوطنية، إلا نه لم يعلُ عن كونه اختير سكرتيرًا للجنة الوفد المركزية بالقاهرة، أؤتمن على التصرف فى جزء من أموال الوفد التى خصصت لأعمال سرية معينة، وهى طبع المنشورات، وتنظيم المظاهرات، وجمع المعلومات، ولغير ذلك من الأعمال السرية، حتى إن النقود التى كانت تؤخذ منه للحركة الفدائية، وإن كانت قليلة، لم يكن يعرف أنها للفدائيين، بل كان يقال له إنها لطبع المنشورات فحسب».

(١١٥)

ومع تحفظ سيد باشا على أسلوب مصطفى أمين فى نشر مذكرات قادة التنظيم السرى فى ثورة ١٩١٩، فإنه يشير إلى ما صرح به الرجل من أن السلطة الحاكمة لم

تتقبل فكرة اشتراك العمال فى ثورة ١٩١٩ ، مفضلة أن تصف الثورة فى خانة البرجوازية فحسب :

«لكن الأستاذ مصطفى أمين لم ينشر خطابى هذا ، وأوقف نشر ما كان ينشر من سلسلة أسباب فشل ثورة سنة ١٩١٩ ، ولما سألته عن السبب قال : إن سبب إيقاف نشر السلسلة هو ما جاء فى حديثك معى الذى نشرته ، حيث قلت إن العمال بقيادة المرحوم الحاج أحمد جاد الله اشتركوا اشتراكا فعليا فى ثورة ١٩١٩ ، وبالذات فى الحركة الفدائية . إن هذا القول لم يرق فى نظر القائمين بالسلطة وحلفائهم لأنهم متمسكون بأن ثورة سنة ١٩١٩ كانت حركة برجوازية محضة ، وليس للعمال فيها أى وضع ، وعلى ذلك أمرت السلطات الحاكمة بإيقاف نشر السلسلة» .

(١١٦)

ويروى سيد باشا ما يسميه كشف أعمال جماعة فدائيى سنة ١٩١٩ ، وقد حرصنا على وضع هذا الكشف على هيئة جدول تيسيرا على القراء والباحثين عند مقارنة هذه البيانات بغيرها مما نشره عبد العزيز على وعبد الفتاح عنايت وغيرهما :

«أولاً : فى مجال إلقاء القنابل على المصريين الذين يتعاونون مع الإنجليز :

١ ـ فى ١٩/ ٦/ ١٩١٩	محاولة إلقاء قنبلة على رئيس الوزراء محمد سعيد باشا **المتهم سيد محمد باشا ، وأحمد عبد الحى كيرة .**
٢ ـ فى ٢/ ٩/ ١٩١٩	إلقاء قنبلة على رئيس الوزراء محمد سعيد باشا **ألقاها سيد على محمد ، وقبض عليه وحكم عليه .**
٣ ـ فى ١٥/ ١٢/ ١٩١٩	إلقاء قنبلتين على رئيس الوزراء يوسف وهبة باشا **ألقاهما عريان يوسف سعد ، وسلم نفسه وحكم عليه .**
٤ ـ فى ٢٨/ ١/ ١٩٢٠	إلقاء قنبلة على وزير الأشغال حسين سرى باشا **ألقاها حسن توفيق ، ولم يقبض عليه .**

٥ ـ فى ٢٢/ ٢/ ١٩٢٠ إلقاء قنبلة على وزير الزراعة محمد شفيق باشا

ألقاها عبد القادر شحاتة، وحكم عليه.

٦ ـ فى ٨/ ٥/ ١٩٢٠ ألقيت قنبلة على وزير الأوقاف حسين درويش

ألقاها أحمد توفيق، ولم يحكم عليه.

٧ ـ فى ١٢/ ٦/ ١٩٢٠ ألقيت قنبلة على رئيس الوزراء توفيق نسيم باشا

ألقاها إبراهيم مسعود، وحكم عليه بالإعدام وأعدم.

٨ ـ فى يناير ١٩٢٢ محاولة إلقاء قنبلة على رئيس الوزراء عبد الخالق ثروت باشا

ألقاها أحمد عبد الحى كيرة، ولم يقبض عليه وسافر خارج البلاد.

ثانيا: فى مجال قتل صغار الضباط والجنود الإنجليز، كان ذلك بمعدل ثلاثة أو أربعة أشخاص فى الأسبوع فى المدة من ٢٠ مايو ١٩١٩ حتى منتصف ١٩٢٣.

ثالثا: فى مجال قتل كبار الضباط والشخصيات الإنجليزية:

١ ـ ٣/ ٤/ ١٩١٩ قتل مستر ديكسون المفتش بالسكة الحديد.

٢ ـ ٢٢/ ١١/ ١٩١٩ قتل الكابتن صمويل كوهين.

٢ ـ ٣/ ١٢/ ١٩١٩ قتل الكابتن درنك.

٤ ـ قتل الكابتن أديجون.

٥ ـ ٦/ ٥/ ١٩٢٠ قتل الكابتن هونج.

٦ ـ ١٣/ ١١/ ١٩٢٠ أطلق الرصاص على الضابط ناريت لكن لم يصبه.

٧ ـ ٢٠/ ١١/ ١٩٢٠ قتل الضابط بردفول.

٨ ـ ٢٤/ ٥/ ١٩٢١ قتل البكباشى كيت مساعد الحكمدار.

٩ ـ ١٥/ ٧/ ١٩٢١ أطلق الرصاص على الكولونيل نيحوت أصيب ولم يمت.

١٠ـ٣/٨/ ١٩٢١	أطلق الرصاص على مستر براون من كبار موظفى وزارة الزراعة فأصيب هو وابنه وخادمه وقتل سائقه .
١١ـ٣١/١٢/ ١٩٢١	أطلق الرصاص على المهندس هاتون رئيس هندسة الوابورات بالسكة الحديد ، فأصيب ولم يمت .
١٢ـ٤/١/ ١٩٢٢	أطلق الرصاص على مستر فاندرخت مدير شركة الترام ، فأصيب ولم يمت .
١٣ـ١٧/١/ ١٩٢٢	أطلق الرصاص على المهندس هوبكن ، فأصابه ولم يمت .
١٤ـ٢٥/١/ ١٩٢٢	قتل الصول دنكل .
١٥ـ١٥/٢/ ١٩٢٢	قتل مستر أدمون .
١٦ـ٢٠/٢/ ٩٢٢	قتل مستر جوردان .
١٧ـ٢١/٢/ ١٩٢٢	قتل مستر براون المفتش بالمعارف ، وأعلنت مكافأة ٥٠٠٠ جنيه لمن يرشد على القاتل .
١٨ـ٢٧/٢/ ١٩٢٢	أطلق الرصاص على المهندس بيتر .
١٩ـ١٤/٣/ ١٩٩٢	قتل مستر مكنتوش مدير القطارات بالسكة الحديد .
٢٠ـ١٩/٣/ ١٩٢٢	أطلق الرصاص على ضابطين إنجليزيين فى محطة كوبرى الليمون ، فمات أحدهما وأصيب الآخر .
٢١ـ٣/٧/ ١٩٢٢	قتل مستر برت مفتش بالسكة الحديد .
٢٢ـ٢٧/١٢/ ١٩٢٢	قتل مستر روبس أستاذ بمدرسة الحقوق .
٢٣ـ٢٩/١/ ١٩٢٣	قتل مستر روبرنس أستاذ بالحقوق ، وأعلن عن مكافأة ١٠٠٠٠ جنيه لمن يرشد على القاتل .
٢٤ـ٧/٢/ ١٩٢٣	أطلق الرصاص على مستر أملر .

(١١٧)

ويقدم سيد باشا صورة بديعة لمحاولات البوليس السياسى التأثير عليه هو ويوسف

العبد وعريان يوسف سعد من خلال ثلاثة من أقطاب البوليس السياسى حاولوا معه كل ما أمكنهم من ترغيب وتهديد :

«وفى يوم واحد من أيام شهر ديسمبر ١٩٢٥ ، وفى ساعة واحدة من ذلك اليوم، استدعينا أنا لمقابلة رسل باشا حكمدار القاهرة، وعريان سعد لمقابلة إنجرام بك مساعد حكمدار القاهرة، ويوسف العبد لمقابلة سليم زكى رئيس البوليس السياسى، ودهشنا لهذا الاستدعاء المفاجئ والمحدد لنا نحن الثلاثة فى وقت واحد، وذهبنا ليقابل كل منا مَنْ طلب لمقابلته» .

«وعندما دخلت مكتب رسل باشا بمحافظة القاهرة استقبلنى استقبالا حسنا وقدم لى فنجان قهوة، ثم جرى بيننا حديث طويل استغرق نحو ساعة ونصف ساعة كنا فى بعض الأحيان نتكلم باللغة العربية، وفى البعض الآخر باللغة الإنجليزية، وأهم ما جاء بحديثنا هو ما يلى :

«رسل : هل تعرف النقراشى؟» .

«أنا : نعم أعرفه» .

«رسل : يظهر أن علاقتك به قوية» .

«أنا : هى علاقة معرفة وزمالة مهنة واحدة، وهى مهنة التعليم» .

«رسل : أظن علاقتكما أكثر من علاقة مجرد معرفة لأنى أعرف أنه يوم أن كان مقبوضا عليك فى حادث الاعتداء على سعد باشا اتصلت بالنقراشى تليفونيًا من مكتب التحقيق وعاتبته لحصول القبض عليك وهو وكيل محافظة» .

«أنا : إن الإنسان عندما يكون فى شدة يحاول المساعدة من أى شخص له نفوذ، ولو كانت المعرفة بينهما بسيطة» .

«رسل : أظن أنه يهمك أن تعلم أن النقراشى بصفته وكيلاً للمحافظة فى ذلك الوقت هو الذى أشار بتفتيش منزلك والقبض عليك لاشتباهه أن تكون شريكًا فى الحادث» .

«أنا : لا أعتقد ذلك» .

«رسل: لدينا معلومات بأن النقراشى هو الذى أشار بخفض المرتب الذى كان قرره لك مجلس إدارة مدرسة الهندسة».

«أنا: نعم حصل ذلك وأخبرنى بوجهة نظره فى التخفيض».

«رسل: هذا مرتب كان يليق بمثلك الحاصل على الدكتوراه».

«أنا: لا أهتم كثيراً بالمادة».

«رسل: لكن لازم تعيش مبسوط وأنت خالى شغل».

«أنا: إن الله لا ينسى أحداً من عبيده، وأنا الآن أشتغل حراً وعندى إيراد طيب».

«رسل: تعرف أحمد ماهر؟».

«أنا: نعم أعرفه».

«رسل: هل علاقتك به مثل علاقتك بالنقراشى؟».

«أنا: تقريباً واحدة، فنحن كلنا معلمون ونتقابل باعتبار أننا من مهنة واحدة».

«رسل: لكنهما فى مراكز كويسة وأنت عندك دكتوراه ولم تأخذ وظيفة كويسة مثلهما مع أنك عملت مثلهما».

«أنا: هما موظفان من مدة وترقوا وأنا لازلت فى أول سلم العمل».

«رسل: أنت عملت زيهم فى الحركة الوطنية واشتركت معهم فى كل شىء».

«أنا: أنا لم أشترك معهما فى شىء، وإنما اشتركت مع زملائى الطلبة».

«رسل: أنت اشتركت معهما فى تدبير حوادث الاغتيالات السياسية».

«أنا: هذا غير صحيح، وأنا لم أشترك فى أى حادث معهما أو مع غيرهما».

«رسل: عاوزين ندخل فى الموضوع».

«أنا: أى موضوع؟».

«رسل: موضوع أبو الفرو اللى حطوه فى النار وشووه وأكلوه، والحكومة عاوزة تكافئ أبو الفرو وبس، تعرف منه اليد التى حطته فى النار، وإحنا نعرف أنك أنت

أبو الفرو، وأن يد أحمد ماهر والنقراشى هى التى حطتك فى النار، فأكد لنا الكلام ده ومكافأتك من الحكومة المصرية. هذا القرار الصادر من وزير الحقانية بتعيينك مساعداً للطبيب الشرعى بمرتب ٥٠ جنيهًا فى الدرجة الثالثة، أما مكافأته من الحكومة الإنجليزية فهى هذا الشيك على البنك الأهلى موقعًا من المندوب السامى على بياض تكتب فيه المبلغ الذى يرضيك ابتداء من ٦٠٠٠٠ (ستين) ألف جنيه، وهو المبلغ المذى صرفناه فى قضية قتل السردار، وليكن فى علمك أننا مستعدون لصرف عشرة أمثال هذا المبلغ لمعرفة الحقيقة فى قضية الاغتيالات السياسية. (وأكد بشدة على هذه النقطة ويظهر أنه كان يريد أن يفهمنى أنهم مستعدون أن يدفعوا لكل منا أنا وعريان ويوسف العبد مبلغ مائتى ألف جنيه، ثم استطرد يقول: «ولا نريد أن تقرر الحقيقة إلا بعد أن تصرف الشيك، وإذا أردت السفر للخارج فنحن نسهل لك ذلك».

«أنا: أشكرك إن هذا حظ لا يناله إلا مَنْ تفتح له أبواب السماء فى ليلة القدر، لكنه لا يأتينى لأنى لست أبو الفرو».

«رسل: شىء غريب، تقول إنك لست أبو الفرو بهذه البساطة والحكومة المصرية ودار المندوب السامى البريطانى موافقين على أنك أبو الفرو، فلماذا لا توافق أنت كذلك؟».

«أنا: لأنى لست أبو الفرو».

«ثم استأذنت وانصرفت تاركًا الشيك والقرار على مكتب رسل باشا، كانت المقابلة فى المساء بعد الغروب بقليل، واستمرت كما قلت نحو ساعة ونصف (الساعة)، وبعدما خرجت من عند رسل ذهبت إلى مقهى «النيوبار» حيث كنا تواعدنا أنا ويوسف وعريان على أن نتقابل هناك بعد أن ننتهى من مقابلاتنا، فوجدت يوسف قد سبقنى وسألنى عما جرى فى المقابلة فأخبرته بما حدث، فاندهش وقال: «لقد عرض عليه نفس العرض وكان ردى هو نفس ردك، كأننا على اتفاق»، وبعد قليل جاء عريان وكانت دهشتنا شديدة عندما قال لنا إنه أيضًا عُرض عليه نفس العرض، وكان رده مثل ردنا نحن الاثنين».

(١١٨)

ويتطرق سيد باشا بعد هذا إلى محاولات مستميتة بذلها البوليس السرى للإيقاع به وبزملائه دون جدوى وذلك بفضل حرصهم وذكائهم:

«ولما طاش هذا السهم الذى كان يراد به إصابة الوفد من يد رسل باشا وأعوانه، فكر رسل باشا فى تجديد العرض على أحمد عبد الحى كيرة، فاستدعانى رسل باشا مرة أخرى وقال: «لقد أبيت أن تعاون الحكومة على إظهار الحقيقة وتحقيق العدالة، ولكنى أظن أنك لا تتأخر عن معاونة الحكومة فى إنصاف زميل وصديق لك»، قلت: «ومَنْ هو ذلك الصديق؟»، قال: «أحمد عبد الحى كيرة، فهو الطالب الوحيد الذى لايزال مبعدا عن مصر بسبب الحوادث السياسية»، فقلت: «وماذا تريدون منى لإنصافه؟»، قال: «نريدأن تسافر إلى (إسطنبول) وتقنعه بالعودة إلى مصر، وتطمئنه بأن الحكومة لن تقدمه لأية محاكمة، وأنها ستعينه فى وظيفة مناسبة له»، ففهمت طبعًا أن المقصود هو المحاولة مع أحمد عبد الحى لاستخلاص شىء منه وليس المقصود الرأفة به، فتظاهرت بقبولى السفر لأنى كنت أعلم من اتصالاتى بأحمد أنه فى ضيق مالى لعدم وجود عمل يتكسب منه».

«وكنت أخشى أنه إذا عاد إلى مصر ربما يمكن التأثير عليه، ثم قال رسل: «إن مستر جريفيث مدير مكتب العمل بوزارة الداخلية سيسافر معك ليسهل لك مهمتك حيث سيأخذ معه قرارًا من الحكومة المصرية بعدم محاكمة أحمد إذا عاد»، فقلت: «لا بأس ويجب أن يسافر معنا أيضًا الشيخ عبد الحى كيرة والد أحمد، لأن أحمد عنيد ومتشكك ووجود والده معنا يسهل الأمر كثيرًا»، فقال رسل: «هذا جميل، ومتى يمكنك السفر؟»، قلت: «لقاؤنا هنا بعد أسبوع حتى أسافر إلى فارسكور وأقنع الشيخ عبد الحى، وأحضره لنسافر كلنا معا»، فقال رسل: «سأرسل إليك استمارات سفر لك وللشيخ عبد الحى»، وفى صباح اليوم التالى وصلتنى استمارة سفر ذهاب وإياب إلى فارسكور بالدرجة الأولى، واستمارة سفر من فارسكور إلى القاهرة إلى الشيخ عبد الحى بالدرجة الأولى أيضًا، ثم خمسة جنيهات للمصاريف».

«خرجت من عند رسل ولم أضيع وقتًا، فدبرت مائة جنيه وأرسلتها مع مخصوص إلى أحمد عبد الحى مع خطاب نبهت فيه على أحمد بضرورة مغادرة (إسطنبول)، بل ومغادرة تركيا كلها إن أمكن، لأن هناك محاولة لإقناع الحكومة التركية بتسليمه للحكومة المصرية، ثم سافرت إلى فارسكور، وأحطت الشيخ عبد الحى كيرة بما جرى، وأبديت له خوفى على أحمد من مجيئه إلى مصر، واتفقنا على أن يسافر الشيخ عبد الحى لمقابلة رسل باشا وشكره على عطفه على ابنه، وأنه (الشيخ عبد الحى) كان يود السفر لإحضار ابنه، ولكن صحته لا تساعده على السفر».

«وقابل الشيخ عبد الحى كيرة رسل باشا، وشكره على اهتمامه بابنه أحمد، وقال له: إنه كان يود من صميم قلبه أن يسافر إلى تركيا على الأقل ليرى ابنه الذى لم يره منذ خمس سنوات، ولكن المرض يعوقه من تحقيق هذا الأمل، ونظر إلىّ رسل باشا وقال بالإنجليزية: «أنت رجل خطر، لقد وضعتنا فى مركز حرج، ولكنى أعترف بأنك رجل على كل حال وطبعًا ستقول إنه لا يمكنك السفر بدون الشيخ عبد الحى»، فقلت: «وما فائدة سفرى بدون الشيخ عبد الحى؟»، وانصرفنا أنا والشيخ عبد الحى، وسافر مستر جريفيث مدير مكتب العمل بالداخلية وأحد رجال المخابرات الإنجليزية فى مصر وحده إلى تركيا، ولم يعثر على أحمد عبد الحى كيرة وعاد بخفىّ حنين».

(١١٩)

ويروى سيد باشا ذكرياته عن قضية الاغتيالات التى شهدت محاكمة أحمد ماهر والنقراشى وغيرهما:

«وقُدم أحمد ماهر، ومحمود النقراشى، وحسن كامل الشيشينى، وعبد الحليم البيلى، والحاج أحمد جاد الله، ومحمد فهمى على وآخرون إلى المحاكمة، وكان مفروضًا أن يحاكم معهم المرحوم عبد اللطيف الصوفانى بك ولكن عندما ذهب رجال البوليس للقبض عليه كان قد ذهب إلى جوار ربه قبل وصولهم منزله بساعات».

«حوكم هؤلاء المتهمون أمام محكمة خاصة برئاسة المستشار الإنجليزى كرشو، وعضوية المستشارين المصريين كامل إبراهيم، وعلى عزت، وكانت خيوط الاتهام

واهية ملفقة، وأصدرت المحكمة حكمها رغم أنف رئيسها كرشو فى ٢٥/ ٥/ ١٩٢٦ ببراءة المتهمين جميعًا عدا واحد فقط حكمت المحكمة بإعدامه، وهو أحد زملائى الأبطال المرحوم محمد فهمى كما ذكرت سابقًا، وربما لم يتألم أحد فى مصر لإعدام محمد فهمى كما تألمت أنا، وكما تألم سعد باشا، وقد ناجاه سعد باشا فى مذكراته مناجاة العارف بأمره، المقدر لعمله».

«لم يعلم أحمد ماهر ولا محمود النقراشى بما قد حدث بيننا أنا ويوسف العبد وعريان سعد، وبين رسل باشا وأعوانه، ولم يعلم به أى شخص آخر فى مصر سوى سعد باشا ورسل باشا وأعوانه، وظل هذا الأمر سرًا بيننا نحن الأربعة حتى كانت وفاة المرحوم يوسف العبد، وجاءت مناسبة فى الحديث عنه، فذكرنا ذلك عنه لبيان سمو نفسه وإخلاصه لبلاده، وعرف السر قلة من الناس، غير أنى ذهبت إلى النقراشى بعد الحكم ببراءته لأهنئه بالبراءة، ثم اختليت به وقلت له: إن أحمد عبد الحى كيرة فى أزمة مالية ويحتاج إلى مائة جنيه، فأرجو أن تعطينى هذا المبلغ من ثمن المطبعة التى كانت تطبع «المصرى الحر»، والتى بعتوها واستوليتم على ثمنها كله مع أننى ويوسف العبد كنا دفعنا أكثر من نصف ثمنها هى ولوازمها من مالنا الخاص، فرفض أن يعطينى شيئًا، سامحه الله».

(١٢٠)

ويتحدث سيد باشا عن محاربة السراى له فى رزقه، وعمل الحكومة على منعه من السفر، ثم على منعه من الاستفادة من إجراءات بنكية كفتح الاعتماد فى بنك مصر:

«كان من ضمن الأعمال الحرة التى فكرت فى مزاولتها إنشاء مصنع لصناعة الورق، وكانت هذه الفكرة قد راودتنى عندما كنت بأوروبا وتيسر لى زيارة بعض مصانع الورق فى إيطاليا والنمسا، ثم قويت الفكرة عندى بما شاهدته فى نزهة قضيتها على شواطئ بحيرة المنزلة القريبة من بلدنا، حيث شاهدت المساحات الشاسعة التى ينمو بها نبات البردى، وعدم الانتفاع بهذا النبات وتركه للتلف وللحريق، وكذلك الكميات الهائلة من قش الأرز التى تنتجها أطيان شمال الدلتا ولا يستفاد منها فائدة تذكر، مع أن هاتين

الخامتين من أصلح الخامات لصناعة الورق، واختمرت عندى فكرة إنشاء مصنع لصناعة الورق من هاتين الخامتين، فاتصلت بتوكيلات المصانع التى تصنع الآلات الخاصة بصناعة الورق، وكان بعضها فى مصر، وبعضها فى الخارج».

«وأعددت بيانا بالآلات والأجهزة اللازمة لإنشاء مصنع ورق صغير يوسع فيما بعد، من هاتين الخامتين، وعزمت على السفر إلى إيطاليا والنمسا لانتقاء ما أحتاجه من الآلات والأجهزة اللازمة لإقامة المصنع، وعندما ذهبت لاستخراج تأشيرة سفر للخارج أخبرت بأنه يوجد قرار من السلطات بعدم التصريح لى بالسفر للخارج، فاكتفيت بأن أرسلت بيانا بما أحتاجه من الآلات والأجهزة إلى أحد بيوت الصناعة الذى كنت عرفته فى النمسا، وشرحت له ظروفى المالية، وأنه ليس لدى رأسمال سائل، وتم الاتفاق بينى وبين ذلك المصنع على أن يرسل لى الآلات المطلوبة بمبلغ خمسة آلاف جنيه، أدفع منها ٥٠٠ جنيه والباقى يدفع على أقساط سنوية بشرط أن يكون مفتوحا لى اعتماد بأحد بنوك مصر، فذهبت إلى طلعت حرب باشا مدير بنك مصر وأحطته علمًا بالموضوع، ورجوته فى أن يفتح لى اعتمادًا بالبنك بمبلغ ٢٠٠٠ جنيه بضمان أطيان والدى، وهى نحو ٤٠ فدانًا، على ألا أسحب من الاعتماد إلا ألف جنيه فقط، فوافق طلعت باشا وشجعنى على المضى فى المشروع، وتمت إجراءات فتح الاعتماد».

«وفى اليوم المحدد للتوقيع على التعاقد واستلام الألف جنيه لإرسال خمسمائة منها إلى مصنع الآلات بالنمسا، واستخدام الخمسمائة الباقية لإقامة مبانى مصنع الورق على قطعة أرض من أطياننا، ذهبت إلى بنك مصر، وقابلت الموظف المختص بإنهاء العملية، فطلب منى أن أذهب لمقابلة المستشار الصناعى للبنك عبد اللطيف بك محرم، الذى قال لى: إنه يأسف لإيقاف فتح الاعتماد الخاص بى، بحجة أن البنك بصدد تنفيذ مشروع إنشاء مصنع ورق لحساب البنك، فقلت: وماذا يمنع من وجود مصنعين؟ إن ما تستهلكه مصر من الورق يحتاج أكثر من مصنعين، فقال: إن هذا ما كلفت بإبلاغك إياه».

«فخرجت من عند المستشار الصناعى وأنا لا أكاد أرى ما أمامى من شدة الغيظ وخيبة الأمل، واتجهت لمقابلة طلعت باشا حرب، وفى طريقى إلى مكتبه قابلنى سكرتير عام البنك الأستاذ السيد طه، وأخبرنى أن طلعت باشا لا يوجد فى مكتبه، وأن

مقابلتى له لن تفيد بشىء، لأن الأمر بإيقاف فتح الاعتماد جاء من السراى، فانفجرت ألعن السراى، ومَنْ فى السراى، فأخذ يهدئنى ونصحنى بعدم الاستمرار فى الغضب، وربنا يعوض، فقلت: نعم.. الله يعوض، ولتمضى السراى فى مطاردتى فى رزقى فلن أيأس من رحمة الله».

(١٢١)

ويتعرض سيد باشا فى مذكراته لقصة شائعة فى الأوساط السياسية، وهى أن صدقى باشا فى وزارته الأولى عرض منصب الوزارة عليه وعلى عريان يوسف سعد، ولا يثبت سيد باشا الرواية على هذا النحو، لكنه يثبتها بصيغة أن صدقى عرض عليهما أن يرشحا نفسيهما لعضوية النواب، ومن ثم يوليهما الوزارة، لكنهما اعتذرا عن قبول عرضه:

«.. أرسل إلينا صدقى باشا أنا وعريان ويوسف لمقابلته، فذهبنا إليه، وبعد أن أطرانا بالمديح طلب منا أن يرشح كل منا نفسه لعضوية مجلس النواب فى الدائرة التى يختارها، وهو ضامن نجاحنا فى الانتخابات لثقة الجمهور بنا (على حد قوله)، وعندئذ نتعاون معه (صدقى باشا) ملوحًا لنا بمناصب الوزارة، وكان يقصد بذلك تطعيم وزارته بجبهة وطنية توحى إلى الشعب بشىء من الاطمئنان والثقة بالحكومة، وقال: إن تعاوننا معه كسياسى مجرب ووطنى مثلنا، ونحن كشبان وطنيين متحمسين، يفيد البلاد فائدة كبيرة، ولكننا رفضنا دعوته ولم نستجب لعرضه، لعدم تأكدنا من إخلاصه للوطن من جهة، ومن جهة أخرى لأن اشتراكنا فى الحكم يناقض مبدأنا الذى كنا طالبنا سعد باشا باتباعه، وهو أنه مادامت بلادنا لم تستقل استقلالاً تامًا، فإن المشتغلين بثورتها لا يجب أن يمارسوا الحكم فيها، هذا فضلاً عن أننا فى إجازة من الأعمال السياسية».

(١٢٢)

ومن الواضح أن سيد باشا كان متحفظًا تمامًا على معظم زعماء عصر الليبرالية، فمع انتقاده للنقراشى الذى قرأناه وسنقرؤه، نراه يتحفظ على صدقى، ونراه أيضًا يجاهر

بكل وضوح بانتقاده لكل من النحاس وأحمد ماهر ورفضه عرضيهما للترشيح لمجلس النواب:

«. . . وطلب منى مصطفى النحاس باشا أن أرشح نفسى لعضوية مجلس النواب وفديًا، كما طلب منى أحمد ماهر أن أرشح نفسى للمجلس سعديًا، وكلاهما كان على ثقة من نجاحى فى الانتخابات، ولكنى رفضت كلا العرضين لعدم إيمانى بسلامة سلوك كليهما فى الحكم».

(١٢٣)

ويقدم سيد باشا فى مذكراته ملخصًا شبه موجز لتجربته فى عالم الصحافة الوطنية حيث أقدم على نشر مجلة «المشهور» التى سرعان ما حوربت وتوقفت عن الصدور بسبب ضغط الحكومة.

وهو يورد قصة تعرضه للسجن بتهمة العيب فى الذات الملكية، وكيف أمكن له الخلاص من الفخ، وإن كان كل من الرسام رخا وعمر عزمى صاحب امتياز المجلة قد وقعا فى الفخ بديلاً عنه:

«. . . إلا أن لقاءنا مع صدقى باشا وعرضه علينا الاشتراك معه فى الوزارة أوحى إلينا أنا وعريان، لأن يوسف لم يكن مقيمًا معنا فى القاهرة فى ذلك الوقت، حيث كان قد فصل من عمله بوزارة الزراعة بإيحاء من المخابرات الإنجليزية، فذهب ليقيم ببلدته شبرا النملة، ويباشر زراعة أطيانه، أوحى إلينا بفكرة إصدار مجلة نستأنف بها العمل السياسى، فقدمت طلبًا إلى وزارة الداخلية (إدارة المطبوعات) للتصريح لى بإصدار مجلة أسبوعية باسم «آمون»، فرفض طلبى، فاتفقت مع الأستاذ عمر عزمى صاحب امتياز مجلة «المشهور» التى كانت تصدر فى ذلك الوقت، على أن أعطيه مبلغ عشرين جنيهًا شهريًا وأتولى أنا تحرير المجلة وإصدارها، كما استأجرت من عبد العزيز الصدر مطبعة الشباب لطبع المجلة وغيرها من المطبوعات، وقمنا أنا وعريان بتحرير المجلة، وانضم إلينا الزجال الوطنى المرحوم على شاهين الجندى، وأسندنا إليه إدارة الإعلانات، على أن تكون المجلة شركة بيننا، وأقوم أنا برئاسة تحريرها دون ذكر ذلك

كتابة، كما أقوم أنا بالإنفاق على تحريرها وإصدارها إلى أن تغطى إيراداتها مصروفاتها، ثم آخذ ما أكون قد صرفته من الأرباح المنتظرة، إذا وجدت، وبعد ذلك تكون الأرباح قسمة بيننا، مع مراعاة أننا لم نكن ننتظر الحصول على أرباح من المجلة، ثم اتفقنا مع الرسام المشهور محمد رخا على أن يرسم لنا صور الغلاف ونحوها بالأجر، ثم انضم إلينا كشريك صديقنا محمد حلمى الجيار، وحرصنا أنا وعريان على ألا يوقع أحدنا على ما يكتبه باسمه، أما محمد حلمى الجيار فقد أصر على أن يوقع على ما يكتبه باسمه، وكنت أوقع أنا مرة باسم «آمون»، ومرة باسم «مصرى»، ومرة باسم «المحرر»، وغير ذلك، وأعلنا أن المجلة هى لسان حال الشبان الوطنيين».

«وصدر العدد الأول من مجلة «المشهور» فى حياتها الجديدة، ولقى رواجًا متوسطًا، وصدر العدد الثانى وكان رواجه عظيمًا شجعنا على أن يكون تحرير العدد الثالث أقوى من تحرير العددين السابقين، ولكننا فوجئنا بدش بارد ينزل على رءوسنا، إذ أتانا متعهد توزيع المجلة على الفهلوىْ ليقول: إن المخبرين السياسيين أنذروا عمال توزيع المجلة التابعين له بمطاردة رجال البوليس لهم إذا هم حملوا المجلة لتوزيعها، وكل مَنْ ينادى على مجلة «المشهور» منهم سيحجز فى القسم، وأعيدت إلينا فى نهاية الأسبوع بواقى المجلة، وكان لم يبع منها إلا (مائتا) نسخة فقط من جملة العدد الذى كان قد طبع منها وقدره خمسة آلاف نسخة! وكان العدد الرابع من المجلة قد طبع، وقبل متعهد التوزيع استلامه للتوزيع بعد جهد وترغيبه بأن جعلنا عمولته فى التوزيع ضعف العمولة التى كان قد اتفق عليها من قبل، ولم يكن حظ العدد الرابع فى التوزيع أحسن من حظ العدد الثالث، واشتدت مطاردة المخبرين السياسيين لموزعى مجلة «المشهور» لدرجة جعلتهم يمتنعون عن بيعها، وكان الجمهور يستفسر بالتليفون عما إذا كان عدد الأسبوع قد صدر أم لا، وعلمنا أن طلب الجمهور للمجلة كان كبيرًا جدًا، وكان الطالب يشترى عدد المجلة بضعف ثمنه».

(١٢٤)

ونصل مع سيد باشا إلى قراره بالتوقف عن إصدار المجلة التى شارك بها فى مسيرة الصحافة الوطنية والتى عانت الإغلاق المبكر:

«واستمر الحال كذلك حتى صدر العدد التاسع من المجلة، ووجدت أن المبلغ الذى كنت رصدته لذلك العمل وقدره (مائتا) جنيه قد نفد كله، وكانت ظروفى المالية لا تسمح لى بأن أضحى بأكثر من هذا المبلغ، كما كانت ظروف عريان وعلى شاهين لا تسمح لهما بدفع شىء، فطلبت من محمد حلمى الجيار، وكان أيسرنا حالاً من الوجهة المالية، وظروفه المالية تسمح بدفع الكثير من المال، أن يمدنا بشىء من المال لاستمرار صدور المجلة بأمل أن يتحسن حال توزيعها، ولكنه رفض أن يدفع أى مبلغ، وقال إنه اشترك معنا طمعًا فى الربح وليس استعدادًا للخسارة، وأعلن انفصاله من الشركة، فلم أجد بدًا من وقف إصدار المجلة لحسابنا، وألغيت بالكتابة عقد الاتفاق الذى كان بينى وبين صاحب امتياز المجلة عمر عزمى، الذى رغب فى استمرار صدورها لحسابه، وبعد أن تم طبع العدد الأول و الثانى بعد تركنا إياها وإذا بالنيابة تأمر بمصادرته، وبالقبض عليه وتوجه لى تهمة العيب فى العائلة الملكية باعتبارى المشرف على تحرير المجلة التى نشرت ذلك العيب، وقدّمت لوكيل النيابة الذى تولى التحقيق معه، الأوراق التى تثبت إنهاء صلتى بالمجلة وتحريرها بعد صدور العدد التاسع، وبذلك نجوت من الفخ الذى كان قد نصب لى، وأخلى سبيلى، أما قصة العيب فى العائلة الملكية فأرويها فيما يلى:

«لم يكن بمطبعة الشباب التى كانت تطبع فيها مجلة «المشهور» (استعدادًا) لطبع الألوان، وكان غلاف المجلة الذى يطبع عادة بالألوان يطبع فى مطبعة أخرى هى مطبعة «بول باربيه»، وكان رسم صورة الغلاف يرسل مع أحد عمال مطبعة الشباب إلى مطبعة «بول باربيه» ليطبع فيها، وعندما كان العامل فى طريقه إلى مطبعة «بول باربيه» حاملاً صورة غلاف العدد العاشر أو الحادى عشر - لا أذكر - من المجلة، استدرجه أحد المخبرين وأخذ منه الرسم بحجة أنه يرغب فى الاطلاع عليه، وأثناء اطلاع المخبر على الرسم استغفل العامل وكتب فى إحدى زوايا الورقة المرسوم عليها صورة الغلاف عبارة نابية خاصة بالملكة نازلى والدة الملك فاروق، وطبع الغلاف دون أن ينتبه أحد إلى وجود تلك العبارة بجانب الصورة، وعلى أساس وجودها وجهت التهمة، وعندما أفلت من الوقوع فى الفخ الذى كان قد نصب لى، لم تتراجع النيابة ووجهت التهمة إلى عمر عزمى صاحب امتياز المجلة، ومحمد رخا رسام المجلة، وحكم على كل منهما بالسجن أربع سنوات، قاتل الله الظلم».

(١٢٥)

ولم تزل العلاقة بين سيد باشا والنقراشى تعانى من التوتر حتى أتى عام ١٩٣٩ وتولى النقراشى وزارة المعارف فى وزارة على ماهر الثانية، فحاول الاستعانة بسيد باشا فى وظائف الوزارة لكن سيد باشا اعتذر لعدم مواءمة الوظيفة المعروضة لما كان يعرفه فى نفسه من كفاءة وأقدمية.

ويهمنا فى هذا المجال أن نثبت ما لخص به سيد باشا موقف النقراشى منه ومن رجال الحركة الوطنية، وتفسيره لهذا الموقف على أنه تبرؤ من الفدائيين وإبعاد شبهة معرفتهم عن نفسه:

«... وفى أواخر سنة ١٩٣٩ كان محمود النقراشى وزيراً للمعارف فى عهد وزارة مؤلفة من حزبى السعديين والدستوريين، ويبدو أن ضميره قد استيقظ وشعر بأنه أساء إلىّ كثيراً، وأن وزارة المعارف قد حرمت من الانتفاع بكفاءتى بدون مبرر، فاستدعانى وعرض علىّ أن يعيرنى إلى وزارة المعارف بإحدى وظائف التعليم بالدرجة الرابعة بآخر مربوطها ٤٥ جنيهًا، فقلت: «وهل يكون عدلاً أن أترك وزارة المعارف سنة ١٩٢٤ وأنا بالدرجة الخامسة وبآخر مربوطها تقريبًا ٣٥ جنيهًا لولا تصرفك الذى جعل تعيينى بأول مربوطها، ثم أعود للوزارة فى سنة ١٩٣٩ فى الدرجة الرابعة بمرتب لا يزيد كثيراً (على) مرتبى فى سنة ١٩٢٤، وفى الدرجة التى تلى الدرجة التى كنت فيها؟»، فقال: «الحقيقة أن أقرانك فى الدرجة الثالثة الآن ولكنى لا أريد أن يقال إننى حابيتك»، فقلت فى نفسى ألا تزال عند عهدك تظلمنى بحجة الخوف من اتهامك بمحاباتى؟! ثم شكرته مع رفض العرض وانصرفت».

«وهنا أقف وقفة لأقول إن الحقيقة هى أن النقراشى لم يكن يخشى أن يتهم بالمحاباة، ولكنه كان يخشى أن يعرف عنه الإنجليز أنه على صلة من قريب أو بعيد بأحد من الفدائيين المقيدين عند الإنجليز فى القائمة السوداء وشأنه فى ذلك شأن جميع الساسة المصريين، ما عدا سعد باشا، الذين وصلوا أو يريدون أن يصلوا إلى مراكز القيادة السياسية فى مصر كالوزراء ومَنْ إليهم، إذ أن المحاباة للأقارب والأصحاب والموالين للأحزاب والأتباع كانت شعار هؤلاء الساسة ومجال تنافسهم، فكم من

عاطل أو شبه عاطل لا يحمل أى مؤهل وليست لديه كفاءة وله (مركز) لا يستحقه، ومنح مرتبًا يعتبر خياليًا بالنسبة لمؤهلاته وكفاءته، وكل صفاته أنه كان داعية لفلان، أو أنه كان وكيل أعمال علان، الذى أصبح مديرًا أو وزيرًا».

«وإنى أعتقد أن هذا الاتجاه، وهو الابتعاد عن شبهة الصلة بالفدائيين والتبرؤ من مساعدتهم من جانب الساسة المصريين، على الأخص مَن كان منهم من مؤيدى سعد باشا، ثم حرص هؤلاء على إفهام الإنجليز أنه لا صلة لهم بالفدائيين هو اتجاه خاطئ جعل الإنجليز يمضون فى التدخل فى شئون مصر الداخلية والخارجية دون أن يخشوا أى معارضة، ولو أن هؤلاء الساسة تشجعوا وأظهروا عنايتهم بالفدائيين لأحجم الإنجليز عن التدخل فى شئون مصر، أو تدخلوا بحذر وبقدر معقول، وعندئذ كان وجه التاريخ تغير بعض التغيير، وذلك لأن الإنجليز ظلوا يخشون الفدائيين حتى أواخر أيامهم فى مصر».

(١٢٦)

على أن علاقة سيد باشا بالنقراشى لا تجعله يغمط النقراشى حقه حتى فيما اختلفا فيه، وهو يروى قصة وقوفه ضد قرار مجلس الوزراء فى عهد النقراشى، ومناقشته للنقراشى فى خطأ القرار الصادر من المجلس، وإصراره على عدم تنفيذه مهما كلفه ذلك مما جعل النقراشى نفسه مع ما هو معروف عنه من عناد يتراجع عن قرار مجلس الوزراء بإغماض عينه عن مخالفة سيد باشا لهذا القرار:

«ومن تصرفاتى لإراحة ضميرى، ولخدمة رجال التعليم أن وقفت مرة ضد قرار لمجلس الوزراء ولم أنفذه، وذلك عندما كنت مراقبًا عامًا للتعليم الحر، فقد حدث أن اعتقلت سلطات الأمن عددًا كبيرًا من الإخوان المسلمين، وكثير منهم كانوا مدرسين بالمدارس الحرة، وأصدر مجلس الوزراء قرارًا بوقف صرف مرتبات كل الموظفين المعتقلين، فذهبت إلى وزير المعارف السنهورى باشا وقلت له: إننا نظلم أبناء المدرسين المعتقلين وأسرهم بعدم صرف مرتبات المدرسين المعتقلين، فكيف يعيش هؤلاء الأبناء وأمهاتهم وليس لديهم غير مرتبات عائليهم الذين لم تثبت إدانتهم بعد، فقال الوزير: هكذا قرر مجلس الوزراء ولا أملك التصرف فى قرار المجلس، فقلت

له: إنى لن ألتزم بهذا القرار وسأرسل للمدارس الحرة بضرورة صرف مرتبات المدرسين المعتقلين لمن يوكلونهم عنهم، فقال الوزير: عليك أن تعلن ذلك لرئيس الوزراء، فذهبت إلى رئيس الوزراء، وكان النقراشى باشا، وأعدت عليه الحديث الذى دار بينى وبين وزير المعارف فقال رئيس الوزراء: «لو نفذت ما تقول ستؤاخذ على تصرفك»، فأجبت بأنى سأتحمل مسئولية تصرفى ولدولتك أن تفعل بى ما تشاء، فلما وجدنى مصراً على موقفى قال: «تفضل اذهب لعملك، وأنا لا أعلم شيئًا عن هذا الموضوع»، فعدت إلى مكتبى وأرسلت نشرة لجميع المدارس الحرة أمراً لنظار المدارس إلى ضرورة صرف مرتبات المدرسين المعتقلين لمن يتقدمون بتوكيلات عنهم».

«وهكذا أرضيت ضميرى، وأغمض وزير المعارف ورئيس الوزراء أعينهم عن مخالفتى لقرار مجلس الوزراء إزاء إصرارى على هذه المخالفة، ولعل رئيس الوزراء كان قد اقتنع بوجهة نظرى».

(١٢٧)

ويتصل بهذه العلاقة الشائكة بين النقراشى وسيد باشا ما يرويه سيد باشا من رفض النقراشى اقتراح السنهورى تعيين سيد باشا سكرتيراً عامًا لوزارة المعارف، ومع هذا فإنه يحرص على إثبات قيامه بتأبين النقراشى تأبينًا شهد له الأستاذ على عبد الرازق بأنه أفضل التأبينات، هذا فضلاً عن تنظيم الحفل:

«. . . وبينما كنت بالسودان تقدم وزير المعارف الدكتور عبد الرزاق السنهورى لمجلس الوزراء بمذكرة يطلب فيها تعيينى سكرتيراً عامًا لوزارة المعارف، لكن رئيس الوزراء محمود النقراشى لم يوافق على طلب وزير المعارف لأنه خاص لسيد باشا».

ومع ذلك فإنه لما قتل الإخوان المسلمون النقراشى فى ديسمبر سنة ١٩٤٨ رأيت بصفتى رئيس جمعية المعلمين أن أكرم النقراشى باعتبار أنه أول معلم رأس الوزارة فى مصر، وذلك بأن أقامت له جمعية المعلمين حفلة تأبين برئاستى، ورثيته فى الحفلة بكلمة ذكرت فيها محاسنه، وقد قال لى على عبد الرزاق باشا وزير الأوقاف وقتئذ: إن رثائى للنقراشى كان أحسن وأمتع رثاء للنقراشى، وكان ممن رثوه معى فى تلك الحفلة السنهورى باشا وزير المعارف، ومحمد شفيق غربال بك وكيل وزارة المعارف

وقتئذ، والأستاذ سعد اللبان رئيس جماعة دار العلوم، وعلى الجارم بك من الشعراء المجيدين».

(١٢٨)

وربما كان من الضرورى أن نلقى الضوء على بعض ما يمكن للروح الفدائية أن تبثه فى نفس صاحبها من اعتزاز بالنفس والرأى، وعمل على تنفيذ أمانيها دون خوف أو حسابات مسبقة، ولعل المثل الذى نضربه على هذا من ذكريات سيد باشا يدلنا بوضوح على أنه لم يكن ممكنا لغيره مثل هذا الموقف فى ظل التحذيرات المتتالية التى تلقاها من وزير المعارف ورجال الحاشية، لكن روحه الفدائية هى التى مكنته فى النهاية من النجاح:

«وفى سبل رفع شأن المعلمين وإبراز مكانتهم رغبت أنا بصفتى رئيس جمعية المعلمين أن تتملك جمعية المعلمين هذا المكان لنهيئ فيه مقرًا وناديًا لاتحاد المعلمين الذى كنت أعمل لتكوينه، أبديت رغبتى هذه لإخوانى وأصدقائى من المعلمين وغيرهم، لكنهم حذرونى من السير فى هذا الطريق على اعتبار أنه يغضب الملك، فلم أهتم بتحذيرهم، وطلبت من وزير المعارف فى ذلك الوقت الدكتور عبد الرزاق السنهورى أن يعاوننى فى هذا الأمر بأن يكلم وزير المالية ليستجيب إلى طلبى، فرفض السنهورى أن يكلم وزير المالية فى هذا الموضوع قائلاً: إننا نعرف أن هناك عداء بين السراى وبينك وسعيك لأخذ هذا المكان قد يفسر على أنه مناوأة لرغبات الملك، ومَنْ يدرى فقد يؤدى إلى طلب فصلك من الوظيفة كما سبق، وأنا لا أقبل أن أتحدث فى موضوع تكون نتيجته احتمال الإساءة إليك، فقلت للسنهورى: لن أتراجع وسأستمر فى سعيى!».

«كان وزير المالية فى ذلك الوقت هو المهندس عبد المجيد بدر، وكان هو والمهندس أحمد عبده الشرباصى على رأس المظاهرة التى قام بها طلبة مدرسة الهندسة فى سنة ١٩٢٤ احتجاجًا على فصلى من مدرسة الهندسة، فذهبت إليه وأبديت رغبتى فى حصول جمعية المعلمين على المكان الذى يطلق عليه اسم نادى المعلمين وتملكه الدولة، فقال المهندس عبد المجيد بدر: إنه بلغه همسًا أن السراى ستطلب منح المكان المذكور لجمعية شباب الشعلة التى تناصر الملك وتقوم بالدعاية له، ولكن لم يصله للآن (شىء

إيجابى خاص) بذلك، وناولنى ورقة وقال لى: اكتب لى طلبًا بما تريد وأرجو أن أنهيه قبل أن يصلنى (شىء) من جهة السراى، فكتبت الطلب وسلمته إلى وزير المالية، وقبل أن يمر أسبوع على كتابة الطلب صدر قرار الوزارة بمنح جمعية المعلمين الأرض التى تملكها الدولة والكائنة بين جسر نهر النيل وأرض النادى الأهلى للرياضة بالجزيرة، وما على تلك الأرض من مبان، وأبلغت بالقرار، وقبل أن يفيق الإخوان والأصدقاء من الدهشة ويسألونى ماذا أنا صانع لمواجهة غضب الملك الشاب، كنت قد ذهبت إلى ديوان جلالة الملك حاملاً دعوتى لجلالته ليكون ضيف الشرف فى حفل استلام المكان وافتتاح نادى المعلمين، وقَبل جلالة الملك الدعوة، وبحكم أنى كنت رئيس جمعية المعلمين العليا كنت رئيس حفَلة افتتاح نادى المعلمين (جميعًا) والداعى لحضور الحفلة باسم المعلمين جميعًا».

«وقررت لجنة افتتاح نادى المعلمين التى أرأسها، دعوة الفئات الآتية لحضور حفلة الافتتاح التى سيحضرها الملك بوصفه ضيف شرف، وكانت الفئات المدعوة هى:

«١ ـ الأمراء الذين يشير الملك بدعوتهم».

«٢ ـ رئيس الوزراء والوزراء (الحاليون)».

«٣ ـ رئيسًا مجلس الشيوخ والنواب».

«٤ ـ وزراء المعارف السابقون».

«٥ ـ أعضاء لجنتى المعارف بمجلسى الشيوخ والنواب».

«٦ ـ كبار رجال التعليم فى الوزارة والمناطق التعليمية».

«٧ ـ نظار المدارس الثانوية والابتدائية».

(١٢٩)

ونأتى إلى تفصيلات مفاوضات سيد باشا حول الترتيبات البروتوكولية المتعلقة بالمدعوين للحفل الذى نظمه:

«. . . وكانت التقاليد الرسمية تقضى بعرض أسماء الشخصيات المدعوين الذين سيحضرون الاحتفال الذى سيحضره الملك على جلالته قبل إرسال الدعوات لهم،

فكتبت أسماء الشخصيات المدعوين فى قوائم وذهبت إلى ديوان الملك وقدمتها لأحد الأمناء فى حاشية الملك وكان يدعى على بك رشيد، ليرفعها إلى جلالة الملك، فاعترض الأمين على دعوة الأسماء الآتية وكانوا مدعوين بصفتهم وزراء سابقين وهم: على ماهر باشا، وعلى الشمسى باشا، ومراد سيد أحمد باشا، وعلى زكى العرابى باشا، وحلمى عيسى باشا، وأحمد نجيب الهلالى باشا».

«واعترض الأمين على دعوتهم بحجة أنهم غير موالين لجلالة الملك، لاسيما المنتمين منهم لحزب الوفد، وكانت معارضة الأمين شديدة بالنسبة لعلى ماهر الذى كان فى ذلك الوقت منزويًا ومبتعدًا عن الحياة السياسية، و(كان) معروفًا لدى الرأى العام فى مصر أن الملك غاضب عليه لأنه تحدث فى بعض مجالسه الخاصة ممتنًا على الملك بأنه قام للملك بخدمات جليلة لم يقدرها الملك».

«وقلت للأمين: إنه لا يمكننى إهمال دعوة هؤلاء الذين تعترض على دعوتهم لأن المعلمين كطائفة لا ينتمون لأى حزب من الأحزاب، وأصررت على دعوتهم، فقال الأمين: إذًا يجب عرض الأمر على كبير الأمناء، وكان عبد اللطيف طلعت باشا».

«وذهبنا إلى كبير الأمناء الذى أيد رأى الأمين، ولكنى تمسكت برأيى فقال كبير الأمناء: افعل ما نشير عليك به وإلا كنت تغامر بوظيفتك، فقلت: إن وظيفتى لا تهمنى إزاء محافظتى على كرامة المعلمين، وأرجو عرض الأمر على جلالة الملك، فقال كبير الأمناء: عليك أن تتحمل مسئولية إصرارك على رأيك، وعد بعد ثلاثة أيام لتعرف النتيجة».

«بعد ثلاثة أيام ذهبت لأعرف النتيجة من كبير الأمناء مع تصميمى على الاستقالة من وظيفتى بالوزارة (مراقب عام التعليم الحر)، ومن رئاسة جمعية المعلمين العليا إذا لم يوافق الملك على دعوة كل من قررنا دعوتهم».

«وعندما دخلت على كبير الأمناء بادرنى بقوله: مبروك ياسيدى، جلالة الملك وافق على جميع الأسماء الواردة بالقوائم التى قدمتها بدون استثناء أحد، فقلت: إذًا لماذا تظلمون جلالة الملك وتقولون إنه يريد فلان ولا يريد فلان، والواقع أثبت أن كل رعاياه عنده سواء، فقال كبير الأمناء: لا داعى للتعليق».

«ثم قلت لكبير الأمناء: والآن أريد منكم بيانًا بأسماء الأمراء الذين يأمر الملك بدعوتهم، ثم بيانًا بمكان جلوس كل مدعو، علمًا بأن أماكن جلوس المدعوين نظمت على الوجه الآتى:

«١ ـ مكان لجلوس الملك ومَنْ يأمر بدعوتهم من الأمراء، ثم رئيس الوزراء ووزير المعارف، ورئيسى مجلسى الشيوخ والنواب».

«٢ ـ مكان لجلوس الوزراء الحاليين، ووزراء المعارف السابقين».

«٣ ـ مكان لجلوس أعضاء لجنتى المعارف بمجلسى الشيوخ والنواب، ووكلاء الوزارات، وكبار رجال التعليم».

«٤ ـ مكان لجلوس باقى المدعوين».

«فأعطانى كبير الأمناء كشفًا بأسماء الأمراء الذين يدعون للاحتفال، ثم قال: كل مدعو يجلس فى مكان فئته، ما عدا على ماهر قد أمر مولانا بأن يجلس فى المكان المعد لجلالة الملك ومَنْ معه».

«ومرت العاصفة ولم تفقدنى المغامرة وظيفتى، وكسب على ماهر رضاء الملك عنه نتيجة لتمسكى بمبدأ أن تكون الدعوة عامة لمن تنطبق عليه أسسها، ولم أخبر على ماهر بشىء مما حدث».

«وتم الاحتفال بافتتاح نادى المعلمين بحضور جلالة الملك على خير ما يرام، وألقى كلمة الترحيب بالملك وزير المعارف الدكتور عبد الرزاق السنهورى».

(١٣٠)

وفى هذه المذكرات فقرات مهمة تكشف عن طبيعة تفكير سيد باشا، وانتصاره لما يراه بعد دراسته وتمحيصه، وتتعلق الفقرات الأولى بموقفه من السد العالى، ومع أنه لم يكن فى موقع المسئولية حين تم هذا البناء فإنه يحرص على أن يذكر أن كان من المصريين القلائل الذين عارضوا فكرة السد العالى، وهو يقدم أسانيده فى هذه المعارضة على نحو مرتب:

«كنت من المصريين القلائل الذين يعدون على أصابع اليد والذين عارضوا فكرة السد العالى، وأعلنت معارضتى للمشروع على صفحات جريدة «الأساس»، وكانت معارضتى تستند إلى المبادئ الآتية:

«١ ـ أن بناء السد العالى سيحرم أراضى مصر الزراعية من طمى النيل، وهو البلسم الشافى للزراعة فى مصر ولا يمكن الاستعاضة عنه بأى سماد من الأسمدة مهما كانت جودته وقوته، هذا فضلاً عن أن حرمان أراضى مصر الزراعية من طمى النيل يزيد من اتساع المسام الميكانيكية لتربتها، ومن ثم تقل درجة خصوبتها إلى غير حد، فضلاً عن أن حرمان أرض مصر من طمى النيل يجعلها تحتاج إلى كميات مياه لرى أراضيها تزيد كثيراً (على) كميات المياه ذات الطمى، ويمكن القول بأن أرض مصر الزراعية هى طمى نيلها، فإذا اختفى طمى النيل اختفت الأرض الزراعية الخصبة فى مصر، وليس الأمر كذلك فى غير مصر من بلاد العالم».

«٢ ـ أن عدم وجود الطمى فى مياه النيل يزيد عملية نحر هذه المياه فى قاع النيل وجوانبه وجزره وجسوره دون أن يعوض هذا النحر بشىء كما كان يعوض بطمى النيل، ومن ثم يتسع مجرى النيل على حساب شواطئه وجسوره وجزره ويؤدى ذلك بالطبع إلى تداعى قواعد قناطر النيل والكبارى المقامة عليه، كما يؤدى إلى انحسار أراضى الدلتا بالتدريج بتآكل سواحلها على البحر الأبيض المتوسط، وأيضًا انحسار شريط الأراضى الزراعية بالوجه القبلى بحيث لا يكون بمصر أرض زراعية بعد فترة من الزمن قد تكون طويلة».

«٣ ـ إن الأراضى الرملية الصحراوية المزمع إصلاحها بمياه السد العالى لا يمكن بأى حال أن تصلح بتلك المياه الخالية من الطمى، لأن تربتها عبارة عن حبيبات رمل غير متماسكة فلا تصلح لإنبات أى نبات، ولجعلها صالحة للإنبات يجب أن تروى بمياه تحتوى على طمى النيل، فهذا الطمى وحده هو الذى يماسك حبات الرمل بعضها لبعض ويجعلها تربة صالحة للإنبات ولتثبيت جذور النبات».

«٤ ـ أن مستوى ارتفاع المياه خلف خزان أسوان كاف لتوليد الطاقة الكهربائية التى تحتاجها البلاد، وإذا كان من الضرورى تخزين بعض مياه النيل لاستعمالها عند الحاجة إليها، فيمكن تحقيق ذلك بإنشاء بحيرات جانبية بدلاً من بحيرة ناصر فى الأراضى

الصحراوية جنوب سد أسوان شرقًا وغربًا، وهذا ما فعله قدماء المصريين عندما حفروا بحيرة قارون، ورغم معارضة المعارضين من الفنيين وذوى الخبرة العلمية بنى السد العالى، ثم ظهرت أضراره قبل مرور خمس سنوات على بنائه، وانتشر بين الناس القول بأن السد العالى سيكون مقبرة مصر، وكارثة الكوارث على أرض مصر».

«٥ ـ أن جريان ماء النيل فى أيام الفيضان وصب جزء منها فى البحر الأبيض المتوسط يجعلها تطرد فى طريقها كل الفضلات التى ألقيت فى النيل وتقذفها فى البحر الأبيض المتوسط فتطهر مياه النيل ولا تجعلها منبعًا للتلوث».

(١٣١)

أما الفقرة الثانية فتتعلق بتأييده مساعى السادات فى قيادة مصر نحو السلام بعد حرب أكتوبر ١٩٧٣، ونراه على غير عادة مَنْ يكتبون فى مثل هذه المواقف يجاهر بأمرين مهمين، بأنه كان واحدًا من أربعة مصريين فقط أيدوا قرار التقسيم، (هو وعريان سعد وإسماعيل صدقى ومحمد أبو سلطان). أما الأمر الثانى فهو قوله: «إنه يتمنى من صميم قلبه أن تتم مبادرة السلام بسلام حتى لو أدى هذا إلى صلح منفرد مع إسرائيل»:

«. . . وبدأت مصر مسيرة إنهاء الحرب بينها وبين إسرائيل، وفك الاشتباك الأول بين جيشى مصر وإسرائيل، ثم الاشتباك الثانى، ثم جاءت فى نوفمبر سنة ١٩٧٧ مبادرة السلام وتقضى ضمن ما تقضى أن تعترف الدول العربية بقرار التقسيم الذى قررته هيئة الأمم المتحدة فى سنة ١٩٤٨ والذى يعطى لإسرائيل حق إقامة وطن لها على جزء من أرض فلسطين، وهو ما كنت أنا وعريان سعد وإسماعيل صدقى باشا ومحمد أبو سلطان من المصريين فقط الذين أيدوه».

«وإنى أحيى محمد أنور السادات وشجاعته لإقدامه على هذه المبادرة، وقد كانت هذه المبادرة دفعة ثانية لأمريكا لتعيد النظر فى سياستها فى الشرق الأوسط كما استنتجت من موقفها من وقف إطلاق النار فى حرب أكتوبر ١٩٧٣، حيث نراها تعمل

بكل ثقلها لإحلال السلام الشامل فى منطقة الشرق الأوسط، والحد من مطامع إسرائيل وتوسعاتها، وإنى أتمنى من صميم قلبى أن تتم مبادرة السلام بسلام حتى لو أدى ذلك إلى صلح منفرد مع إسرائيل، وإنى لا أؤمن بمصر عربية وإنما هى إسلامية، هى مصرية جنسًا وعربية لسانًا، واللغة العربية لم تؤصل ولم (تقو) ولم تزدهر ولم تجمّل إلا على ألسنة المصريين، كما أن الإسلام لم تؤسس دعائمه، ويحافظ على شعائره، وتقام أركانه بدقة وفهم إلا فى مصر الإسلامية، حفظها الله من كل شر، وجعلها منارة للإسلام فى كل زمان».

(١٣٢)

ومن الشخصيات التى تحظى بأضواء كاشفة فى مذكرات سيد باشا، عبد المجيد عمر باشا، الذى كان وزيرا للأشغال، ومن قبل ناظرا لمدرسة المهندسخانة العليا، ونحن نرى سيد باشا يصوره فى صورة المسئول الكبير الذى أدرك معنى الرجولة وقيمتها:

«كنت أقوم بعملى فى مدرسة المهندسخانة باهتمام وإخلاص، وأحبنى طلبتى، وفى أحد الأيام من شهر مارس على ما أذكر، دعانا ناظر المدرسة المهندس عبد المجيد عمر نحن مدرسى المدرسة لاجتماع للنظر فى بعض أمور خاصة بسير العمل فى المدرسة وبأمور الطلبة، واجتمعنا وعرضت طائفة من الموضوعات، وأثناء عرض موضوع خاص بأعمال الطلبة وسلوكهم لمّح ناظر المدرسة بأنه يجب على كل مدرس بالمدرسة أن يبلغ ناظر المدرسة عن سلوك الطلبة الذين يزورون بيت الأمة، أى منزل سعد باشا، باعتبارهم من زعماء الطلبة، وما كاد الناظر ينتهى من قول هذه العبارة حتى اندفعت صائحًا بشدة: ألهذا جمعتنا ياحضرة الناظر؟ أجمعتنا لتكلفنا بأحط عملية يعافها الضمير، أتريدنا أن نتجسس على أبنائنا، وحاول كثير من الحاضرين مقاطعتى ولومى على مخاطبة ناظر المدرسة بهذه الحدة، ولكنى استرسلت أقول: إن مهمة المربى هى أن يعلم ويرشد ويوجه تلميذه، لا أن يسعى لإيقاع أى ضرر به، وإذا رأى من تلميذه ما لا يتفق مع الخلق والسلوك السليم عليه أن ينصحه ويقوّم إعوجاجه، دون أن يتسبب فى إيذائه، وعندئذ قال الناظر: أنا لا أقصد شيئًا مسيئًا، وأعلن سحب ما قاله».

«كان عبد المجيد بك عمر ابن عم عبد العزيز بك فهمى الذى انشق على الوفد وكوّن مع المنشقين حزب الأحرار الدستوريين برئاسة محمد محمود باشا، وكان عبد المجيد عمر بطبيعة الحال موالياً لحزب الأحرار الدستوريين، وبعد نحو أسبوعين من اجتماع مدرسى مدرسة الهندسة السابق ذكره، نقل عبد المجيد بك عمر إلى وظيفة مدير الطبيعيات، وهى وظيفة تقل كثيراً فى مستواها الأدبى عن وظيفة ناظر مدرسة المهندسخانة، واعتقد عبد المجيد بك، كما اعتقد آخرون غيره، أنى وشيت به لدى الوفد وكانت وشايتى سببا فى نقله، وهذا غير صحيح، لأنى لم أذكر لأحد شيئا عن هذا الحادث خارج الاجتماع، بل إن ما حصل منى هو أنى ذهبت إلى سعد باشا وأظهرت له عدم رضائى عن هذا النقل، وذهب المدرسون الإنجليز بالمدرسة إلى عبد المجيد بك فى مكتبه الجديد لمواساته وكنت المدرس المصرى الوحيد من مدرسى المدرسة الذى ذهب أيضاً لمواساة عبد المجيد بك فى مكتبه الجديد، وكنت مخلصاً فى تلك المواساة، ولما دخلت عليه بادرته بقولى: لابد أنك تعتقد أنى قلت شيئاً عما حدث فى الاجتماع لسعد باشا أو لأحد الوزراء الوفديين، ولكن الواقع أنى لم أذكر شيئا لأحد عن هذا الحادث بعد خروجى من الاجتماع حتى الآن، وطبعاً لن تصدقنى، ولكنى سأترك للأيام أن تؤكد لك قولى هذا، أو ستؤكد لك الأيام أيضاً (أن) مَنْ وشوا بك هم بطانتك التى كانت تقاطعنى، وتظاهر عبد المجيد بأنه صدقنى».

«ثم حدث أن ذهبت فى إحدى الليالى إلى مسرح الأوبرا لأشاهد عرضها، وجلست فى أحد مقاعد الصالة ولم أكد أستقر فى جلوسى لمشاهدة العرض حتى تقدم إلىّ الوزير عبد المجيد عمر وسألنى: لماذا انقطعت عن زيارته؟ فقلت: لأنك أصبحت وزيراً وأنا لست فى مقام مَنْ يزورون الوزراء؟ فقال: إن أخلاقك ورجولتك تجعلك فى مقام أعلى من مقام الوزراء، وقد جئت إليك لأدعوك لتأتى وتجلس معى فى «البنوار» الذى أجلس فيه، وألح فى دعوته بإصرار فذهبت معه وكان معه فى «البنوار» الدكتور محمد حسين هيكل، فقدمنى إليه وقص له ما كان قد حدث بينى وبينه، وقال: إنه ظلمنى بظنه الخاطئ، ثم قال: إنه قد عرف الحقيقة وأن مَنْ وشوا به هم الذين كانوا يقاطعون (سيد باشا) ويتظاهرون بالدفاع عنى (أى عن عبد المجيد عمر)، واستطرد

يقول: بل إنى عرفت أكثر من ذلك، فقد عرفت أيضًا أن سيد باشا عبر لسعد باشا عن عدم رضائه عن نقلى من مدرسة الهندسة، وقال عبد المجيد باشا: إنه يعتذر لى عن سوء ظنه، وتكفيرًا عن ذلك فإنه على استعداد تام للاستجابة لأى طلب أطلبه منه فى حدود عمله بوزارة الأشغال أو وزارة المواصلات التى كان وزيرها بالنيابة، علاوة على وزارة الأشغال، وقد بر بوعده، إذ كان فى بعض الأحيان يأتينى بعض طلبتى الذين يحصلون على البكالوريوس من المدرسة ويطلبون منى أن أساعدهم على إيجاد عمل لهم لأنهم غير مستعدين لسبب من الأسباب لمواصلة الدراسة العالية، فكنت أرسل مَنْ يأتينى منهم لعبد المجيد باشا عمر بتوصية منى ليعين مَنْ يرغبون فى العمل، فكان يأمر بتعيينهم على الفور».

(١٣٣)

وبعد هذه السباحة الطويلة فى بحار مذكرات سيد باشا لا نجد ختامًا لمدارستنا لها أفضل من أن ننقل بعض فقراته المعبرة عما كان يحس به من الضيق النفسى نتيجة لانصراف تقدير الوطن فى مصر إلى الأسماء الكبيرة، والبخل به على الشبان المجتهدين من أمثاله، وهو على سبيل المثال يروى واقعة الإعجاب بمقال له وأن هذا الإعجاب بدأ يتضاءل عندما علم المجتمعون أنه هو كاتب المقال، ولم يكن دافعهم فى هذا شرفيا:

«... نشرت جريدة الأهرام المصرية ترجمة للمقال الذى نشرته لى جريدة «الايبوكا» الإيطالية، الذى أشرت إليه آنفًا، وكان بدون توقيع كما كانت عادتى مع الصحف الإيطالية، ليظهر المكتوب وكأنه يعبر عن سياسة الجريدة نفسها، ووصلت إلى وفد مصر فى لوزان نسخة من جريدة الأهرام التى بها ترجمة المقال، وقرأ سلامة بك ميخائيل الترجمة وأعجب بالمكتوب ولفت نظر باقى أعضاء الوفد إليه، وأخذوا يتحدثون عن جودة المقال، وعن عمق خبرة كاتبه بالقضية المصرية وما إلى ذلك، وكنت جالسًا أسمع ثناءهم على كاتب المقال، وسألنى حسيب باشا إذا كنت أعرف كاتب المقال، وكان ضمن الموجودين محمد بك فهمى فضحك وقال: طبعا إنه يعرف

نفسه لأنه هو كاتب المقال، وقام محمد بك فهمى إلى الغرفة المجاورة وكان بها مكتبنا، وأحضر مسودة المقال باللغة الإيطالية وقال: ها هو المقال، وعندئذ ظهر للمقال بعض العيوب وبعض نقط كان يجب أن توضح أكثر من ذلك، وهكذا حيث ظهر أن كاتب المقال هو سيد أفندى باشا الطالب وليس الصحفى الإيطالى الكبير فلان، أو ليس حسيب باشا الذى كان مدير مديرية، أو على الشمسى بك الذى كان عضواً فى الجمعية التشريعية أو نحو ذلك، وما أن سمع محمد فهمى بك هذه الانتقادات التى لم يكن لها فى الواقع أى نوع من الوجاهة، انفجر قائلا بحدة وبصوت عال: لماذا لم تقدروا جهود هذا الشاب - مشيراً إلىّ - ونشاطه فى خدمة بلاده، وتفانيه فى خدم وطنه؟ لقد وضحت أمام أعينكم ثمار جهوده، فها هى الصحف الإيطالية قد كتبت وعلقت على مصر وقضتيها أضعاف أضعاف ما كتبته الصحف السويسرية والفرنسية برغم المبالغ الطائلة التى دفعها الوفد للصحف الفرنسية والسويسرية ولم يدفع قرشاً واحداً للصحف الإيطالية، وهأنتم قد حاولتم بكل ما أمكنكم للاتصال بوفد فرنسا لدى المؤتمر، فلم يقبل أحد من أعضاء ذلك الوفد الاتصال بكم، كما أنه لم يقبل دعوتكم له لحفلة شاى، وهكذا فعل معكم الوفد التركى بالرغم من أن رئيسه تحدث أمام المؤتمر بشعور طيب نحو مصر، أما وفد إيطاليا فقد قابلكم أهم عضو فيه بعد رئيسه وهو مستشار الوفد القانونى، وسمع منكم كل ما أردتم قوله، وفضلاً عن ذلك لبى أعضاء الوفد الإيطالى، عدا رئيسه ووزير الخارجية لأنكم لستم وفداً رسمياً لبلدكم، دعوتكم لحفلة الشاى التى أقمتموها له، فلاشك أن سلوك الصحف الإيطالية والوفد الإيطالى ما هو إلا نتيجة لجهود هذا الشاب، وتقدير الأوساط السياسية فى إيطاليا له، وأخذت أهدئ من ثورة محمد بك فهمى وأقول له: إنى لا أنتظر تقديراً أو ثناء من أحد، وحسبى أن أشعر برضاء الله عنى وبرضائى عن نفسى لما أقوم به من خدمة بلادى، وقال حسين هلال بك: إنى أوافق فهمى بك على كل ما قاله، وأعترف بأنه لولا وجود سيد أفندى باشا ما كان لنا أى نشاط يذكر، وانتهى الحديث على خبر».

«وقد أكد حسين بك هلال قوله بشكره لى على مساعدة الوفد بخطاب أرسله لى بعد وصوله مصر».

(١٣٤)

بقى فى نهاية مدارستنا لهذه المذكرات أن نبرئ ذمتنا بأن نشير إلى أمرين مهمين، الأول هو أننا نعجب أشد العجب من أن هذه المذكرات الحافلة بالحماسة الوطنية، كانت فى حديثها عن عواطف صاحبها الزوجية أقرب إلى الآلية والميكانيكية، حتى إننا على سبيل المثال، لا نستطيع أن ننقل للقارئ الطريقة التى صور بها زواجه الأول من زوجته الإيطالية، أما الأمر الثانى فقد أشرنا إليه عرضا، وهو أن المذكرات حافلة بتفصيلات قيمة لتاريخنا التعليمى والتربوى، ونرجو الله أن يرزقنا العمر، وأن يوفقنا إلى أن نتناولها بما تستحق من مدارسة فى كتاب ننتوى إصداره عن مذكرات رجال التعليم.

* * *